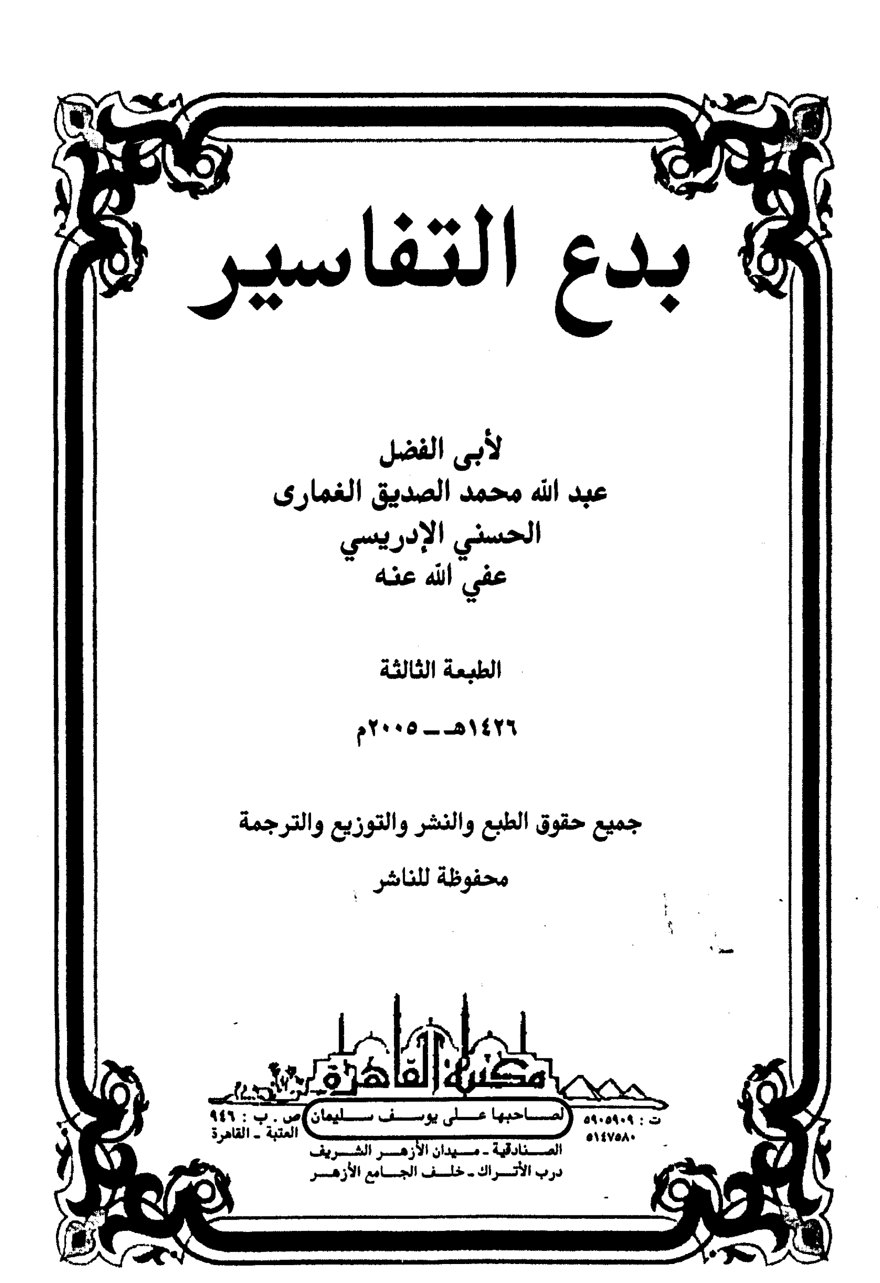


بدع التفاسير

لأبى الفضل
عبد الله محمد الصديق الغمارى
الحسني الإدريسي
عفي الله عنه

الطبعة الثالثة

١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م

مكتبة القاهرة
لصاحبها علي يوسف سليمان
ص . ب : ٩٤٦
العتبة ـ القاهرة
ت : ٥٩٠٥٩٠٩
٥١٤٧٥٨٠
الصنادقية ـ ميدان الأزهر الشريف
درب الأتراك ـ خلف الجامع الأزهر



رقم الإيداع بدار الكتب
٢٠٠٥/٣٩٩٢
الترقيم الدولى I.S.B.N
002-7-977-40

مكتبة القاهرة
علي يوسف سليمان
١٢ ش الصنادقية بالأزهر الشريف ت : ٥٩٠٥٩٠٩
١١ درب الأتراك خلف الجامع الأزهر ت : ٥١٤٧٥٨٠
ص . ب ٩٦٤ العتبة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَـذا كِـتَابٌ مَـا سُـبِقْتُ بِمِـثْلَه   جَــمُّ الفَوَائِـدِ نَاضِـجُ الـثَّمَراتِ
مَهَّــدتُّ فِــيهِ مَسَــائِلاً وَقَواعِـداً   تَـنْفى عَـنِ التَّفْسِيرِ بَعْضَ هِنَاتِ
جَلَيْـتُ فِـيهِ حَقَائِقـاً لاَ يَنْـبَغي   جَهْــلٌ بِهَــا لِمُفسِّــرِ الآيَــاتِ
سَـمَّيْتُهُ " بِـدَعَ التَّفَاسِـيرِ " الَّـتِى   جَــاءَتْ مِـنَ الأَقْـوامِ بِالْعَـثَراتِ
أَرْجُــو مِــنَ اللهِ الكَــريمِ نَوالَــه   مَحْـوَ الذُّنُـوبِ وَمنْحَ فَضْلِ هِبَاتِ

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

خطبة الكتاب

حمدا لمن أنزل الكتاب . تذكرة لأولى الألباب . ووفق لفهم ما أودع فيه من دقائق الخطاب وأبقاه برهاناً على صحة دينه إلى يوم الحساب . أحمده، وأشهد أن لا إلَه إلا هو، شهادة عبد مخلص أواب . وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسولَه، أرسلَه بالَهدى ودين الحق، مؤيداً بالدلائل القاطعة للشك والارتياب ﷺ . ما طلع نجم وغاب . ورضى عن آلَه الكرام، وصحابته العظام، ومن تبع هديهم إلى يوم المآب .

{ أما بعد } فهذا مؤلف عجيب، ليس لَه فى بابه ضريب، تضمن التنبيه على بعض التفاسير المخطئة، وقد تكون أحياناً خاطئة[1] يجب اجتنابها فى فهم كلام الله تعالى، والبعد به عن أن تكون من جملة معانيه، لنبو لفظه عنها، أو مخالفتها لما تقتضيه القواعد المأخوذة من الكتاب والسنة، أو نحو ذلك . وسميته " بدع التفاسير " وهى عبارة الزمخشرى فى كشافه يقولها حين يحكى بعض تلك التفاسير . وإن كان هو نفسه قد وقع فى بعضها بسبب عقيدته الاعتزالية التى كان صلياً فيها، متمسكاً بها حد التعصب والاعتساف . جريناً فى القول بمقتضاها، حتى صدرت عنه عبارات غير لائقة[2] أو بسبب غلطه فى الإعراب، أو مخالفته لسبب النزول . ولم أقصد بهذا المؤلف استيعاب التفاسير المخطئة والخاطئة فإن ذلك غير متيسر لى الآن . وإنما قصدت ذكر مُثُل تكون نموذجاً لما لم يذكر، وعنواناً عليه . ويمكن أن أحيل القارئ على نوعين من كتب التفسير:

أحدهما: تفاسير المعتزلة، كتفسير أبى مسلم محمد بن بحر الأصفهانى، وتفسير أبى الحسن على بن عيسى الرمانى، وتفسير أبى على محمد بن عبد الوهاب الجبائى، وغيرها من التفاسير التى تكثر فيها البدع، لسببين:

الأول: أن أصحابها جرآء على القول فى التفسير بالرأى، لا تردعهم هيبة القرآن، ولا خشية من منزِّلَه، وإذا عورضوا بحديث صرح فى آية بخلاف ما فسروه بها، سارعوا إلى الطعن

---

(1) أى آثمة، والمراد أصحابها . أى أنهم آثمون . قال تعالى ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴾ (القصص: ٨) وفى الحديث " لا يحتكر إلا خاطئ " وأغلب كتاب مصر وأدبائها يستعملون لفظ " خاطئ " بمعنى " مخطئ " فيقولون: أفكار خاطئة يقصدون مخطئة . وهذا من جملة الأغلاط التى ذل بها لسانهم ومرت عليها قلمهم .

(2) وسماه العلامة الفقيه أحمد بن حجر الَهيتمى فى مبحث التكذيب بالقدر من الزواجر: حامل راية المعتزلة إلى النار وما يقال عن توبته من الاعتزال ورجوعه عنه، غير صحيح .

فيه وإنكار صحته، كحديث صهيب - في صحيح مسلم - عن النبي ﷺ في قوله تعالى ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾(يونس:٢٦) أن الزيادة: النظر إلى الله تعالى، فقد طعنوا فيه، ونسبوه إلى المشبهة والمجبرة[1] يعنون أهل السنة، لأنه خالف تفسيرهم الزيادة بالتفضل الزائد على الثواب، مع أن النظر تفضل بل هو أعلى أنواعه . فكم من حديث متفق على صحته، أو مستفيض، أو متواتر . كان نصيبه عندهم الرفض المطلق، لمجيئه بخلاف ما رأوه وقرروه .

والثاني: أنهم جعلوا قواعد مذهبهم في العدل وخلق القرآن، وخلق المكلف أفعاله، ونفي الكلام النفسي، ونفي تعلق المشيئة الإلهية بالمعاصي والمباحات وإستحالة رؤية الله تعالى، وخلود العاصي في النار مثل الكافر . أصولاً مسلّمة، أولوا لها ظواهر الآيات، وخصصوا بها عمومات القرآن، وقيدوا مطلقه، وبالجملة جعلوا قواعدهم حاكمة على آي القرآن الكريم، بحيث لا تفيد إلا مذهبهم !! وتفسير الكشاف، شاهد صدق على ما نقول .

ثانيهما: تفاسير بعض المعاصرين . وهي:

(١) المصحف المفسر، لمحمد فريد وجدى .

(٢) أوضح التفاسير، لمحمد عبد اللطيف الخطيب .

(٣) تفسير أبي زيد الدمنهوري .

(٤) " تيسير القرآن الكريم للقراءة والفهم المستقيم " لعبد الجليل عيسى .

فإن فيها كثيراً من بدع التفاسير، وأكثرها بدعاً، وأشدها وقاحة: الثاني[2] والثالث ولا يقل عنها ما كتبه محمود شلتوت في التفسير، وعبد الوهاب النجار في قصص الأنبياء . ولقد بلغ من جراءة الأخير في بدعته، أنه يذكر الحديث عازياً له إلى الصحيحين . أو أحدهما، ويكون مخالفاً لرأيه، فيعلق عليه بالرد، وقد يصحب رده بالطتر والسخرية، كما فعل بحديث فرار الحجر بثوب موسى عليه السلام [3] ولاحظت على عبد الجليل عيسى في

---

(١) قال الزمخشري في الكشاف: وزعمت المجبرة: أن الزيادة هي النظر إلى وجه الله تعالى، وجاءوا بحديث مرفوع . قال الطيبي في حاشيته: قوله: مرفوع هو عنده بالقاف أي مرقع معدل، وهو عند أهل السنة بالفاء أ هـ . والمجبرة بضم الميم وسكون الجيم وكسر الباء، نسبة إلى القول بالجبر، وهذا الاسم يطلقه المعتزلة على أهل السنة .

(٢) على أنه وفق كتابة بحثين اثنين هما الدفاع عن تعدد الزوجات في الإسلام، والدفاع عن تعدد أزواج النبي عليه الصلاة والسلام .

(٣) كان اليهود يغتسلون عراة، وكان موسى عليه السلام يغتسل وحده لئلا ترى عورته فاتهموه بالأدرة - وهي انتفاخ الخصية - وأراد الله أن يبرئه مما رموه به فذهب يغتسل منفرداً على عادته، ووضع ثيابه على حجر، ولما اغتسل وأراد لبس ثيابه جرى الحجر بها وموسى يجري خلفه، حتى مر على ملأ من بني اسرائيل . فرأوه عارياً ليس به داء، وتحققوا من كذبهم فيما رموه به . ثبت هذا الحديث في الصحيحين عن النبي ﷺ . ==

تفسيره أنه إذا كان فى الآية رأيان، يختار منهما: الذى لا يكون فيه فضل للنبى ﷺ وتنويه عنه ولنذكر لذلك مثلين حضرانى:

(١) قولـه تعـالى ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ﴾ (آل عمران: ٨١) .. جمهـور المفسـرين عـلى أنها تختص بالنبى ﷺ، وأن الله أخذ الميثاق على النبيين ـ أن ظهر فى زمـنهم ـ أن يؤمـنوا به وينصروه . لعموم دعوته، ولأن الله أخبر بأن إبراهيم وإسماعيل، وهما يبنيان البيـت، بشـرا بـه فى صورة دعاء، كما جاءت البشارة به وبصفاته فى التوراة والإنجيل، بل جاءت فـيهما صـفات صـحابته أيضاً[١] وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد أن الله أخذ الميثاق على كل نبىّ فـى النـبى الـذى يـأتى بعـده . واخـتاره عبد الجليل عيسى، مع أنه ضعيف لأنه لم يثبت أن نبياً بشـر بنـبى بعده، ولا يعقـل ذلـك، لأن كـل نـبى إنمـا يبعث لقومه خاصة . وإنما جاءت البشارة بعيسى فى كتب اليهود لأنه بعث مصدقاً بالتوراة، متمماً لشريعتها

(٢) قولـه تعـالى ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (الحجر: ٧٢) قال ابن عباس أقسـم الله بحـياة محمـد ﷺ، وهـذا هـو الـراجح فى الآية، لوجوه منها: سلامته من التقدير الذى هو خلاف الأصل . وقيل: قسم من الملائكة بحياة لوط عليه السلام .

والـتقدير: قالـت الملائكـة تخاطـب لوطـاً: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ وهـذا الـرأى ـ مـع ضـعفه مـن وجوه ـ اختاره عبد الجليل عيسى وأغلب البدع الموجودة فى تفاسـير المعاصـرين، منشـأها الجهـل بأصـول علم التفسير وقواعده، أو الحرص على الظهور بمظهـر المسـتنير الـرأى، الـنابذ للتقليد . ومن هنا كانوا خاطئين، لأنهم أقدموا على التفسير

== وقـد ذكـره البخارى فى قصصه وعلق عليه بعبارة فيها سخرية، حيث تعجب كيف تحصل المعجزة بغير إرادة النـبى، بـل بالرغم منه؟!! لكنه جهل الفرق بين المعجزة والآية فى عرف العلماء فإنهما ـ وإن اتفقا فى كونهمـا خـارقين للعـادة ـ تـنفرد المعجـزة بأنـه يقصـد بها التحدى. فلا تكون إلا بطلب من النبى. والآية لا يقصـد بهـا ذلـك. فـلا يلـزم أن تكـون بطلـبه ولا بإرادتـه . فـانقلاب العصا ثعبان آية ومعجزة لأنه قصد به التحدى، وانفلاق البحر آية، لأنه قصد به انجاء موسى ومن معه. وليس بمعجزة لأنه لم يقصد به التحدى . وفـرار الحجـر بـثوب موسـى آيـة قصد به تبرئته، وليس بمعجزة لعدم التحدى . وانشقاق القمر آية ومعجزة أيضـا. لأنـه وقـع بطلـب الـنبى ﷺ تحديـاً للمشركين، ونبع الماء من الأصابع الشريفة آية، لأنه وقع إسعافاً للصـحابة بالمـاء فـى وقـت لم يجدوه فيه، وليس بمعجزة لعدم التحدى . وحمل مريم كان آية قصد به إظهار قـدرة الله فى إيلاد البنت من غير مسيس ذكر . وقد حصل كرهاً عنها. حتى قالت ﴿ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا ﴾ (مريم: ٢٣) . لكنه ليس بمعجزة، لعدم نبوة مريم . وكلام عيسى فى المهد آية، حصل لتـبرئة مـريم ولـيس بمعجـزة لعدم التحدى . وقد قال تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً ﴾ (المؤمنون: ٥٠) فكل معجزة آية، وليست كل آية معجزة .

(١) اقـرأ قولـه تعـالى ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ (الفتح: ٢٩) إلى آخر السورة، وليس فى القرآن آية جمعت حروف المعجم غير هذه الآية .

بجهل أو بسوء نية وسيلقون جزاء ما كتبوه عند الله تعالى، وهو المسئول أن يلهمنا رشدنا ويوفقنا إلى التمسك بالسنة ويحشرنا فى زمرة أهلها، إنه قريب مجيب .

* * * * * * *

مقدمـــــة

تشتمل على مسائل هامة، تنفع الناظر فى هذا الكتاب خاصة وفى كتب التفسير والحديث عامة :

- ١ -

ألفاظ القرآن الكريم، والأحاديث النبوية الشريفة لها حالتان:

الحالة الأولى: أن يمتنع حملها على المجاز . وهى نوعان:

أحدهما: أن تكون متعلقة بالتوحيد والإيمان، مثل سورة الإخلاص والكافرون والنصر وآية المواريث وسائر آيات الأحكام . فهذه تحمل على حقائقها الشرعية، كالإيمان والإسلام والصلاة والزكاة والصيام والحج، فإن لم يكن لها حقيقة شرعية حملت على الحقيقة اللغوية، كالنكاح والطلاق والظهار والقروء فى العدة، والبعث بعد الموت، والعذاب والنعيم، فدخول المجاز فى هذا النوع ممتنع، لأنه ينافى الغرض من التكليف، ويؤدى إلى مفاسد عظيمة، أعظمها: تعطيل الشريعة .

ثانيهما: أن تكون فى سياق الحديث عن الأمم السابقة، مثل ما يحكيه الله تعالى عن قوم نوح، وقوم فرعون، وبنى اسرائيل، فهذه تحمل على حقيقتها، ويمتنع فيها المجاز، لما سيأتى بيانه فى سورة هود بحول الله تعالى .

الحالة الثانية: أن يمتنع حملاً على الحقيقة، نحو ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ (طه: ٥) ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ (المائدة: ٦٤) ﴿ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ (المائدة: ٦٤) ﴿ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ (ص: ٧٥) ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ (الطور: ٤٨) ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ (الفجر: ٢٢) ونحو قوله ﷺ " إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسئ النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسئ الليل، إن الله لا ينام ولا ينبغى له أن ينام، بيده الميزان يخفض القسط ويرفعه، أن قلوب بنى آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد، فالحقيقة هنا ممتنعة ثم اختلف العلماء على مذهبين معروفين:

تفويض المعنى المراد منها إلى الله تعالى، وهو مذهب السلف، أو تاويلَها بمعان مجازية معروفة فى لغة العرب، وهو مذهب الخلف إلا ان قليلا من جهلة المجسمة حملوها على حقيقتها، فوصفوا الله باليدين والأيدى والأعين والاستواء والمجيئ، حتى قال قائل من زعمائهم: أصف الله بكل ما ورد، ماعدا اللحية والعورة، لعدم ورودهما، ووجدت ابن القيم يقول فى كتابه " زاد المعاد ": وكان شيخنا أبو العباس ابن تيمية، يذكر فى سبب الذؤابة - العذبة - شيئاً بديعا، وهو أن النبى ﷺ أنما اتخذها صبيحة المنام الذى رآه فى المدينة، لما رأى رب العزة تبارك وتعالى، فقال " يا محمد فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت: لا أدرى يا رب، فوضع يده بين كتفى، فعلمت ما بين السماء والأرض " الحديث، وهو فى الترمذى، وسئل عنه البخارى، فقال صحيح قال: فمن تلك الليلة أرخى الذؤابة بين كتفيه، وهذا من العلم الذى تنكره ألسنة الجهال وقلوبهم، ولم أر هذه الفائدة فى أثبات الذؤابة لغيره أهـ .

قلت: إن كان نفى صفات المخلوقات عن الخالق ﷻ جهلا . فالجهل خير من علم يصف الله باليد، وبمماستها كتف نبيه، حتى أتخذ الذؤابة ستراً لذلك المحل الذى مسته يد الله !!! ويكفى دليلا على بدعية هذه الفائدة، شهادة ابن القيم بأنه لم يرها لغير شيخه، أى أنه تفرد بها، لأنه يميل إلى التجسيم، والعجيب إبداء تلك الفائدة المبتدعة من غير أستناد إلى حديث يؤيدها أو رواية تاريخية تعضدها ! بل الذى أثبته التاريخ: أن الذؤابة عادة عربية، كان العرب يتقون بها حر الشمس فى أقفيتهم وأكتافهم ولذلك لم يواظب عليها النبى ﷺ، ولا صح فى فضلها حديث ووجدت أيضاً ابن عبد الهادى المقدسى الحنبلى - وهو من تلاميذ ابن تيمية - ذكر فى " الصارم المنكى " حديث " ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا " الحديث، وحكى خلاف المتقدمين - يعنى من مجسمى الحنابلة - هل يخلو منه العرش إذا نزل ؟ فقال قوم منهم: نعم يخلو منه، لأنه إذا نزل فقد بارحه ! ولا يعقل أن يكون فى مكانين فى وقت واحد !! وقال آخرون: لا يخلو منه لأنه لو خلا منه لزم أن يكون العرش وبعض السموات أعلىَ منه حين نزولَه إلى السماء الدنيا. مع أنه العلى على مخلوقاته !! فهذا هو العلم الذى يصف ابن القيم من ينكره بأنهم جهال، ونحن نحمد الله على هذا الجهل، ونسأله الثبات عليه حتى نلقاه .

- ٢ -

يجب على المتصدى لتفسير القرآن الكريم أن يتجرد من الآراء المذهبية، ويوطن نفسه على تقبل ما تفيده الآية، وتدل عليه، ويرجع عما كان يراه أو يعتقده بخلافها، لأن القرآن حجة الله على خلقه، وعهده إلى عباده، إليه يتحاكمون، وعن حكمه يصدرون، ولا يجوز له أن يتمحل فى تأويل الآية، ويتطلب الوجوه البعيدة فى الإعراب، أو يحملا على المعانى التى لا تتفق مع سياقها، أو سبب نزولها لتفيد رأى فلان، أو عقيدة فلان، فإن هذا تحريف لكلام الله تعالى، وتغيير لمعانيه، وهو منشأ **بدع التفاسير**، وسبب هام لكثرة وقوعها فى تفاسير المعتزلة كما مرت الإشارة إليه، ويرتكب هذا من أهل الحديث: الحافظ الطحاوى الحنفى، فإنه يتعسف فى تأويل الأحاديث ويسرف فى التعسف، لتوافق مذهب أبى حنيفة، وقد يرتكب البيهقى مثل هذا بالنسبة لمذهب الشافعية، لكن على قلة. ورأيت الباجى فى شرح الموطأ ـ حين تكلم على حديث " كل ذى ناب من السباع ومخلب من الطير حرام "، قال: يحتمل أن يريد يقوله " حرام " أنه مكروه .

قلت: هذا تعسف فى شرح الحديث، ليوافق مذهب المالكية فى كراهة أكل السباع. ولم أقف له على غير هذا الموضع .

- ٣ -

مما يجب على المفسر فى تفسيره أمور:

أحدها: ألا يخالف ما صح عن النبى ﷺ فى تفسير آية ؛ كتفسير المغضوب عليهم باليهود، والضالين بالنصارى، وهو قليل ؛ فى عزمى أن أجمعه فى كتاب خاص، وفق الله إلى ذلك وأعان عليه، أما تفسير الصحابى أو التابعى ـ إن كان يستند إلى ذكر سبب النزول ـ فيجب أتباعه ؛ لأنه فى حكم المرفوع، كقول جابر: كانت اليهود تقول: من أتى امرأته فى قبلها من جهة دبرها، جاء الولد أحول، فأنزل الله تعالى رداً عليهم ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ﴾(البقرة:٢٢٣) وهذا يعين أن معنى (أَنَّى): كيف، لا: أين، ويكون تفسيرها بأين من **بدع التفاسير** . وأن لم يستند إلى ذلك فيبنى على الخلاف حجية قول الصحابى[١] .

ثانيها: أن يفسر الآيات بالمعانى التى كانت معروفة للعرب وقت نزوله، حقائق

(١) على أن معظم الأصوليين والمفسرين أوجبوا أتباع تفسير الصحابى مطلقا، لأنه شاهد التنزيل. وعرف من القرائن الدالة على تعيين المعنى المراد ما لم نعرفه، وانظر إوائل تفسير ابن كثير .

كانـت أو مجـازات . لقولـه تعـالى ﴿ إِنَّـا أَنْزَلْـنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً ﴾ (يوسف: ٢) فيجب فهمه فى حـدود قواعـد اللغة العربية، وأساليبها المعهودة لهم ولا يجوز لغيره بمعان مستجدة، حدثت بعـد التـنزيل، ومـن فسـره بها فقد زعم أن القرآن خاطب العرب بما لم يفهموه، ولا عرفوه، وكـان تفسـيره مـن بـدع التفاسير، وممن يسلك هذا: محمد عبده فى تفسيره، وعبد الوهاب النجار فى قصص الأنبياء .

ثالـثها: أن يجتنـب تفسـير ألفاظـه باللغـات الغريـبة أو تخـريج اعرابه على الوجوه الضـعيفة، أو الشـاذة، بحسـب القواعـد النحوية . لأن ذلك ينافى فصاحة القرآن، التى هى خلـوص كـلماته مـن الغـرابة والتـنافر والتعقيد . ولاشك أن حمل الكلمة على لغة عربية، أو تخريج الكلام على اعراب ضعيف أو شاذ، يورث تنافرا فى الكلمات، وضعفا فى التركيب . وكـثيرا مـا يحمـل بعـض المعـتزلة ألفاظا من القرآن، على لغات غربية نادرة، سيأتى التنبيه على بعضها بحول الله تعالى .

١ ـ من سورة البقرة

قولـه تعـالى ﴿ خَـتَمَ الله عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾(البقرة:٧) ذكر الزمخشرى فى هذه الآية وجوها مـن الـتأويل، تتضمن جميعها نفى أسناد الختم إلى الله حقيقة، وإنما هو على سبيل التمثيل أو المجـاز، وأن الخـاتم فى الحقيقة هو الشيطان أو الكافر . وليس لله تعالى فعل فى تجافى قلوبهـم عن الحق، ونبوها عن قبوله . وهو تفسير اعتزالى، فيه اعتساف وانحراف عن مدلول اللفـظ . وأدلـة الكـتاب والسـنة متضافرة على أسناد الختم والطبع إلى الله تعالى، والأصل فى الإسـناد الحقيقة . والنبى ﷺ يقول " بعثت داعياً وليس إلىّ من الهداية شئ وجعل الشيطان مزيـنا وليس له من الضلالة شئ " والشيطان نفسه يقول يوم القيامة ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾(ابراهيم:٢٢) وفسر الزمخشرى دعوته بمجرد الوسوسة والـتزيين . ومـا أورده لتأيـيد تأويلاتـه، معـارض بمـثله . ولـيس غرضـنا أن نفيض فى بيان المعارضـة، ووجـوه الاحـتجاج . ولكن غرضنا أن نقول: تفسيره هذا من **بدع التفاسير** . لأنه تغيير لمعنى الآية، وعدول عما يقتضيه ظاهرها، لتتمشى مع مذهبه وعقيدته .

قولـه تعـالى ﴿ يُضِـلُّ بِـهِ كَـثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً ﴾(البقرة:٢٦) قال الزمخشرى أيضاً: وإسـناد الإضـلال إلى الله تعـالى، إسـناد الفعل إلى السبب، لأنه لما ضرب المثل فضل به قوم، واهـتدى بـه قوم، تسبب لضلالهم وهداهم . وعن مالك ابن دينار رحمة الله تعالى: أنه دخل عـلى محـبوس قـد أخـذ بمـال عليه، وقـيد، فقـال: يـا أبا يحيى أما ترى ما نحن فيه من القـيود؟ فـرفع مـالك رأسـه، فرأى سلة فقال: لمن هذه السلة ؟ فقال: لى فأمر بها تنزل فإذا دجاج وأخبصة، فقال مالك: هذه وضعت القيود فى رجلك . أهـ .

قلت: هـذا التفسـير عـلى نمـط سـابقه وهو مبنى على مذهب المعتزلة أن العبد يخلق أفعالـه . وقـد أساء بذكره قصة السلة، تنظيراً لله تعالى، وله من هذه التفاسير البدعية كثير، ليس غرضنا استقصاءها، وإنما ذكرنا هذين المثالين، ليستدل بهما على غيرهما .

قولـه تعالى ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَـؤُلاءِ إِنْ كُنْـتُمْ صَـادِقِينَ [١] ﴾(البقرة:٣١) معـنى الآية: أن الله تعالى علم آدم أسماء المسميات

---

(١) هـذه الآية من أدلة القائلين بان اللغة توفيقية، كما يدل لهم أيضا حديث أبى داود والترمذى، قال الله ﷻ: ﴿ أنـا الله وأنـا الـرحمن خلقـت الرحم وشققت لها اسما من اسمى ﴾ الحديث، ولهذا البحث بقية تنظر فى المزهر للسيوطى، وارشاد الفحول للشوكانى .

كلّها مثل جبل، وشجر، وبيت، وإنسان، وقصعة . إلى آخرها من اجناس وأنواع .

ومن بدع التفاسير: علمه أسماء النبى ﷺ وأسماء الأئمة من ولده، نقلَه الشريف المرتضى فى أماليه، وقال: وفيه أحاديث مروية .

قلت: المرتضى شيعى أمامى، والإمامية يقولون بغمامة أثنى عشر من أهل البيت، فكان الله تعالى علم آدم أسماء ثلاثة عشر رجلا ! ! ويقال على هذا: ما فائدة التأكيد بلفظ (**كُلّها**) ؟ والأحاديث التى أشار إليها المرتضى ساقطة، لا تقوم بها حجة .

قولـه تعالى ﴿ **وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ** ﴾(البقرة:٥٣) أى الجامع بين كونه كتابا منزلا وفرقانا يفرق بين الحق والباطل، وهى التوراة . ونحوه قولـه تعالى ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْراً** ﴾(الانبياء:٤٨) أى الكتاب الجامع بين كونه فرقانا وضياء وذكرا . فالنسق فى الآيتين لجميع الصفات، كقولك: رأيت الغيث والليث، تريد الرجل الجامع بين الجود والجراءة .

وقيل: الكتاب التوراة، والفرقان انفراق البحر لموسى عليه السلام

وقيل: الفرقان: الفرق بين الحلال والحرام . أو: الفرق بين موسى وأصحابه المؤمنين، وبين فرعون وأصحابه الكافرين، باغراق هؤلاء، وانجاء أولئك . وقيل: البرهان الفارق بين الإيمان والكفر، من العصا واليد وغيرهما .

ومن بدع التفاسير: أن المراد بالفرقان القرآن، والتقدير: وإذ آتينا موسى التوراة والإيمان بالقرآن، لأن موسى عليه السلام كان مؤمنا بالنبى ﷺ، ومبشرا ببعثته . وفى هذا الوجه حذف لفظ الإيمان، من غير دليل يدل عليه، وحذف حرف الجر من الفرقان، ونصبه بنزع الخافض وهو شاذ لا يقاس إلا فى أنَّ وأنْ .

أو المراد: القرآن أيضاً، والتقدير: وإذ آتينا موسى الكتاب، وآتينا محمداً الفرقان ، فهو كقول الشاعر:

علفتها تبناً وماء بارداً ... حتى غدت همالة عيناها

أى: وسقيتها ماء باردا . فذل علفت على سقيت، كما دل فى الآية: آتينا موسى على آتينا محمدا، وهذا ضعيف مردود، لأن " علفتها " فى معنى غذيتها فصح عطف " ماء " على " تبنا " لأنه مما يتغذى به، والآية لا يصح فيها ذلك بحال، وضعفه أبو بكر ابن

الأنباري من جهة أخرى فقال: ان الاستشهاد بالبيت لا يجوز على هذا الوجه، لأن البيت أكتفى فيه بذكر فعل عن ذكر فعل غيره، والآية اكتفى فيها باسم دون أسم . وتوضيح كلامه، أن موضوع الكلام فى البيت متحد، وهو الناقة . فجاز حذف الفعل، لأن وحدة الموضوع دلت عليه، والآية ليست كذلك، إذ موضوع الكلام فيها متعدد فموسى المخبر عنه بآياته الكتاب، غير محمد ﷺ المخبر عنه الفرقان، فلذا لم . يجز حذفه قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ ﴾(البقرة: ٥٤) الذين عبدوا العجل ﴿ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ ﴾ إلها ﴿ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ ﴾ خالقكم من عبادته . واختير لفظ بارئكم تنبيها على غباوتهم حيث تركوا عبادة الخالق إلى مخلوق ﴿ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ أى ليقتل البرئ منكم المجرم فأرسل الله عليهم سحابة سوداء، لئلا ينظر بعضهم بعضا فيرحمه . فقتل منهم نحو سبعين ألفا، فتاب الله عليهم، كما فى بقية الآية . وليس بكثير عليهم القتل، لأنهم ارتدوا بعد إيمانهم[1] وكفروا بعد ما شاهدوا من الآيات، ما يخشع لها قلب الجاحد العنيد .

ومن بدع التفاسير: قول المرتضى ﴿ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ معناه: اجتهدوا فى التوبة مما أقدمتم عليه، والندم على ما فات، وإدخال المشاق الشديدة عليكم فى ذلك، حتى تكادوا أن تقتلوا أنفسكم، وقد يسمى من فعل ما يقارب الشئ باسم فاعله، ومذهب أهل اللغة فى ذلك معروف مشهور، يقولون: ضرب فلان عبده حتى قتله، وفلان قتله العشق، وأخرج نفسه، وأبطل روحه .

قلت: هذا معنى مجازى، والمجاز لا يدخل فيما يحكيه القرآن عن الم السابقة، لما بيناه فى سورة هود .

قوله تعالى ﴿ وَاتَّبَعُوا ﴾ (البقرة:١٠٢) أى اليهود والمعنى: نبذوا كتاب الله وأتبعوا ﴿ مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾ أى على عهد ملكه وفى زمانه . وذلك أن الشياطين كانوا يسترقون السمع، ويضمون إلى ما سمعوا اكاذيب يلفقونها ثم يلقونها إلى الكهنة، وقد دونوها فى كتب يقرؤنها ويعلمونها الناس، وفشا ذلك فى زمان سليمان عليه السلام، حتى قالوا: أن الجن تعلم الغيب وكانوا يقولون: هذا علم سليمان، وما تم لسليمان ملكه إلا بهذا العلم . فاتبعوا كتب

---

(١) وفى شريعتنا الإسلامية يقتل المرتد، لحديث البخارى " من بدل دينه فاقتلوه " لكن بعد امهاله ثلاثة أيام واستتابته فيها من غير تضييق عليه ولا اضطهاد له . وليس قتل المرتد من الاكراه فى الدين كما يقول مبتدعة العصر وملاحدته، لكن من اعتنق الإسلام واقتنع بأدلته خصوصا القرآن الكريم ثم رجع عنه، يكون متلاعبا. أو قاصدا أفساد عقيدة بعض المسلمين الذين تصلهم به قرابة أو صداقة أو معاملة، فكان القتل عقابه كما عوقب الزانى المحصن بالرجم . وبعض الدول الكبيرة فى هذا العصر تقتل السارق أو المتلاعب فى التموين حماية للشعب فكيف يعاب على الإسلام أن يسن تشريعا يحمى عقيدة المسلمين ممن يتلاعب بها ؟!! والعقيدة أهم من القوت وأسمى من المال .

السحر . ورفضوا كتب أنبيائهم ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ﴾ بعمل السحر . تكذيب للشياطين واليهود وتبرئة لسليمان مما رموه ﴿ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ ﴾ هم الذين ﴿ كَفَرُوا ﴾ باستعمال السحر وتدوينه . حال كونهم ﴿ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴾ يقصدون به اغواءهم واخلالهم ﴿ وَ ﴾ يعلمونهم ﴿ مَا ﴾ اى السحر الذى ﴿ أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ ﴾ الكائنين ﴿ بِبَابِلَ ﴾ بلد بالعراق، وهذا البلد ومصر كانا أكثر البلاد أستعمالا للسحر، وأكثرها ترويجا له، فبعث الله موسى إلى أهل مصر، ابطل سحرهم بعصاه، حتى صار من الأمثال السائرة، قول الشاعر:

إذا جاء موسى وألقى العصا فقد بطل السحر والساحر

وبعث فى بابل ﴿ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ﴾ يعلمان الناس السحر، ليعلموا الفرق بينه وبين المعجزة، وليعلموا أن الساحر صنو الشيطان، وأن النبى مؤيد من الرحمن ويؤخذ منه أن تعلم السحر لمثل هذه المصلحة جائز ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى ﴾ ينصحاه، و ﴿ يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ ﴾ ابتلاء من الله وأمتحان ﴿ فَلا تَكْفُرْ ﴾ فلا تتعلم معتقدا أنه حق فتكفر ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا ﴾ فيتعلم الناس من الملكين ﴿ مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ﴾ اى علم السحر الذى يكون سبباً فى التفريق بين الزوجين من حيلة وتمويه، كالنفث فى العقد ونحوه مما يحدث الله عنده الفرك[1] والنشوز والخلاف ﴿ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ ﴾(البقرة:١٠٢) بارادته، هذا تفسير هذه الآية تفسيراً يلائم سياقها ويقتضيه نظمها من غير تكلف .

وقيل: فيها وجوه من التاويل تعتبر من بدع التفاسير، ونحن ننبه عليها بحول الله تعالى .

فقيل فى ﴿ مَا أُنْزِلَ ﴾ إنه فى محل جر، معطوف على ﴿ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾ والمعنى: واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولا أنزل الله السحر على الملكين - وهما جبريل وميكائيل - ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت . وهما رجلان لا ملكان، ذكرا بعد الناس تبينا وتمييزا لهما . وهذا التأويل فساده ظاهر، لأن فيه تفكيكا لنظم الآية، وتعقيدا لمعناها وإلحاقا لها بالألغاز والمعميات .

وقيل: يجوز أن يكون هاروت وماروت بدلا من الشياطين، والمعنى: ولكن الشياطين هاروت وماروت كفروا، وهذا فاسد كسابقه .

وقيل: أن ﴿ مَا ﴾ فى قوله ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ ﴾ نافية والمعنى: أنهما لا يعلمان أحدا،

---

(١) البغض . يقال: فركت المرأة زوجها، ابغضته .

بل ينهيان عنه . ويبلغ من نهيهما وصدهما عنه أن يقولا ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ ﴾ (البقرة:١٠٢) باستعمال السحر . وهذا باطل أيضا، لأن ﴿ حَتَّى يَقُولا ﴾ تقتضى أنهما يعلمانه بعد تحذيره ونصحه، فهى غاية لامتناع التعليم .

وإذا كانا لا يعلمانه أصلا، فلم كانا فتنة؟! وهل يعقل أن يكون مجرد وجودهما فتنة ؟!

وقيل ـ تفريعا على هذا التأويل الباطل ـ: ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا ﴾ أى من الكفر والسحر المفهومين مما سبق ﴿ مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ﴾ وهذا واضح البطلان، لا يحتاج إلى بيان . وكيف يتعلم الإنسان من الكفر أن يفرق بين المرء وزوجه ؟!! .

قيل أيضاً: ويجوز أن يكون معنى ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا ﴾ فيتعلمون بدلا مما علمهم الملكان، أى يعدلون عما علمهم ووقفهم عليه الملكان فى النهى عن السحر إلى تعلمه . ويكفى فى رد هذا التأويل ما فيه من التكلف الزائد على أن ﴿ مِنْ ﴾ تكون بمعنى: بدل، إذا وقعت بين شئين تصح فيهما المعارضة نحو ﴿ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ﴾(التوبة: ٣٨) فالحياة الدنيا والآخرة، يصح التبادل والتعاوض بينهما . ولكن لا يصح التبادل بين الملكين وعلم السحر . ثم يجب أن يكون الفعل مؤذناً بمعنى البدلية، فعل " رضيتم " فانه يؤذن بأنهم رضوا بشئ بدلا عن آخر . لكن فعل " يتعلمون " لا يؤذن بذلك .

وقيل: يجوز أن يكون قولَه ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا ﴾ راجعا إلى هاروت وماروت، على أنهما من الشياطين كما مر، أو رجلان كما مر أيضا، ومعنى قولَهما ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ ﴾(البقرة:١٠٢) يكون على سبيل الاستهزاء كما يقول الماجن من الناس إذا فعل قبيحا: هذا فعل من لا يفلح، لا يقصد النصح، لكن على وجه المجون والاستهزاء، ورد: أن هارون وماروت ملكان، لا يجوز فى حقهما الاستهزاء والقول بأنهما شيطانان ساقط، لا دليل عليه، ومن قال: رجلان، استند إلى قراءة ﴿ الْمَلِكَيْنِ ﴾ بكسر اللام، وهى قراءة شاذة، وهى هنا مردودة، لأن القراءة المتواترة تعارضها .

وقيل: ـ تفريعا على جعل ﴿ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ ﴾ للنفى: ـ يكون الضمير فى قوله ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ ﴾ يعود على قبيلتين من الجن، أو إلى شياطين الجن والإنس وفيه تشتيت الكلام، وعود الضمائر إلى مالم يذكر .

وقيل: معنى ﴿ مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ﴾ إنهم يغوون أحد الزوجين ويحملونه على الكفر والشرك بالله تعالى، فيكون بذلك قد فارق زوجه الآخر المقيم على

دينه، فيفرق بينهما اختلاف الملة . وهذا باطل لوجهين:

أحدهما: أن الملكين لم يكونا يعلمان كيفية اغواء الناس وحملَهم على الشرك . وإنما كانا يعلمان السحر، ليفرق بينه وبين المعجزة، وليعرف شره فيتقى .

ثانيهما: أن التفريق بين الزوجين لاختلاف الدين . لم يثبت أنه كان معمولا به فى بابل، حين كانا يعلمان السحر .

وقيل: معناه: يسعون بين الزوجين بالنميمة والوشاية، حتى يئول أمرهما إلى الفرقة . وهذا باطل أيضاً، لأن الملكين لم يعلما النميمة والوشاية ولا جاء ما يدل على ذلك . على أن النميمة ليست علما لَه قواعد كعلم السحر .

وقيل: كلمة ﴿ الا ﴾ زائدة، والمعنى وما هم بضارين به من أحد بإذن الله وهذا باطل بوجهين:

أحدهما: أن دعوى زيادة كلمة فى القرآن، تخريج لَه على وجه ضعيف وهو لا يجوز

ثانيهما: أن المعنى على إثباتها لأن مما علم بالضرورة والمشاهدة أن المسحور قد يحصل لَه ضرر فى جسمه أو عقلَه، فأخبرت الآية ما يحصل من ذلك الضرر، لا يكون إلا بإذن الله تعالى .

وقيل فى﴿ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ ﴾: أن يكون الضرر هو ما يلحق المسحور من الأدوية والأغذية التى يطعمه إياها السحرة، ويدعون أنها موجبة لما يقصدونه فيه من الأمور وهذا ليس بشئ لأن السحرة لا يطعمون المسحور أدوية ولا غيرها . وإنما يعلمون عملَهم من نفث فى العقد ونحوه، فيحصل الضرر بإذن الله . وربما لا يحصل ضرر إذا كان المسحور قوى الروح، أو يتحصن بسورتى المعوذتين . ونحوهما .

" تنبيه " تكلمت على قصة هاروت وماروت فى كتاب " قصة ادريس "[1] فليراجعها من أرادها هناك .

قولَه تعالى ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾(البقرة: ١٨٥) جملة واحدة إلى السماء الدنيا، ثم نزل بعد ذلك مفرقا حسب الأسباب والمقتضيات ﴿ هُدًى لِلنَّاسِ ﴾ ثناء على القرآن، ومدح بانزالَه فيه، وهذا التفسير هو المشهور .

وقيل: معنى ﴿ أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾: أنه انزل فى فرضه وإيجاب صومه فيكون ﴿ فِيهِ ﴾

---

(١) مطبوع بمكتبة القاهرة وكل كتبنا .

للسببية، كما يقال: أنزل الله في الصلاة كذا، أي لأجل الصلاة. وهو مردود بوجهين:

أحدهما: انه بعيد من مدلول لفظ الآية، مناف لسياقها.

ثانيهما: أن القرآن في إيجاب الصلاة والزكاة والحج والجهاد، فما الحكمة في تخصيص رمضان بأن القرآن أنزل في إيجابه.

ووجه ثالث، ذكره الشريف المرتضى، فقال: هذا التأويل إنما هرب متكلفة من شئ، وظن أنه قد أعتصم بتأويله عنه، وهو بعد ثابت على ما كان عليه، لأن قوله ﴿ الْقُرْآنُ ﴾ إذا كان ظاهره يقتضى إنزال جميع القرآن، فيجب على هذا التأويل أن يكون قد أنزل في فرض رمضان جميع القرآن، ونحن نعلم أن قليلا من القرآن يتضمن إيجاب صوم رمضان، وأن اكثره خالى من ذلك، فإن قيل: المراد بذلك أنه انزل في فرضه شئ من القرآن، وبعض منه قيل: فهلا أقتصر على هذا وحمل الكلام على أنه انزل فيه شئ من القرآن: في شهر رمضان، ولم يحتج إلى أن يجعل لفظة ﴿ فِيهِ ﴾ بمعنى في فرضه وإيجاب صومه أهـ. وبالجملة هو من بدع التفاسير.

قوله تعالى ﴿ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ ﴾(البقرة:١٨٧) أى وابتغوا بمباشرتهن ما كتب الله لكم من الولد، ولا تقصدوا قضاء الشهوة وحده، أو: وابتغوا المحل الذى كتبه الله لكم وحلله، وهو الفرج، ما لم يكتب لكم حله وهو الدبر، أو: وابتغوا ما كتب الله لكم من الإباحة بعد الحظر وقيل: واطلبوا ليلة القدر، وما كتب الله لكم من الثواب أن أصبتموها وقمتموها.

قال الزمخشرى: وهو قريب من بدع التفاسير.

قلت: لم يجعله منها، لأن صدر الآية مفتح بإباحة الجماع ليلة الصيام في رمضان، كما أن سياق الآيات قبله في رمضان أيضا، ومع هذا فهو بعيد من مدلول اللفظ. ومن السياق الذى يقتضى إباحة بعد حظر، قوله تعالى ﴿ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ﴾(البقرة:١٨٩) كان العرب في الجاهلية، إذا أحرموا لم يدخلوا بيوتهم من أبوابها، ودخلوا من ظهورها بنقب يحدثونه في الجدار إلا قريشا لأنهم سكان الحرم، وجيران البيت. فنزلت الآية تبين بطلان هذا العمل، وأنه لا بر فيه. هذا ما صح في سبب نزول الآية، وهو يتمشى مع سياقها. فإنهم لما سألوا عن الهلال، واختلاف أحواله. أنزل الله تعالى ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ

لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ﴾ وأعقبه بقوله ﴿ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا ﴾ حين احرامكم بالحجّ ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ ﴾ بر ﴿ مَنِ اتَّقَى ﴾ الله ﴿ وَأْتُوا الْبُيُوتَ ﴾ إذا أحرمتم بحج أو عمرة ﴿ مِنْ أَبْوَابِهَا ﴾ وهذا المعنى واضح .

وقال أبو عبيدة: معنى الآية: ليس البر بان تطلبوا الخير من غير أهله، وتلتمسوه من غير بابه ﴿ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ﴾ واطلبوا الخير من وجهه، ومن عند أهله .

وقال أبو علي الجبائي: خرج هذا الكلام مخرج ضرب المثل، والمعنى: ليس البر بأن يأتي الرجل الشئ من خلاف جهته، لأن اتيانه من خلاف جهته، يخرج الفعل عن حد الصواب والبر، إلى الإثم والخطأ . وبين البر والتقوى، وأمر بإتيان الأمور من وجوهها وجعل تعالى ذكر البيوت وظهورها وأبوابها مثلا . لأن العادل في الأمر عن وجهه، كالعادل في البيت عن بابه . حكى هذين التأويلين المرتضى في أماليه، وحكى بعدهما تأويلاً ثالثا . هو: أن تكون البيوت كناية عن النساء، ويكون المعنى: وأتوا النساء من حيث أمركم الله، والعرب تسمى المرأة بيتا . قال الشاعر:

مالي إذا أنزعها[1] صأيت ؟ أكبر غيرني أم بيت ؟

أراد بالبيت المرأة .

قلت: الوجه الذى ذكرناه أولاً هو الصحيح .

والوجهان بعده لا يناسبان سياق الآية، فهما قريبان من بدع التفاسير أما الوجه الأخير، فمردود لوجهين :

أحدهما: أنه لا يوافق سبب النزول، ولا يتمشى مع سياق الآية ونظمها .

ثانيهما: أن معناه جاء مصرحا به في قوله تعالى ﴿ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ الله ﴾(البقرة: ٢٢٢) فلا فائدة في استنباطه من هذه الآية، بطريق الكناية، إلا مجرد التكرار الخالى عن أى نكتة بيانية، أو حكمة تشريعية، وهذا مما يجب تنزيه القرآن عنه فالوجه المذكور من بدع التفاسير .

قوله تعالى ﴿ أُولَئِكَ ﴾ الداعون بالحسنتين ﴿ لَهُمْ نَصِيبٌ ﴾ ثواب ﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾ من

---

(١) الضمير في أنزعها للدلو، اى مالى إذا نزعت الدلو من البئر صأيت أى خرج من صدرى صوت كأنى شيئا شديدا فوق طاقتى ؟ فهل أضعفنى كبر السن ؟ أو قربان الزوجة ؟

أعمال الحج وغيرها من الطاعات ﴿ وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ يوشك أن يقيم القيامة، ويحاسب العباد، فبادروا إكثار الذكر، وطلب الآخرة . فالمراد بهذا: الإخبار بقرب يوم القيامة الذى يكون فيه الحساب، لينال المؤمنون ثواب أعمالهم .

وقيل: المراد وصفه تعالى بسرعة محاسبة الخلائق على كثرة عددهم، وكثرة أعمالهم وتنوعها، ليدل على كمال قدرته، ووجوب الحذر منه، والرغبة فى ثوابه، فقد ثبت أنه يحاسب الخلق فى مقدار فواق ناقة .

ومن بدع التفاسير: قول بعضهم: المراد: أنه سريع العلم بكل محسوب، وأنه لما كانت عادة الناس أن يستعملوا الحساب والاحصاء فى أكثر أمورهم، أخبرهم تعالى أنه يعلم ما يحسبون بغير حساب، وسمى العلم حسابا على سبيل المجاز، من أطلاق اسم المعلوم على العلم، وهو مردود بوجوه .

أحدهما: أن العلم بالحساب أو المحسوب، لا يسمى حسابا فى اللغة حقيقة، ولا مجازا .

ثانيهما: لو فرض تسميته حسابا، لم يجز أن يقال: سريع العلم بالحساب . لأن علمه تعالى بالأشياء مما لا يتجدد فيوصف بالسرعة .

ثالثهما: أنه لا يناسب سياق الآية . وكثير من المفسرين يغفل عن ملاحظة السياق، وهى ملاحظة واجبة الأعتبار، لأن الآيات إنما تترابط وتأتلف . بسياقانها المتناسبة . لولا ذلك، لكانت متفككة غير مترابطة .

ومن البدع أيضاً: أن المراد: أن الله سريع القبول لدعاء عباده، مع كثرتهم وأختلاف دعواتهم. فيعطى لكل داع ما ينفعه بحد ومقدار . وهذا التأويل ـ وأن كان مناسباً لنظم الآية ـ مردود، لأن قبول الدعاء لا يسمى حسابا .

قوله تعالى ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ ﴾(البقرة:٢١٧) بدل أشتمال والمعنى: يسألونك عن القتال فى الشهر الحرام ؟ ﴿ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ ﴾ إثم ﴿ كَبِيرٌ ﴾ فهو صفة للمحذوف المقدر ﴿ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ﴾ مبتدأ والخبر أكبر عند الله ﴿ وَكُفْرٌ بِهِ ﴾ معطوف على المبتدأ ﴿ وَ ﴾ صد عن ﴿ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ ﴾ فالمسجد الحرام معطوف على سبيل الله، لأن المشركين كانوا يصدون الناس عن دين الله، ويصدون المؤمنين عن دخول المسجد الحرام والطواف به .

وقال المرتضى: المسجد معطوف على الشهر الحرام، والمعنى: يسألونك عن الشهر الحرام وعن المسجد الحرام . وهذا من بدع التفاسير، وهو مردود بوجهين .

أحدهما: الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه بأجنبى .

ثانيهما: أن السؤال عن المسجد، ليس له جواب فى الآية .

قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ﴾(البقرة:٢٤٣) ألوف جمع ألف، وهو يفيد كثرتهم .

وقيل: ألوف متألفون، من اللفة جمع آلف، كقاعد وقعود . وهو من بدع التفاسير، كما قال الزمخشرى، وان حكاه البيضاوى ولم يعترضه، وهو بعيد من سياق الكلام، لأنه لا معنى لذكر الألفة هنا، ولا مناسبة تقتضيها .

ومن بدع التفاسير فى الآية أيضا: أن معنى الموت الاحتلال، والاحياء الاستقلال: فيكون المعنى: أن الله سلط على أولئك الألوف قوما أستعبدوهم، واحتلوا بلادهم، فذلك موتهم . ثم هيأ الله لهم أسباب الدفاع عن بلادهم وديارهم حتى أستقلوا، فذلك احياؤهم قرأت هذا التاويل منسوبا لمحمد عبده[1] لكن لم يأت فى القرآن موت واحياء بهذا المعنى، ولا كان معروفا عند العرب وقت نزوله القرآن وقبله، ولا يستطيع أحد أن يأتى بشاهد من كلامهم عليه . والشيخ غفر الله له كثيراً ما يفسر آيات القرآن بمعان مستحدثة، لم تكن معروفة وقت التنزيل . وقد عاب الزمخشرى مثل على بعض المفسرين فقال ـ فى قوله تعالى ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَه مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ ﴾ (البقرة:١٧٨) .

(١) كأنه نحا منحى بعض المعتزلة الذين يقولون: احياء الموتى امر خارق للعادة لا يجوز وقوعه إلا معجزة النبى.
أيضاً أن المعارف تصير ضرورية عند معاينة الموت وأهواله، فيجب إذا عاش أولئك القوم أن يبقوا ذاكرين
ذلك، لأن الأشياء العظيمة لا تنسى مع كمال العقل، وإذا بقيت عندهم تلك العلوم الضرورية أمتنع تكليفهم
كالحال فى الآخرة، وهذا كلام باطل. لأن المتنع هو ظهور الخارق على يد مدعى النبوة كذبا كمسيلة مثلا .
إما أن يظهر الله فى ملكه خارقا من الخوارق تحذير لعباده أو تنبيها لهم، لا على يد أحد فلم يقم على
أمتناعه دليل . بل هو جائز وقد أمات الله الرجل الذى مر على قرية خاوية فتعجب كيف يحييها الله بعد
موتها ؟!! ثم أحياه بعد مائة عام فوجد طعامه لم يتغير، وأراه كيف أحيا حماره . فهذا الخارق ليس
بمعجزة لأنه لم يتحد به أحد، بل صرح الله أنه جعله آية للناس على البعث .
ودعواهم أن الأشياء العظيمة لا تنسى. مردود بأن ظاهر الآية يقتضى أنهم ماتوا فجأة فلم يعاينوا هولا ولا
شدة ولو سلم أنهم عاينوا فلا مانع أن ينسوا ما عاينوه بعد إحيائهم. لأنهم خلقوا خلقا جديدا. بدليل قوله
تعالى ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۞ بَلْ
بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ (الأنعام: ٢٧-٢٨) ولم
يعودوا لما نهوا عنه إلا لأنهم نسوا ما عاينوه .

فإن قلت: فقد ثبت قولَهم: عفا أثره إذا محاه وأزالَه، فهلا جعلت معناه: فمن محى لَه من أخيه شئ ؟

قلت: عبارة قلقة في مكانها، والعفو في باب الجنايات، عبارة متداولة مشهورة في الكتاب والسنة واستعمال الناس، فلا يعدل عنها إلى أخرى قلقة نابية عن مكانها . وترى كثيراً ممن يتعاطى هذا العلم - يعنى التفسير - يجترئ - إذا أعضل عليه تخريج وجه للمشكل من كلام الله - على أختراع لفة، وادعاء على العرب مالا تعرفه، وهذه جرأة يستعاذ بالله منها أهـ .

والمعنى المفهوم من الآية: ان جمعا من الناس كانوا قبلنا - عدتهم عشرة آلاف أو أكثر، خرجوا من ديارهم هربا من الموت، لوباء وقع بأرضهم فأماتهم الله ميتة رجل واحد، ثم أحياهم، ليعلموا أنه لا مفر من قضاء الله[1]

وهذه الآية ذكرت لمناسبة قولَه تعالى ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى ﴾ (البقرة: ٢٣٨) فإنه لما أمرهم بإقامة الصلاة فى حالة الخوف من عدو أو غيره، ذكر قصة هؤلاء القوم الذين هربوا من الموت، ليبين لَهم أن قضاء الله نافذ، لا يرده حاذر، ولا حرص حريص، وحيث ثبت ذلك فإقامة الصلاة فى حالة الخوف والشدة، أوجب على أهل الإيمان، وأليق بهم، لدلالتها على وثوقهم بالله، واطمئنانهم إلى أحكامه واستسلامهم لقضائه

(**تنبيه**) ثبت فى السنة إطلاق الذل، كناية عن الإحتلال . ففى المسند وسنن أبى داود وابن ماجه عن ابن عمر ﷺ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول " إذا ضن الناس بالدينار والدرهم واتبعوا أذناب البقر[2] وتركوا الجهاد فى سبيل الله . أنزل الله بهم ذلا فلم يرفعه حتى يراجعوا دينهم، ولاشك أن الذل الذى يترتب على ترك الجهاد، هو احتلال العدو لبلاد المسلمين، وتحكمه فى شئونهم . وهذا من الكنايات الواضحة التى لا تحتاج إلى كبير تأمل .

قولَه تعالى ﴿ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ (البقرة: ٢٤٨) سكينة سكون وطمأنينة . والمعنى: أنهم إذا رأوا التابوت سكنت قلوبهم واطمأنت

---

(١) هكذا قال أكثر المفسرين، ذكروا: أن قرية قرب واسط وقع بها طاعون فخرج عامة اهلَها، ولم يبق إلا طائفة معظهم مرضى . فلما ارتفع الطاعون رجع الهاربون سالمين فقال القاعدون: هؤلاء أجزم منا، لوصنعنا كما صنعوا نجونا . فوقع فيها الطاعون من قابل، فهرب أهل القرية جميعا . حتى نزلوا واديا أفيح. وظنوا النجاة فأماتهم الله جميعا وقد صح النهى عن الفرار من الوباء، لما خرج عمر ﷺ إلى الشام، وبلغ سرغ علم أن الوباء وقع بالشام فاستشار الصحابة، فلم يجد عندهم علما وهم بالرجوع إلى المدينة . ثم جاء عبد الرحمن بن عوف ﷺ فقال لَه: سمعت رسول الله ﷺ يقول " إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه " فحمد الله عمر ورجع، وهو اول من نفذ نظام الكرنتينة، عملا بالحديث

(٢) أتباع أذناب البقر كناية عن الاشتغال بحراثة الأرض وزراعتها

ومن بدع التفاسير، ما حكاه الزمخشرى ولم يتعقبه: ان السكينة صورة من زبرجد أو ياقوت، كانت فى التابوت، لَها رأس كرأس الَهر وذنب كذنبه وجناحان - فتئن، فيزف التابوت نحو العدو، وهم يمضون معه، فإذا استقر، ثبتوا وسكنوا، نزل النصر، وحكى أيضا عن على ﷺ: أن السكينة لَها وجه كوجه الإنسان، وفيها ريح هفافة .

قلت: لكن لم يصح عنه، فإن قيل: فما تفعل بحديث الصحيحين: ان أسيد ابن حضير كان يقرأ فى ليلة سورة البقرة، فرأى مثل الظلمة؛ فيها أمثال السرج، تغشاه فى مكانه؛ حتى أضاء المكان ونفرت الفرس، فسكت مخافة أن تصيب الفرس ابنه الذى كان قريبا منها، فذهبت، فلما أصبح أخبر النبى ﷺ، فقال " تلك السكينة تنزلت لقراءتك ولو قرأت لأصبحت يراها الناس لا تستتر منهم " فهذا يفيد أن السكينة جسم يرى ؟

قلت: حقيقة السكينة ما قدمناه فى تفسير الآية، أما الحديث فهو من باب مجاز الحذف، والتقدير: تلك أثر السكينة، وبيان ذلك: أن قارئ القرآن تنزل عليه السكينة، كما ثبت فى صحيح مسلم، فحين تلا أسيد ﷺ سورة البقرة، نزلت السكينة عليه فى قلبه . وكان من أثر نزولَها عليه، وتحققه بها . اكرام الله لَه بهذه الكرامة التى أنارت لَه المكان وما فيه[1] وفيها أشارة إلى أن القرآن يفتح البصار والبصائر، وينور البواطن والظواهر .

قولَه تعالى ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾(البقرة: ٢٥٥) حرف بعض المتصوفة هذه الآية إلى من ذل ذى - يعنى نفسه - يشفع عنده، يقصد أن من أذل نفسه يشفع عند الله. وغفل عن الاستثناء الذى يصنعه، كما غفل - لجهلَه - عن أن فعل ذل لازم. ونظير هذا شرح متصوف آخر . قولَه ﷺ - فى حديث جبريل الطويل - " الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك " على معنى: فإن لم تكن أى تعد بأن فنيت عن نفسك تراه . ونسى أن تراه يجب أن يكون مجزوما، لأنه جواب الشرط وهو مرفوع فى الحديث، كما نسى أن قولَه " فإنه يراك " يكون على شرحه زائدا لا معنى لَه .

قولَه تعالى ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾(البقرة: ٢٥٥) الكرسى مخلوق عظيم نسبة السموات والأرض إليه، كحلقة فى فلاة من الأرض، وهو بالنسبة إلى العرش كحلقة ملقاة فى فلاة من الأرض . والآية تبين عظم قدرة الله تعالى، لأن الكرسى وهو بعض مخلوقاته، يسع الدنيا بسمواتها وأرضها ومن فيها وما فيها .

---

(١) وثبت فى رواية فى الصحيحين أن النبى ﷺ قال لأسيد " تلك الملائكة تنزلت لقراءة سورة البقرة ولو قرأت لأصبحت يراها الناس ما تستتر منهم "

ومن بدع التفاسير . قول المعتزلة: الكرسى هو العلم . والمعنى: وسع علمه السموات والأرض، لجأوا إلى هذا التفسير، لإنكارهم الكرسى والعرش ونحوهما مما ثبت به النص، وقد نعى عليهم ابن قتيبة ذلك، فقال - فى تأويل مختلف الحديث :- وفسروا القرآن بأعجب تفسير، يريدون أن يردوه إلى مذاهبهم، ويحملوا التأويل على نحلهم - فقال فريق منهم فى قوله تعالى ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾: أى علمه، وجاؤا على ذلك بشاهد لا يعرف وهو قول الشاعر:

ولا يكرسئ علم الله مخلوق . كأنه عندهم: ولا يعلم علم الله مخلوق ويكرسئ مهموز، يستوحشون أن يجعلوا الله كرسيا اهـ .

قلت: لاشك أن الشطر المذكور مصنوع، وماذا يضيرهم أن يكون من مخلوقات الله عرش وكرسى؟ إلا ان يكونوا توهموا أنهما موضع أستواء الله تعالى؛ ووضع قدمه، كما قال به بعض المجسمة، وهو توهم يقضى العقل ببطلانه، لاستمالته فى حق الله تعالى. وفى الكشاف فى قوله ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ﴾ أربعة أوجه :

أحدها: أن كرسيه لم يضن عن السموات والأرض، لبسطه وسعته وما هو إلا تصوير لعظمته، وتخييل فقط، ولا كرسى ثمة ولا قعود ولا قاعد .

قلت: هذا من بدع التفسير أيضاً، وهو مبنى على توهم أن الكرسى موضع القعود. وهو توهم باطل كما مر، وإطلاق التخييل فى جانب الله تعالى لا يجوز، لأنه منزه عنه، عاد كلامه .

والثانى: وسع علمه، وسمى العلم كرسيا، تسمية بمكانه الذى هو كرسى العالم .

قلت: لا يوجد إطلاق الكرسى على العلم فى اللغة العربية إذا استثنينا ذلك الشطر المصنوع، وحاول بما ذكره أن يجعله مجازا مرسلا، أطلاق المحل وإرادة الحال. ولكنها محاولة فاشلة .

إذ الكرسى ليس مكانا للعلم بل هوم مكان لن يجلس عليه من عالم وجاهل وبليد وذكى، فإن صح تسمية العلم كرسيا، لكونه مكان العالم، صح تسمية الجهل والبلادة والذكاء كرسيا لعلاقة المكانية أيضاً!! وكذلك يصح إطلاق السرير على العلم والجهل للعلاقة نفسها!! وما أظن الزمخشرى أخفق فى تقرير مجاز، مثل إخفاقه هنا، والعجيب أنه حين تكلم على قوله تعالى ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً ﴾ (الأنفال:٤٣) وفسر منامك برؤياك قال: وعن الحسن: فى منامك، فى عينك، لأنها مكان النوم، كما يقال للقطيفة: المنامة، لأنه ينام فيها

وأعقبه يقولَه، وهذا تفسير فيه تعسف وما أحسب الرواية عنه صحيحه، وما يلائم علمه بكلام العرب وفصاحته!! ولولا تقديسه للحسن، لأنه يعتبره شيخ المعتزلة[1] ورئيسهم، لعد كلامه هنا من بدع التفاسير وما قالَه عن هذا التفسير، يقال عن تفسير الكرسى بالعلم، على أن العين مكان للنوم حقيقة، أما الكرسى فلا علاقة لَه بالعلم، عاد كلامه .

والثالث: وسع ملكه، تسمية بمكانه الذى هو كرسى الملك .

قلت: جعل الكرسى هنا مجازا عن الملك، وهو من بدع التفاسير أيضا . لأن العلاقة يجب أن يكون لَها مزيد أختصاصى بالمعنى الذى تجوز لَه، وعلى هذا فالذى يصح أن يتجوز به عن الملك هو العرش أو التاج أو المقاليد، لأن هذه الأشياء لا توجد إلا عند الملوك، وهى مظاهر ملكهم أما الكرسى فلا اختصاص لَه بالملوك، ولا مظهر فيه من مظاهر الملك وأبهته، وهو موجود عند جميع الرعايا فقرائها وأغنيائها، فلا يصح جعلَه كناية عن الملك .

ولو قرأت قولَه تعالى ﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾(الزمر:٦٣) أو ﴿ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾(التوبة:١٢٩) لوجدت الكناية عن الملك فيه واضحة، بخلاف ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ﴾(البقرة:٢٥٥)

والرابع: ما روى أنه خلق كرسيا هو بين يدى العرش، دونه السموات والأرض وهو الى العرش كأصغر شئ .

قلت: ذكر هذا الوجه بصيغة التضعيف، لأنه يخالف رأى المعتزلة، مع انه هو الصحيح كما مر، وذكر عن الحسن أن الكرسى هو العرش، وهذا غير صحيح، والعجب ان من بعده كالبيضاوى وأبى السعود والسيوطى قلدوه، فذكروا فى معنى الكرسى هنا العلم والملك، غير مدركين أن هذا المعنى من أختراع المعتزلة، هربا من الاعتراف بحقيقة الكرسى كما ثبت فى السنة[2] !!

قولَه تعالى ﴿ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ

---

(١) لأن الحسن البصرى شيخ واصل بن عطاء الغزال البصرى رئيس المعتزلة وإمامهم. لكن الحسن برئ من مذهبهم، رغم نقلهم عنه أشياء توافقهم . وهى اما غير صحيحة عنه، وإما مؤولة . وقد قيل فى سبب تسميتهم معتزلة: أن الحسن لما سمع كلام واصل فى القدر، وخلق الأفعال وغير ذلك من مسائلهم التى تخالف ما كان عليه الصحابة. قال لَه: أعتزل مجلسنا .

(٢) قولَه تعالى ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلا أَذىً لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾(البقرة:٢٦٢) ما أنفقوا مفعول أول ليتبعون، ومنا مفعول ثاني، وأذى معطوف عليه . ومن بدع == ==التفاسير: جعل أذى اسم لا. والخبر محذوف، والمعنى ك ولا أذى حاصل منهم . نقله ابن حجر فى الزواجر عن بعضهم واستبعده قلت: بل هو باطل، يخالف رسم المصحف، لأن اسم لا يبنى معها على الفتح، وأذى فى الآية منصوب .

إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى ﴾(البقرة: ٢٨٢) معنى الآية: أنه أن لم يوجد رجلان يشهدان، فليشهد رجل وامرأتان، لأجل أن تذكر إحدى المرأتين الأخرى إذا نسيت فلفظ تذكر من التذكير ضد النسيان وهو واضح .

ومن بدع التفاسير - كما يقول الزمخشري -: فتذكر، فتجعل إحداهما الأخرى ذكرا، يعني: أنهما إذا اجتمعتا كانتا بمنزلة الذكر، وهذا لا يتلاقى مع قوله ﴿ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا ﴾ .

* * * * * * * *

٢- ومن سورة آل عمران

قوله تعالى ﴿ رَبَّنَا لا تُزِغْ ﴾(آل عمران: ٨) تمل ﴿ قُلُوبَنَا ﴾ عن الحق ﴿ بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ إليه ﴿ وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ﴾ تثبيتاً ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ هذا دعاء الراسخين فى العلم يدعون الله ألا يزيغ قلوبهم عن الحق وأن يثبتهم عليه . حكى الله دعاءهم، فى معرض الثناء عليهم وهو دعاء واضح ليس فيه غموض . ولكن المعتزلة الذين يرون أن الله لا يزيغ القلوب، وإنما يزيغها اصحابها، رأوا هذا الدعاء غامضا يحتاج إلى تأويل .

فقال أبو على الجبائى: المراد بالاية: ربنا لا تزغ قلوبنا عن ثوابك ورحمتك: ومعنى هذا السؤال: أنهم سألوا الله تعالى أن يلطف بهم فى فعل الإيمان، حتى يقيموا عليه، ولا يتركوه فى مستقبل عمرهم فيستحقوا بترك الإيمان أن تزيغ قلوبهم عن الثواب. وان يفعل بهم بدلا منه العقاب، فإن قال قائل: فما هذا الثواب الذى هو فى قلوب المؤمنين، حتى زعمتم أنهم سألوا الله تعالى الا يزيغ قلوبهم عنه ؟ وأجاب بأن من الثواب الذى فى قلوب المؤمنين. ما ذكره الله تعالى من الشرح والسعة، بقوله تعالى ﴿ فَمَنْ يُرِدِ الله أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلام ﴾(الأنعام: ١٢٥) وقوله تعالى لرسوله ﷺ ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ (الشرح: ١) وضد هذا الشرح هو الضيق والحرج اللذان يفعلان بالكفار عقوبة، قال: ومن ذلك أيضاً التطهير الذى يفعله فى قلوب المؤمنين، وهو الذى منعه الكافرين، فقال تعالى ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ الله أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ﴾(المائدة: ٤١) ومن ذلك أيضا كتابته الإيمان فى قلوب المؤمنين، كما قال تعالى ﴿ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ ﴾ (المجادلة: ٢٢) وضد هذه الكتابة هى سمات الكفر التى فى قلوب الكافرين، فكأنهم سألوا الله تعالى ألا يزيغ قلوبهم عن هذا الثواب على ضده من العقاب .

قلت: هذا من بدع التفاسير. وفيه تكلف فى التقدير، وعدول عن ظاهر اللفظ. إلى ما

لا دليل عليه من السياق . وبظهر أن أبا على أفترض الراسخين فى العلم معتزلة يدعون الله على قواعد مذهبهم ! وإلا فما هذا التأويل المتكلف ؟ وهل غاب عنه أن الداعى لا يراعى تلك التقديرات التى تحتاج مراعاتها إلى معرفة قواعد علم الكلام وغيره ؟! وقد صح عن النبى ﷺ دعاء يؤيد دعاء الراسخين فيما يفيده ظاهر الكلام من غير تعسف ولا التواء، فكان يقول عليه الصلاة والسلام " يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك " وسألته أم سلمة ﵂ عن هذا الدعاء الذى كان يكثر منه، فقال لَها " أن قلوب بنى آدم كلَها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد فإن شاء أقامه وان شاء أزاغه " .

وقال المرتضى: المراد بالآية: ربنا لا تشدد علينا المحنة فى التكليف، ولا تشق علينا فيه، فيفضى بنا ذلك إلى زيغ القلوب منا بعد الهداية . وليس يمتنع أن يضيفوا ما يقع من زيغ قلوبهم عند تشديده تعالى عليهم المحنة إليه، كما قال ﷻ (أنها - يعنى الآية - ﴿ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ ﴾ (التوبة: ١٢٥) وكما قال مخبراً عن نوح ﵇ ﴿ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَاراً ﴾ (نوح: ٦) .

فإن قيل: كيف يشدد عليهم فى المحنة ؟ قلنا: بأن يقوى شهواتهم لما قبحه فى عقولَهم، ونفورهم عن الواجب عليهم . فيكون التكليف عليهم بذلك شاقا، والثواب المستحق عليه عظيما متضاعفا . وإنما يحسن أن يجعلَه شاقا، تعريضا لَهذه المنزلة .

قال: ويجوز أن يكون ذلك دعاء بالتثبيت لَهم على الَهداية، وإمدادهم بالألطاف التى معها يستمرون على الإيمان . فإن قيل: كيف يكون مزيفا لقلوبهم بألا يفعل اللطف ؟ قلنا: من حيث كان المعلوم أنه متى قطع إمدادهم بألطافه وتوفيقاته، زاغوا وانصرفوا عن الإيمان . ويجرى هذا مجرى قولَهم: اللهم لا تسلط علينا من لا يرحمنا . معناه: لا تخل بيننا وبين من لا يرحمنا . فيتسلط علينا. ومنه قول الشاعر:

أتانى ورحلى بالمدينة رقعة ... لآل تميم اقعدت كل قائم

أراد: قعد لَها كل قائم. فكأنهم قالوا: لا تخل بيننا وبين نفوسنا، وتمنعنا ألطافك، فنزيغ ونضل . أهـ .

وقال الزمخشرى: ﴿ رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا ﴾(آل عمران: ٨) لا تبلنا ببلايا تزيغ فيها قلوبنا ﴿ بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ وأرشدتنا لدينك، أو: لا تمنعنا ألطافك لعد إذ لطفت بنا أهـ .

قلت: ليس ببعيد أن يكون هذان التاويلان ملخصين مما سبق والمرتضى - وان كان أماميا - فالإمامة يوافقون المعتزلة فى مسائل منها هذه ومسألة العدل وأمتناع رؤية الله تعالى .

وهذان التأويلان من بدع التفاسير، رغم إطالة المرتضى فى توضيحهما ودعمهما بالاشهاد والتنظير، بيان ذلك من وجوه .

الأول: أن الدعاء مما لا يدخله مجاز ولا كناية، لأنه توجه على الله تعالى، ورغبة إليه، والمتوجه الراغب أشغل من أن يلاحظ العلاقة المصححة للمجاز، والقرينة المانعة من الحقيقة، أو يطلق اللفظ ويريد لازم معناه، أو ينوى مضافا محذوفا، إلى غير ذلك مما يحسن أستعماله فى مقامات أخرى كالخطب مثلا . وانظر إلى الدعوات الواردة فى القرآن فى سورة البقرة وآل عمران وغافر ونوح وغيرها، تجدها خالية من المجاز، وهذا مما يغفل عنه المفسرون، فيقعون فى خطأ كبير كما حصل هنا .

الثانى: أن الدعاء يحسن فيه الإطناب، تلذذا بخطاب الله تعالى ومناجاته . وبسطا لمطالب العبد بين يدى خالقه . وعلى هذا لو صح ما قدره المعتزلة فى الآية، لكان الواجب أن يصرح به فيها ـ بأن يقال ك ربنا لا تشدد علينا المحنة فى التكليف، ولا تبلنا ببلايا تزيغ بها قلوبنا . ولا تقطع امدادنا بتوفيقاتك . ولا تمنعنا ألطافك . حتى نستمر على الإيمان بك، لأن المقام كما قلنا مقام أطناب . وهكذا دعوات القرآن، فيها أطناب، وفيها تكرار لكلمة ﴿ رَبَّنَا ﴾ وهو نوع من الإطناب .

الثالث: إذا كان الباعث لهم على تأويل الإزاغة بما ذكروه أن الإزاغة قبيحة، والله لا يفعل القبيح، فقد وقعوا فيما هربوا منه حيث أولوا: لا تزغ قلوبنا، بمعنى: لا تمنعنا ألطافك فتزيغ قلوبنا، ومنع الألطاف قبيح أيضا، لأنه بخل، والله منزه عنه . ولأنه يؤدى إلى الإزاغة حتما، وما أدي إلى القبيح، قبيح، ولأنه لا يؤدى إلى استحقاق ثواب وتضعيفه، فلم تكن فيه جهة حسن أصلا وكذلك التخلية بينهم وبين نفوسهم، قبيحة أيضاً، لأن نتيجتها المحتمة الإزاغة والضلال، فحالهم فى تأويلاتهم التى وقعوا بها فيما فروا منه، أشبه بالقائل .

كأننا والماء من حولنا قوم جلوس حولهم ماء !!

قوله تعالى ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾ (آل عمران: ٤٧) لما بشرت الملائكة مريم بعيسى عليهم السلام، قالت متعجبة، تخاطب الله تعالى ـ: ﴿ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾ .

ومن بدع التفاسير ـ كما يقول الزمخشرى ـ: أن قولها: (رَبِّ)، نداء لجبريل عليه السلام بمعنى يا سيدى .

قلت: نداء لله تعالى، حصل منها على سبيل التعجب والدهشة، حين سمعت ما لم يخطر لَها على بال . أما مخاطبتها لجبريل، فهى مذكورة فى سورة مريم .

قوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ ﴾(آل عمران: ١٦١) ذكر فيه الزمخشرى ـ وتبعه البيضاوى ـ وجهين:

أحدهما: أنه تبرئة لرسول الله ﷺ من الغلول، وتنزيه لَه، وتنبيه على عصمته بأن النبوة والغلول متنافيان . وهذا الوجه هو الصحيح، وهو الموافق لسبب النزول . فقد صح ان قطيفة حمراء، فقدت يوم بدر، من المغنم . فقال بعض المنافقين: لعل رسول الله ﷺ أخذها، فنزلت الآية . وتؤيده أيضا قراءة ورش ﴿ يُغَلَّ ﴾ بالبناء للمجهول، وهى أبلغ فى التبرئة والتنزيه ، لأن معناها: وما كان لنبى أن ينسب إلى الغلول . فهو نهى عن نسبته للغلول، فى صورة نفى وهو أقوى كما لا يخفى .

والثانى: أن يكون مبالغة فى النهى لرسول الله ﷺ على ما روى أنه بعث طلائع فغنمت غنائم فقسمها، ولم يقسم للطلائع فنزلت . يعنى وما كان لنبى أن يعطى قوما ويمنع آخرين، بل عليه أن يقسم بالسويه . وسمى حرمان بعض الغزاة غلولا، تغليظا وتقبيحا لصورة الأمر .

قلت: هذا من بدع التفاسير، ورواية بعث طلائع، وعدم قسمته لَها لا تصح[١] وحمل الغلول على الحرمان بعيد عن مدلول اللفظ وتاييده بالتغليظ والتقبيح، اساءة فى حق الجناب النبوى الكريم، مع مخالفتها لأسلوب القرآن، إذ ليس فيه آية تشتمل على تغليظ فى مخاطبته، أو تقبيح لشئ فعلَه . بل فيه من دلائل تكريمه فى الخطاب ما يطول تتبعه . وانظر كتابنا " دلالة القرآن المبين على أن النبى أفضل العالمين "[٢] .

" **تنبيه** " صح أن النبى ﷺ آثر فى قسمة الفئ فى بعض المغازى لكنه إيثار لمصلحة الدعوة، ولتاليف ضعفاء الإسلام . لم يعنفه الله عليه، ولا لامه . ففى غزوة حنين أعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل، وأعطى عيينة بن حصين مثلَه، وأعطى ناسا من أشراف العرب وآثرهم . فقال رجل: والله أن هذه قسمة ما عدل فيها، وما أريد فيها وجه الله . فأخبره ابن مسعود ﷺ . فتغير وجهه ﷺ حتى كان كالصدف ـ بكسر الصاد: صبغ أحمر ـ

(١) رواها ابن أبى شيبة عن الضحاك مرسلا، فهى مرسلة ضعيفة .
(٢) طبع مكتبة القاهرة .

ثم قال " يرحم الله موسى قد أوذى باكثر من هذا فصبر " والحديث في الصحيحين، وأخشى ان يكون الزمخشرى قد آذاه ﷺ بتفسيره المذكور .

* * * * * * * *

٣- من سورة النساء

قولـه تعالى ﴿ واللاتى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ ﴾ (النساء: ٣٤) أمر الله تعالى في الناشزات بوعظهن، ثم بهجرهن في المضاجع، ثم بضربهن ضربا غير مبرح أن لم ينفع فيهن وعظ ولا هجر .

وقيل ـ في معنى ﴿ وَاهْجُرُوهُنَّ ﴾: ـ أكرهوهن على الجماع، واربطوهن بالهِجار من هجر البعير إذا ربطه بالهِجار[١] .

قال الزمخشرى: وهذا من تفسير الثقلاء، وصدق فيما قال . فإنها إذا كانت ناشزة عاصية لزوجها، فكيف يليق به أن يكرهها على الجماع ويربطها لأجله إلا إذا كان سمجا ثقيلا ؟ ! وهو أيضا من بدع التفاسير، لأنه عدول عن اللغة المشهورة والمناسبة للسياق، إلى لغة غير مشهورة ولا مناسبة .

قولـه تعالى ﴿ وَإِنْ تُصِبْهُمْ ﴾(النساء: ٧٨) أي: اليهود ﴿ حَسَنَةٌ ﴾ نعمة كخصب وسعة ﴿ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ الله وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ محنة كجدب وضيق ﴿ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ ﴾ يا محمد أى بشؤمك ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ كُلٌّ ﴾ من الحسنة والسيئة ﴿ مِنْ عِنْدِ الله ﴾ من قبله ﴿ فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ ﴾ لا يقاربون أن يفهموا ﴿ حَدِيثاً ﴾ يلقى لنبيهم، والقصد بالاستفهام التعجيب من فرط جهلهم ﴿ مَا أَصَابَكَ ﴾ (النساء: ٧٩) الخطاب للنبى والمراد أفراد أمته ﴿ مِنْ حَسَنَةٍ ﴾ من نعمة ﴿ فَمِنَ الله ﴾ أتتك فضلا منه ﴿ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ ﴾ بلية ﴿ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ أتتك، حيث أرتكبت ما يستوجبها من الذنوب ﴿ وَأَرْسَلْنَاكَ ﴾ يا محمد ﴿ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بالله شَهِيداً ﴾ على رسالتك .

وقال أبو على الجبائى: قد ثبت أن لفظ السيئة تارة يقع على البلية والمحنة . وتارة

---

(١) الهِجار ـ بكسر الهاء ـ حبل يشد به البعير، والعجيب أن ابن جرير الطبرى أختار هذا التأويل مع بعده وشذوذه ! ! ولذا قال أبو بكر ابن العربى المعافرى: يالها من هفوة عالم بالكتاب والسنة ! لكن الحامل له على اختيار هذا التأويل، حديث غريب رواه ابن وهب عن مالك عن أسماء بنت أبى بكر زوجة الزبير بن العوام، وانظر كتاب أحكام القرآن لابن العربى وتفسير القرطبى .

يقع على الذنب والمعصية . ثم أنه تعالى أضاف السيئة إلى نفسه أولا، وإلى العبد ثانيا . ولابد من التوفيق بينهما، ليزول التناقض بين هاتين الآيتين المتجاورتين . وقد حمل المخالفون . أنفسهم على تغيير الآية، وقرؤا: أفمن نفسك ؟ فغيروا القرآن ! وسلكوا مثل طريقة الرافضة فى ادعاء العنيين فى القرآن . فإن قيل: لم أضاف تعالى الحسنة التى هى الطاعة إلى نفسه دون السيئة وكلاهما فعل العبد عندكم ؟

قلنا: الحسنة - وأن كانت فعل العبد - فإنما وصل إليها بتسهيله وألطافه فصحت الإضافة إليه . وأما السيئة فهى غير مضافة إليه تعالى بأنه فعلها ولا أرادها ولا أمر بها ولا رغب فيها، فلا جرم انقطعت هذه النسبة إلى الله تعالى من جميع الوجوه .

قلت: هذا من بدع التفاسير . وقد توسع فى رده ابن حجر الهيتمى فى كتاب الزواجر، بعد أن سماه: إمام المعتزلة فى الضلالة، ووصفه بقصور الفهم، وفساد التصور، وقلة العلم . ونحن نلخص رده، قال: ليس المراد بالسيئة والحسنة أولا وثانيا، طاعة ولا معصية، بل النعم والمحن، وهما ليستا من فعلهم . ودليل ذلك: التعبير بأصابك إذ لا يقال فى الطاعة والمعصية: أصابني، بل أصبته . بخلاف النعم والمحن، فإنها التى يقال فيها: أصابتنى . السياق صريح فى ذلك، إذ سبب نزول الآية: أنه ﷺ لما قدم المدينة، قال المنافقون واليهود: مازلنا نعرف النقص فى ثمارها ومزارعنا منذ قدم الرجل وأصحابه، فكانوا ينسبون النعم إلى الله، والمحن على النبى ﷺ . فأنزل الله ذلك مخبرا بمقالتهم الفاسدة، ثم روها بقوله ﴿ قُل كُلٌّ مِنْ عِنْدِ الله ﴾(النساء:٧٨) مبيناً لمصدرها ثم السبب فخاطبه ﷺ غيره بقوله تعالى ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ ﴾ أى نعمة كخصب ونصر فمن الله اى من محض فضله، إذ لا يستحق أحد عليه تعالى شيئاً . وما أصابك من سيئة اى محنة كجدب وهزيمة فمن نفسك أى من اجل عصيانها، فهى من الله لكن بسبب ذنب النفى عقوبة لها، كما قال تعالى ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾(الشورى: ٣٠) وقال إبراهيم عليه السلام ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾(الشعراء: ٨٠) فأضاف المرض لنفسه والشفاء إلى الله تعالى، رعاية للأدب لأنه تعالى إنما يضاف إليه على الخصوص الشريف دون الخسيس، فيقال: يا خالق الخلق، ولا يقال: يا خالق القردة والخنازير . ويقال: يا مدبر السموات والأرض. ولا يقال: يا مدبر القمل والخنافس، فكذا هنا . وأما ما شنع به على من قرأ: أفمن نفسك ؟ بالاستفهام، فهو من جملة افترائه كشيعته . إذ أهل السنة لم يعولوا على هذه القراءة. ولا جعلوها حجة . وإنما الحق فى ذلك: أنه إن صح أنه قرأ بها أحد من الصحابة والتابعين، وجب قبولها،

وتكون حينئذ دليلاً عليهم . لأن القراءة الشاذة إذا صح سندها كالخبر الصحيح في الحجية على الأصح . وإن لم يصح ذلك لم يلتفت إليها، وليست الحجية مفتقرة إليها أ هـ مخلصاً .

ومن أراد الوقوف عليه بتمامه فليقرأه في مبحث التكذيب بالقدر من الزواجر . والاستفهام المشار إليه في القراءة الشاذة، وجه كونه دليلاً على المعتزلة أنه استفهام انكارى قطعاً، ينكر على من يجعل الحسنة من الله والسيئة من العبد والمقصود أن الجبائى أخطأ في الكلام على هذه الآية خطأ فاحشاً لا يقع منه صغار المبتدئين، بسبب حرصه الشديد على نصرة مذهبه .

قوله تعالى ﴿ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيماً ﴾ (النساء: ١٦٤) معنى الآية: أن الله تعالى أسمع موسى كلامه، وأكد بالمصدر، لينفي عنه احتمال المجاز، ولذا سمى موسى كليم الله .

ومن بدع التفاسير - كما قال الزمخشرى -: أن كلم من الكلم . بسكون اللام، وأن المعنى: وجرح موسى بأظفار المحن، ومخالب الفتن .

قلت: هذا تفسير خاطيء، لأن صاحبه تعمد تحريف معنى الآية، حتى لا يضطر إلى الإعتراف بنسبة الكلام إلى الله تعالى .

* * * * * * * *

٤- ومن سورة المائدة

قوله تعالى ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾ (المائدة: ٢٩) أستشكل المعتزلة هذه الآية، فقالوا: كيف يجوز أن يخبر الله عن هابيل - وقد وصفه بالتقوى - أنه يريد أن يبوء أخوه بالإثم وهو قبيح ؟ وإرادة القبيح قبيحة؟

وأجاب المرتضى - وهو من الإمامية الذين يوافقون المعتزلة في هذه المسألة - بأن في الكلام مضافا محذوفا، وأن المعنى: إني أريد أن تبوء بعقوبة إثمي وعقوبة إثمك، والدليل على هذا المضاف المحذوف، قوله ﴿ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾ قال: وليس بقبيح أن يريد نزول العقاب المستحق بمستحقه .

قلت: والأشعرية يقولون: كان لابد لهابيل من أحد أمرين: إما أن يدافع عن نفسه، فيأثم بقتل أخيه . وإما أن يستسلم، فيأثم أخوه بقتله ولم يرد الأول، فاضطر إلى الثانى، فلم يرد إثم أخيه إلا من حيث أختياره الاستسلام على المقاومة . وهذا كما يتمنى المسلم

الشهادة، ومعناها: أن يبوء الكافر بإثم قتله، مضموما إلى إثم كفره . فالمسلم لم يقصد هذا المعنى الذي هو لازم لتمنيه الاستشهاد في سبيل الله .

وظهر لى وجه آخر، وهو: أن يكون غرض هابيل وعظ أخيه وتذكيره بمصيره عند الله أن قتله، حتى يرتدع وينزجر . فلم يرد بكلامه إلا تهديد أخيه وزجره .

ومن بدع التفاسير: ما حكاه المرتضى بقوله: وذكر قوم فى الآية وجها آخر، وهو: أن يكون المراد: إنى أريد زوال أن تبوء بإثمى وإثمك لأنه لم يرد له إلا الخير والرشد . فحذف زوال، وأقام أن وما اتصل بها مقامه .

كما قال تعالى ﴿ وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾(البقرة:٩٣) أى حب العجل، حذف حب، وأقام العجل مقامه، وكما قال تعالى ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ ﴾(يوسف:٨٢) أى أهلها .

قال: وهذا قول بعيد، لأنه لا دلالة فى الكلام على محذوف . وإنما تستحسن العرب الحذف فى بعض المواضع، لاقتضاء الكلام المحذوف ودلالته عليه أ هـ .

أى كالآيتين المذكورتين، فإن الحذف فيهما اقتضاه الكلام، ودل عليه، لأن العجل لا يشرب فى القلوب، ولكن حبه يشرب فيها . ولا تسأل القرية، ولكن يسأل أهلها . ومما يبعد ذلك التأويل أيضا، قوله تعالى ﴿ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾ .

" تنبيه " قوله ﴿ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ ﴾ معناه . بإثم قتلى، وإثمك الذى لم يقبل قربانك لأجله، فإضافة إثم الأول، إلى مفعوله . وهى سائغة شائعة فى اللغة العربية . وإضافة الثانى، إلى فاعله .

****

٥ - ومن سورة الأنعام

قوله تعالى ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ۞ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ۞ انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾(الأنعام:٢٢-٢٤) .

معنى الآية: أن المشركين حين يجمعهم الله يوم القيامة، ويسألهم عن شركائهم الذين كانوا

يـزعمونهم آلهـة فـى الدنـيا يتنصلون منهم، ويحلفون أنهم ما كانوا مشركين . هذا وهم يعلمون أنهم كاذبون فى حلفهم وتنصلهم، لكنهم كالغريق، يتمسك بما يتوهم أنه ينجيه، وأن كان لا ينفعه .

قـال الزمخشرى: وقول من قال: معناه: ما كنا مشركين عند أنفسنا، وما علمنا أنا على خطأ فـى معـتقدنا . وحمل قوله ﴿ انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ﴾ يعنى فى الدنيا، تمحل وتعسـف وتحـريف لأفصح الكـلام، إلى ما هو عى وإفحام . لأن المعنى الذى ذهبوا إليه، ليس هـذا الكـلام بمترجـم عـنه، ولا منطـبق علـيه وهو ناب عنه أشد النبو، وما أدرى ما يصنع من ذلك تفسـيره يقولـه تعـالى ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُـمْ عَلَـى شَـيْءٍ أَلا إِنَّهُـمْ هُـمُ الْكَاذِبُونَ﴾(المجادلة: ١٨) بعد قوله ﴿ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (المجادلة: ١٤) فشبه كذبهم فى الآخرة بكذبهم فى الدنيا أهـ .

قلـت: هـذا تـأويل حكـاه المرتضـى فـى أمالـيه وأيده، لاشك أنه من بدع التفاسير . والـذى دعـاه إلى تكلـف هذا التأويل وتأويل آخر ننقله عنه، استشكاله الآية . وإيراده سؤالا جـاء فـيه: كـيف يقع من أهل الآخرة نفى الشرك عن أنفسهم ؟ والقسم بالله تعالى عليه وهم كـاذبون فـى ذلـك ؟ مـع أنهـم عـندكم فى تلك الحال لا يقع منهم شئ من القبيح، لمعرفتهم بـالله تعـالى ضـرورة، ولأنهـم ملجـئون هـناك إلى ترك جميع القبائح . وأجاب بأنه ليس فى ظاهـر الآية ما يقتضى أن قولهم ﴿ مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ إنما وقع فى الآخرة دون الدنيا وإذا لم يمكن ذلك فى الظاهر، جاز أن يكون الأخبار يتناول حال الدنيا، وسقطت المسألة .

قلـت: هذا بعيد مصادم الآية، وقد فطن لذلك، فقال: وليس لأحد أن يتعلق فى وقوع ذلـك فى الآخرة يقوله تعالى قبل الآية ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُـرَكَاؤُكُمُ الَّذِيـنَ كُنْـتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ وأنه عقب بقوله تعالى ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ﴾ فيجب أن يكون الجميع مختصا بالآخرة . لأنه لا يمنع أن تكون الآية تتناول ما يجرى فى الآخرة، ثم تـتلوها آيـة تتـناول مـا يجـرى فـى الدنـيا . لأن مطابقة كل آية لما قبلها فى مثل هذا، غير واجـبة وقولـه تعـالى ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ ﴾ لا يدل أيضا على أن ذلك يكون واقعا بعد ما خـبر تعـالى عـنه فـى الآيـة الأولى . فكأنـه تعـالى قـال ـ على هذا الوجه ـ: أنا نحشرهم فى الآخـرة، ونقول: أيـن شـركاؤكم الذيـن كنـتم تزعمون ؟ وما كان سبب فتنتهم وضلالهم فى الدنيا إلا قولهم ﴿ وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ .

قلـت: هـذا أبعـد مـن الـتأويل الـذى رده الزمخشـرى، وأولى مـنه ببدع التفاسير .

والمرتضى غافل عن آية المجادلة التى تصرح بأن الكفار يحلفون لله تعالى يوم القيامة وهم كاذبون . وثبت فى قوله تعالى ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (يس: ٦٥): أنهم يجحدون ويخاصمون، فتشهد عليهم جيرانهم وأهاليهم وعشائرهم، فيحلفون: ما كنا مشركين . فحينئذ يختم على أفواههم وتتكلم أيديهم وأرجلهم[١] فمذهبه فى أن الكفار يوم القيامة، غير صحيح، يرده القرآن والحديث الصحيح .

قوله تعالى ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ ﴾ (الأنعام: ٦٨) بأن شغلك بوسوسته حتى تنسى النهى عن مجالستهم ﴿ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى ﴾ بعد أن تذكر النهى ﴿ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ .

ومن بدع التفاسير: قول الزمخشرى: ويجوز أن يراد: وغن كان الشيطان ينسينك قبل النهى، قبح مجالسة المستهزئين، لأنها مما تنكره العقول فلا تقعد بعد الذكرى، بعد أن ذكرناك متجها ونبهناك عليه، معهم .

قلت: هذا تعسف كبير، وقصر لألفاظ الآية على أن تفيد مذهبه الاعتزالى فى التحسين والتقبيح العقليين .

* * * * * * * *

٦- ومن سورة الأعراف

قوله تعالى ﴿ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ (الأعراف:١٦) أى فبسبب إغوائك إياى، لأقعدن لهم .

ومن بدع التفاسير: قول من جعل (ما) أستفهامية . أى فبأى شئ أغويتنى ؟ ثم ابتدأ: لأقعدن . قال الزمخشرى: وإثبات الألف إذا أدخل حرف الجر على ما الاستفهامية، قليل شاذ أهـ .

أى لا يصح تخريج القرآن عليه . ثم الاستفهام لا معنى له هنا .

قوله تعالى ﴿ وَقَالَ ﴾ ابليس لآدم وحواء عليهما السلام ﴿ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلا ﴾ كراهة ﴿ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴾(الأعراف: ٢٠) استدل المعتزلة

(١) وقوله تعالى﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا ﴾(فصلت: ٢١) يقتضى أنهم كانوا مصرين على الكذب، وأنهم استنكروا على جلودهم شهادتها عليهم بالصدق .

وبعض الأشعرية بهذه الآية على أن الملائكة أفضل من الأنبياء، وأجاب عنها ابن المنير فى الانتصاف، والبيضاوى فى تفسيره[1] وغيرهما . لكن المرتضى اجاب عنها بجواب يعتبر من بدع التفاسير .

ذلك انه قال: لم زعمتم أن قوله تعالى ﴿ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ ﴾ معناه: أن تصيرا وتنقلبا إلى صفة الملائكة ؟ فإن هذه اللفظة ليست صريحة لما ذكرتم، بل أحسن الأحوال أن تكون محتملة . وما أنكرتم أن يكون المعنى: أن المنهى عن تناول الشجرة غيركما، وأن النهى يختص الملائكة والخالدين دونكما ؟ ويجرى ذلك مجرى قول أحدنا لغيره: ما نهيت عن كذا إلا أن تكون فلانا . وإنما يعنى أن المنهى هو فلان دونك، ولم يرد إلا أن تنقلب فتصير فلانا . ولما كان غرض إبليس إيقاع الشبهة لهما، فمن أوكد الشبه إيهاما انهما لم ينهيا . وإنما المنهى غيرهما .

قلت: هذا تأويل بعيد، ترده آية طه ﴿ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى ﴾ (طه: ١٢٠) توجيه النهى لهما صريحا فى قوله تعالى ﴿ وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (البقرة: ٣٥) ولا يناسب هذا التأويل فى بعده إلا قول من زعم أن آدم عليه السلام تناول من الشجرة وهو سكران !! .

قوله تعالى ﴿ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّنَا ﴾ (الأعراف: ٨٩) لا أشكال فى هذه الآية على مذهب أهل السنة، لأنهم يعتقدون أن الكفر والمعاصى واقعة بمشيئة الله تعالى، ويرون أن المشيئة والارادة غير المحبة والرضا . فالله يريد الكفر، لكن لا يحبه ولا يرضاه وكذلك الأمر عندهم يباين المشيئة . أما المعتزلة الذين يرون أن الله لا يريد الكفر والمعاصى، لأنها قبيحة، ويقولون بتلازم المشيئة، والمحبة، والأمر . فالآية على رأيهم مشكلة . وقد أجابوا عنها بتأويلات، ذكرها المرتضى فى أماليه ـ وهو من الإمامية وهم يوافقون المعتزلة فى هذه المسألة ـ وأنا أذكر منها ما هو داخل فى بدع التفاسير، مع بيان وجه دخوله .

قال المرتضى: فى هذه الآية وجوه:

الأول: أن تكون الملة التى عناها الله، إنما هى العبادات الشرعيات التى كان شعيب

(١) عقيدتى فى هذا: أن الملائكة أفضل من الأنبياء، إلا نبينا ﷺ وموسى عليهما السلام فهم أفضل. وبيان ذلك ينظر فى كتابى " دلالة القرآن المبين على أن النبى أفضل العالمين " وهو مطبوع بمكتبة القاهرة وكل كتبنا .

متمسكين بها وهى منسوجة عنهم ولم يعن ما يرجع إلى الاعتقادات فى الله وصفاته، مما لا يجوز ان تختلف العبادة فيه ـ فكأنه قال: أن ملكتم لا نعود فيها مع علمنا بأن الله تعالى قد نسخها وأزال حكمها إلا أن يشاء الله أن يتعبدنا بمثلها فنعود إليها .

قلت: هذا باطل لوجوه:

أحدها: أن شعيبا عليه السلام، دعا قومه إلى توحيد الله تعالى وأفراده بالعبادة، وإلى إيفاء الكيل والميزان بالعدل . ولاشك أن التوحيد والعدل لا يدخلهما نسخ . لأنهما مما لا يجوز فيه الاختلاف لقبح نقيضهما قبحا ذاتيا .

ثانيها: أنه لم يأت فى القرآن، ولا ثبت فى التاريخ أن قوم شعيب كانوا متمسكين بشريعة، جاءهم شعيب بنسخها: فكيف يحمل الآية على معنى لا يستطيع لإثباته دليلا ؟

ثالثها: أن ما قدره فى الآية لم يثبت فى نفسه كما سبق فى الوجه قبله . ولم يقم على تقديره فيها دليل، ومن ثم كان من بدع التفاسير. قال: وثانيها أنه أراد أن ذلك لا يكون أبدا من حيث علقه بمشيئة الله تعالى، لما كان معلوما أنه لا يشاؤه . وكل أمر علق بما لا يكون، فقد نفى كونه على أبعد الوجوه وتجرى الآية مجرى قوله تعالى ﴿ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾ (الأعراف: ٤٠) .

قلت: هذا الوجه شبيه بما يسمى بالمصادرة فقد جعل مذهبه فى عدم تعلق المشيئة بالكفر، قرينة فى الآية على استحالة عودة شعيب إلى قلة قومه . وما يؤمنه أن يجعل مخالفوه تعليق العودة على المشيئة دليلا على امكانها لأن المشيئة لا تتعلق بالمستحيل. بدليل قوله تعالى ﴿ وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعَالَمِينَ ﴾ (آل عمران: ١٠٨) والآية التى نظر بها تشير إلى غلطه من حيث لا يشعر . ذلك أن استحالة ولوج الجمل فى سم الخياط مما وقع عليه اتفاق العقلاء، بخلاف تعلق المشيئة بالكفر، فقد قال بوقوعه معظم فرق المسلمين . فهذا الوجه باطل أيضا قال .

ورابعها: ما ذكره قطرب بن المستنير، من أن فى الكلام تقديما وتأخيرا، وأن الاستثناء من الكفار وقع . لا من شعيب . فكأنه تعالى قال ـ حاكيا عن الكفار. ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ (الأعراف: ٨٨) ثم قال تعالى حاكيا عن شعيب ﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا ﴾ (الأعراف: ٨٩) على كل حال .

قلت: يكفى دليلا على بطلانه ما فيه من تفكيك نظم الآية، وإخراجها من حد

الفصاحة والإعجاز، إلى الركاكة والألغاز فهى على تقديره أشبه بقول الفرزدق:

ومـا مـثلَه فـى الـناس إلا مملكـا أبـو أمـه حـى أبـوه يقاربـه

أصل البيت: وما مثلَه فى الناس حى يقاربه إلا مملكا ـ بفتح اللام المشددة . وأبو أمه . أى الملك . أبوه أى أبو الممدوح، وهو مدح لخال أحد ملوك بنى أمية . فالبيت فى غاية الركة بما حصل فيه من تقديم وتأخير، ولا يجوز حمل الآية على تاويل يورثها تعقيداً وركاكة، فهذا الوجه من **بدع التفاسير**، وهو من الأدلة على ضعف قطرب فى النحو. كما قيل عنه قال:

وخامسها: أن تعود الَهاء فى قولَه ﴿ **فِيهَا** ﴾ إلى القرية لا إلى الملة لأن ذكر القرية قد تقدم، كما تقوم ذكر الملة

قلت: أقرب مذكور هو الملة فى قولَه تعالى ﴿ **قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللهُ مِنْهَا** ﴾ (الأعراف: ٨٩) فيتعين عود الضمير إليها، لاسيما وهى المقصود من المراجعة بين شعيب وقومه، فالعدول عنها إلى القرية من **بدع التفاسير** . قال .

وسادسها: أن يكون المعنى: إلا أن يشاء الله أن يمكنكم من إكراهنا فنعود إلى إظهارها مكرهين ويقوى هذا الوجه، قولَه تعالى ﴿ **أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ** ﴾ (الأعراف: ٨٨)

قلت: هذا وجه باطل، وتقدير الإكراه بعيد من سياق الآية ونظمها، يضاف إليه أنه ينافى الحكمة من إرسال الرسل، لأنه إن جاز أن يمكن الله قوم شعيب من إكراهه وإكراه من آمن به، على إظهار الكفر، فلم بعثه إليهم ؟ واى مصلحة فى أن يظهر شعيب عليه السلام كفر قومه ويعلنه مكرها .

ومثلَه فى البطلان: الوجه الذى ذكره بعده، وهو أن يكون المعنى: إلا أن يشاء الله أن يتعبدنا بإظهار ملتكم مع الإكراه، لأن كلمة الكفر قد تحسن فى بعض الأحوال إذا تعبد الله تعالى بإظهارها . قال: وقولَه ﴿ **أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ** ﴾ يؤيد هذا الوجه أيضا .

قلت: يبطل بما تقدم فى الوجه قبلَه، ويزيده بطلانا زيادة تقدير التعبد باظهار كلمة الكفر مع الإكراه، ودعوى حسن إظهار كلمة الكفر إذا تعبد الله باظهارها، باطلة . ولا يجوز أن يتعبد الله باظهار كلمة الكفر، لقبحها، وغاية ما فى الباب أنه رخص فى النطق بها عند الإكراه، كما رخص فى أكل الميتة عند الإضطرار، أما أن يتعبد بإظهارها. ويصير

بالتعبد حسنا، فمما تأباه العقول .

قولـه تعـالى ﴿ فَوَقَـعَ الْحَـقُّ وَبَطَـلَ مَـا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (الأعراف:١١٨) أى فثبت الحق وظهر وبطل ما كانوا يعملون من السحر، أى ظهر بطلانه .

ومـن بـدع التفاسـير . كمـا قـال الزمخشـرى: فوقـع الحـق قلوبهم، أى أثر فيها من قولَهم . فاس وقيع أهـ . وهو بعيد من سياق الكلام .

قولـه تعـالى ﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (الأعراف:١٣٢) مهمـا أصـلا ما الشرطية ضمت إليها (ما) المزيد للتأكيد، وقلبت (الألف هاء)، استثقالا لتكرير المتجانسـين ـ وقـيل: (مـه) أسم فعل للكف، ضم إليه (ما) الشرطية . والمعنى على هذا: كف ما تأتيـنا بـه مـن آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين، أى أىّ شئ تأتنا به . والضمير فى ﴿ بِهِ ﴾ يعود على مهما باعتبار اللفظ، وفى ﴿ بِهَا ﴾ باعتبار المعنى، لأنه فى معنى الآية .

ومن بدع التفاسير: قول من جعل (مهما) بمعنى (متى ما) .

قـال الزمخشـرى: وهـذه الكـلمة فى عداد الكلمات التى يحرفها من لا يد لَه فى علم العربـية . فيضـعها غـير موضـعها، ويحسـب (مهما) بمعنى (متى ما) . ويقول (مهما) جئتـنى أعطيـتك . وهـذا مـن وضـعه، ولـيس مـن كـلام واضـع العربية فى شئ . ثم يذهب فيفسـر: (مهما) تأتنا به من آية، بمعنى الوقت، فيلحد فى آيات الله وهو لا يشعر . وهذا وأمثالَه مما يوجب الجثو بين يدى الناظر فى كتاب سيبويه أهـ .

وصدق فيما قال بالنسبة لأهل عصره، أما بالنسبة لأهل عصرنا فقد تجرأ على التفسير منهم طائفة. دل كلامهم فيه على أنه يجب عليهم الجثو بين يدى مدرس الكفراوى .

قولـه تعالى ﴿ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ (الأعراف:١٥٩) هم طائفة من بنى إسرائيل لم يغيروا دينهم. ولم يحرفوا كتب أنبيائهم. مثل عبد الله ابن سلام .

ومـن بـدع التفاسـير: مـا حكـاه الزمخشرى، فقال: وقيل . ان بنى اسرائيل لما قتلوا أنبـياءهم وكفـروا، وكـانوا أثنى عشر سبطا، تبرا سبط منهم مما صنعوا. وأعتذروا وسألوا الله أن يفرق بينهم وبين إخوانهم، ففتح الله لَهم نفقا فى الأرض. فساروا فيه سنة ونصفا. حتى خـرجوا مـن وراء الصـين، وهم هنالك حنفاء مسلمون، يستقبلون قبلتنا . وذكر عن النبى ﷺ أن جـبريل عليه السلام ذهـب بـه لـيلة الإسـراء نحوهم فكلمهم فقال لَهم جبريل: هل تعرفون من

تكلمون ؟ قالوا: لا . قال: هذا محمد النبى الأمى فآمنوا به، وقالوا: يا رسول الله أن موسى أوصانا: من أدرك منكم أحمد فليقرأ عليه منى السلام، فرد محمد على موسى السلام . ثم أقرأهم عشر سور من القرآن نزلت بمكة . ولم تكن نزلت فريضة غير الصلاة والزكاة وأمرهم أن يقيموا مكانهم، وكانوا يسبتون، فأمرهم أن يجمعوا ويتركوا السبت . وعن مسروق: قرئ بين يدى عبد الله - يعنى هذا الحديث - فقال رجل: إنى منهم . فقال عبد الله - لمن كان فى مجلسه . وهل يزيد صلحاؤكم عليهم شيئا ؟ من يهدى بالحق وبه يعدل .

قلت: هذه قصة واضحة البطلان، والعجب من الزمخشرى كيف خفى عليه بطلانها !! ونظيرها: ما رواه ابن مردوية عن ابن عباس: أن النبى ﷺ مر ليلة الاسراء على يأجوج ومأجوج ودعاهم إلى الإسلام، فأبوا، قال: " فهم فى النار مع كفرة الجن والإنس " وهذا حديث باطل، فى سنده نوح ابن مريم المتهم بالكذب[1] .

قوله تعالى ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ ﴾(الأعراف: ١٨٩) يا بنى آدم ﴿ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾هى نفس آدم عليه السلام ﴿ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ وهى حواء ﴿ لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ ليطمئن إليها ويأنس بها ﴿ فَلَمَّا تَغَشَّاهَا ﴾ فلما جامع الذكر منكم امرأته ﴿ حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً ﴾ أى حبلت منه، وكان الحبل فى أوله خفيفا ﴿ فَمَرَّتْ بِهِ ﴾ فقامت وقعدت وتصرفت به لخفته عليها ﴿ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ ﴾ كبر الولد فى بطنها وأثقل حركتها ﴿ دَعَوَا اللهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا ﴾ ولداً أو نسلا ﴿ صَالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ۝ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا ﴾ (الأعراف: ١٨٩-١٩٠) حيث سموا أولادهم عبد العزى وعبد شمس وعبد مناة وعبد المسيح ﴿ فَتَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾(الأعراف: ١٩٠) وقد دل الجمع فى ﴿ خَلَقَكُمْ ﴾ وفى ﴿ يُشْرِكُونَ ﴾ على أن التثنية فى ﴿ دَعَوَا - جَعَلا ﴾ مراد بها نوعا الذكر والأنثى من بنى آدم . وقد تكلمت على هذه الآية فى قصة آدم عليه السلام . وبينت نكارة الحديث الوارد عن سمرة، فى أن الشيطان قال لحواء - وهى حامل - سمى ولدك عبد الحارث ليعيش، وكان لا يعيش لها ولد، فسمته بذلك الاسم فعاش .

ومن **بدع التفاسير**: قول الزمخشرى . ووجه آخر، وهو ان يكون الخطاب لقريش الذين كانوا فى عهد رسول الله ﷺ، وهم آل قصى . ويراد: هو الذى خلقكم من نفس قصى، وجعل من جنسها زوجها عربية قرشية، ليسكن إليها . فلما آتاهما ما طلبا من الولد الصالح السوى . جعلا له شركاء فيما آتاهما حيث سميا أولادهما الأربعة بعبد مناف وعبد

---

(١) كان يقال له: نوح الجامع، قال بعض الحفاظ: لجمعه فنونا من العلم إلا الصدق .

العـزى وعبد قصى وعبد الدار، وجعل الضمير فى يشركون لَهما ولأعقابهما الذين اقتدوا بهما فى الشرك وهذا تفسير حسن لا إشكال فيه .

قلت: بل هو بعيد، وتخصيص للآية بدون دليل .

ومـا حكـاه أبـو مسـلم الأصـفهانى فـى تفسـيره بقولـه : وقال قوم: معنى ﴿ جَعَلا لَه شُـرَكَاءَ ﴾ أى طلـب مـن الله أمـثالا للولد الصالح، فشركا بين الطلبتين وتكون الَهاء فى قولَه (لَـه) راجعة على الصالح لا إلى الله تعالى . ويجرى مجرى قول القائل . طلبت منى ردهما، فلما أعطيتك أشركته بآخر، اى طلبت آخر مضافا إليه . وعلى هذا الوجه لا يمتنع أن يكون قولَه (جعلا) والخطاب كلَه . متوجها إلى آدم وحواء عليهما السلام

قلت: لكنه وجه بعيد جداً يرده قولَه ﴿ فَتَعَالَى الله عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

* * * * * * *

٧ - ومن سورة الأنفال

قولـه تعـالى ﴿ يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لله وَلِلرَّسُول ﴾ (الأنفال: ٢٤) بالطاعة ﴿ إِذَا دَعَـاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ (الأنفال: ٢٤) من أمر الدين، لأنه سبب الحياة الأبدية . وقيل: لما يحييكم من علوم الدين والشرائع، لن العلم حياة، كما أن الجهل موت قال بعضهم:

لا تُعجـــبن الجهـــولَ حلّـــتُه ... فـــذاك ميْـــت وثوبُـــه كفـــن

قـال المرتضـى: ويمكـن فـى الآيـة وجـه آخـر، وهـو: أن يكون المراد بالكلام الحياة بـالحكم لا بالفعل، لأنا قد علمنا ﷺ كان مكلفا بجهاد المشركين المخالفين للته وقتلَهم وأن كـان فـيما بعـد كلـف لـك فـيمن عـدا أهـل الذمة على شرطها . فكأنه تعالى قال: استجيبوا للرسـول ولا تخـالفوه فـإنكم إذا خالفتم، كنـتم فى الحكم غير أحياء، من حيث تعبد ﷺ بقتالكم وقتلكم . فإذا أطعتم كنتم فى الحكم أحياء .

ويجرى ذلك مجرى قولَه تعالى ﴿ وَمَنْ دَخَلَه كَانَ آمِناً ﴾ (آل عمران: ٩٧) وإنما اراد تعالى أنه يجب أن يكون آمنا. وهذا حكمه . ولم يخبر بأن ذلك لا محالة واقع .

قلـت: فـى هـذا الوجـه بعـد وتكلـف فى التقدير . ثم الخطاب موجه إلى المؤمنين ولا

يتصور[1] أن يخالفوا جميعا بالكفر، حتى يجب قتالهم وقتلهم . فهذا الوجه جدير بأن يكون من بدع التفاسير . وتنظيره يقوله تعالى ﴿ وَمَنْ دَخَلَه كَانَ آمِناً ﴾ غلط . لأن هذه الجملة من جملة الآيات البينات . وهي في المعنى معطوفة على ﴿ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ ﴾ والتقدير: فيه آيات بينات قوم ابراهيم وأمن داخله من غضب الله وعذابه .

قوله تعالى ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ الله يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴾ (الأنفال: ٢٤) يفصل بينهما بتصاريفه وأحكامه . وهو كناية ـ بطريق الاستعارة التصريحية التبعية ـ عن كونه تعالى أقرب للشخص من قلبه وأقرب من قلبه لذاته، فلا يستطيع طاعة ولا معصية إلا بإرادته.

روى أبو نعيم عن سفيان الثورى . أن شابا سأله بمكة، فقال . هل عرفت الله ؟ قلت: نعم، قال: كيف عرفته ؟ قلت: بأنه يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل، ويصور الولد في الرحم، قال: يا سفيان ما عرفت الله حق معرفته، قلت: كيف تعرفه انت ؟ قال بفسخ الهمم، ونقض العزم، هممت ففسخ همي، وعزمت فنقض عزمي، فعرفت أن لي ربا يدبرني .

قلت: هذه القصة تبين بوضوح كيف يحول الله بين المرء وقلبه، بفسخ همه، ونقض عزمه . وانظر ما تقدم في قوله تعالى ﴿ رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا ﴾ (آل عمران: ٨) وقيل يحول بين المرء وقلبه بإزالة عقله، وإبطال تمييزه . لأنه يقال لمن فقد عقله انه بغير قلب . قال الله تعالى ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَه قَلْبٌ ﴾ (ق: ٣٧) أى عقل، وهذا من بدع التفاسير، لأن من فقد عقله، سقط عنه التكليف، وأى فائدة في ان يأمر الله عباده بان يعلموا انه يزيل عقل المكلف ويذهب عنه التكليف ؟! ثم كيف ترتبط هذه الجملة يقوله ﴿ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ (الأنفال: ٢٤) وهل يكون المعنى . واعلموا انكم إليه تحشرون فاقدى العقول ؟ ساقطي التمييز .

وقيل . المعنى . أنه تعالى يحول بين المرء وبين ما يدعوه غليه قلبه من المعاصي، بالأمر والنهي. والوعد والوعيد ؛ لأنه لو لم يكلف الشخص مع ما فيه من الشهوات لم يكن له عن القبيح مانع فكأن التكليف حائل بينه وبينه، بما فيه من زجر ومنع . وليس يجب في الحائل ان يكون في كل موضع مما يمتنع معه الفعل، لأنا نعلم أن المشير منا على غيره ـ في امر كان قد هم به ـ ان يجتنبه، يصح ان يقال حال بينه وبين فعله .

---

(١) لأنه يستحيل شرعا أن تجتمع الأمة كلها على الكفر، لحديث " لا تجتمع أمتي على ضلالة " وهذا من خصائص الأمة المحمدية: ومن هنا كان إجماع العلماء حجة، كما هو مبنى في كتب الأصول .

قلت: هذا من بدع التفاسير أيضاً، وبيان ذلك من وجوه:

أحدها: ان النفس هى الداعية إلى القبيح، قال يوسف عليه السلام ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ (يوسف:٥٣) ولم يقل . وما أبرئ قلبى أن القلب لأمارة بالسوء .

ثانيها: أن حمل ﴿ يَحُولُ ﴾ (الأنفال: ٢٤) على: يمنع بالمر والنهى والوعد والوعيد، مجاز، وهو خلاف الأصل، والمعنى الحقيقى المتبادر من اللفظ ما تقدم: أنه يفصل بين المرء وقلبه بتصاريفه وأحكامه، وهذا المعنى هو المراد هنا من جهة أخرى، وهى

ثالثها: إفادة أن الله تعالى يملك القلوب ويتصرف فيها، وأنهم أن لم يستجيبوا للرسول، حال بينهم وبين قلوبهم، فلا تجد قبولا للطاعة ولا تتذوق حلاوتها . وأنهم إليه يحشرون فيجازيهم على ما فرط منهم .

وقيل: يحول بين المرء وقلبه بالموت، فلا ينتفع بقلبه، وهذا حث على الطاعات والمبادرة بها قبل الفوت وانقطاع التكليف . كأنه تعالى قال: بادروا على الاستجابة لله وللرسول من قبل أن ياتيكم الموت، فيحول بينكم وبين الأنتفاع بقلوبكم، ويتعذر عليكم ما تسوفون به نفوسكم من التوبة بقلوبكم .

قال المرتضى: ويقوى ذلك قولَه تعالى ﴿ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ (الأنفال: ٢٤) .

قلت: هذا من بدع التفاسير أيضا . لأن المكلف إذا مات، حيل بينه وبين حياته والانتفاع بجوارحه كلَها . ولا خصوصية للقلب فى هذا، ثم هو معنى مجازى والمعنى الحقيقى ما قررناه وأوضحناه

وهذه التفاسير الثلاثة، للمعتزلة ومن وافقهم من الإمامية الذين لا يعترفون بأن الله تعالى يصرف قلب المكلف عن الإيمان أو الطاعة أن شاء . لأن ذلك قبيح عندهم، والله لا يفعل القبيح . لكنهم لا يقدرون أن ينكروا ما يحسه الشخص أحياناً من عزمه على الطاعة أو المعصية. وتصميمه على تنفيذها . ثم عند التنفيذ ينصرف قلبه، وينفسخ عزمه وتصميمه . مع وجود الداعى، وفقدان المانع . ولا تعليل لذلك إلا بأنه من فعل الخالق تعالى .

* * * * * * *

٨- ومن سورة التوبة

قولـه تعـالى ﴿ كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلا ذِمَّةً ﴾(التوبة ٨)
(إلا): قـرابة وقـيل: عهـداً . وقـيل: جـؤاراً، وهو رفع الصوت عند المحالفة، لأنهم كانوا يرفعون اصواتهم عند المحالفة، إعلاناً لَها، وتأكيدا لعقدها وجمع إل، إلال كقداح

ومـن بـدع **التفاسير**: إلا أى الله تعـالى، ومـن لغـات جبريل: جبرئل بفتح الجيم وكسر الَهمزة وتشديد اللام، على أن جبر: عبد، وال: الله، وفى المختار: الإل بالكسر، هو الله ﷻ .

قلت : لعلَه معـرب عن اللغة السريانية أو العبرانية . وهو فى الآية منكر، فلا يصح أن يكـون معناه إلَها أو ربا، ثم بعد هذا فأسماء الله توفيقية، اى لا يصح أن يسمى الله باسم إلا إذا جـاء صـريحا فـى آيـة، مـثل الأسـمـاء المذكـورة فى خواتيم سورة الحشر، أو جاء فى حديث صحيح مثل . مقلب القلوب .

" **تنبـيه** " يقـع فـى كتـب الروحانـيات مـثل شمس المعارف أسماء غريبة . يقول عنها أصـحاب تلك الكتب: إنها اسماء الله تعالى باللغة السريانية غافلين عما قرره علماء الشريعة أن تسـمية الله بهـا لا تجـوز، كمـا لا تجـوز تلاوتهـا ولا كتابـتها فـى جـدول بقصد الاستشفاء أو التـبرك، لأنهـا لم تـأت فـى آيـة قرآنـية، ولا حديـث نـبوى صحيح، كذلك يذكر جماعة من الصـوفية باسـم " آه " مسـتندين عـلى مـا رواه الديـلمى فى مسند الفردوس والرافعى فى تاريخ قـزوين عـن عائشـة ﵂ أن النـبى ﷺ دخـل عـلى مـريض يعوده - وكان يئن - فقال لَه أهلَه: اسـكت. فقـد حضـر النـبى ﷺ . فقال " دعوه يئن فإن الأنين أسم من أسماء الله تعالى يستريح إلـيه العليل " . وهذا حديث واهى، لا يجوز العمل به، ففى سند الديلمى محمد ابن أيوب بن سويد الرملى. وهو وضاع وسند الرافعى فيه ثلاث علل:

إحداها: انه وجادة .

ثانيتها: أن فيه ليث بن أبى سليم. وهو ضعيف مختلط، رفّاع للموقوفات .

ثالثتها: أن فيه رواة مجهولين .

قولـه تعـالى ﴿ عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ ﴾(التوبة: ٤٣) قال الزمخشرى: عفا الله عنك. كناية عن الجناية، لأن العفو رادف لَها . ومعناه: اخطأت وبئس ما فعلت .

قلت: هذا من بدع التفاسير .

والحقـيقة: انه لا جناية ولا خطا، لسبب واضح . هو أن الجناية أو الذنب او المعصية.

مخالفة للنهى، ولم يسبق من الله نهى عن الاذن للمنافقين . والنبى ﷺ أذن لَهم اجتهاداً منه، فكيف تنسب إليه جناية ؟! بل لو فرض انه أخطأ، لكان مثابا على اجتهاده[١] غير مؤاخذ بخطئه وهو ﷺ لم يخطئ، لأنه سلك ما اوفق بخلقه، من التيسير على أصحابه، والميل على استرحالَهم، وتفويض أمرهم إلى الله تعالى، لكن الله أراد منه أن يكون شديداً على المنافقين فهو كقولَه تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ (التوبة: ٧٣) فالأذن للمنافقين كان جائزا بحسب الأصل، ثم نسخ بهذه الآية، كما كان الاستغفار لَهم والصلاة عليهم جائزين، ثم نسخا بقولَه تعالى ﴿ وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ﴾ (التوبة: ٨٤) وفاعل الحكم المنسوخ ـ قبل نسخه ـ لا يكون عاصيا، بل هو مثاب مبرور .

وقولَه تعالى ﴿ عَفَا اللهُ عَنْكَ ﴾ (التوبة: ٤٣) استفتاح كلام، على عادة العرب فى استفتاح مخاطباتهم بهذه الجملة، أو بقولَهم: غفر الله لك، أو أطال الله بقاءك . ونحو ذلك لا يقصدون المدلول اللفظى للكلام، وإنما يريدون تكريم المخاطب إذا كان عظيم القدر، فهذه الجملة تفيد تكريم النبى لا تجريمه، وقد عقد المرتضى فى أماليه مسألة اجاب فيها عن الآيات التى يفيد ظاهرها عتاب النبى ﷺ، وقال عن هذه الآية: فأما قولَه تعالى ﴿ عَفَا اللهُ عَنْكَ ﴾ فليس يقتضى معصية، وذاك أن المقصد فى الغالب بمثل هذا الخطاب التعظيم للمخاطب، واستيضاح ما عنده فيما يفعلَه . ألا ترى أن الواحد منا يقول لغيره: لم كان كذا وكذا ؟ رحمك الله وغفر لك ! وهو لا يقصد إلا الملاطفة لَه، وحسن المجاورة، ولا يقصد الاستيضاح لَه عن زلة، وإنما الغرض الاجمال فى الخطاب .

وقد صار ذلك عرفا بين الناس، والمقصد به التوقير والاجلال فأما قولَه تعالى ﴿ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ ﴾ (التوبة: ٤٣) فليس يجب حملَه على العتاب، لأن هذه اللفظة ليست موضوعة لذلك خاصة، بل قد تطلق ويراد بها الاستفهام، وتارة يراد بها التقرير، وتارة العتاب، وهى محتملة لجميع المذكور . فلم نحملَها فى حق النبى ﷺ على العتاب دون بقية الأقسام ؟! وغاية ما فى ذلك حملَه على ترك الأولى حسب ما تقدم فى الآيات .

* * * * * * *

٩- ومن سورة يونس

---

(١) لحديث الصحيحين "إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فلَه أجران وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر واحد"

قولـه تعـالى ﴿ ثُـمَّ جَعَلْـنَاكُمْ خَلائِـفَ فِـي الْـأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (يونس: ١٤)قال الزمخشرى: فان قلت: كيف جاز النظر على الله تعالى ؟ وفيه معنى المقابلة ؟ قلـت: هـو مسـتعار للعـلم المحقـق الـذى هـو العلم بالشئ موجودا شبه بنظر الناظر، وعيان المعاين فى تحققه .

قلت: حاصل كلامه نفى النظر عن الله تعالى، بدعوى استلزامه المقابلة وهى فى حقه ممتنعة

وهذا من بدع التفاسير، ومن غلطاته الشنيعة التى يردها النص الصريح . فمن أسمائه تعالى الثابتة فى القرآن والسنة (البصير) .

وقال تعالى ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ﴾ (البقرة: ١٤٤) والرؤية والنظر واحد .

ودعـوى اسـتلزامهما لـلمقابلة باطلة، لأن الله تعالى منزه عن الجسيمة ولوزامها. فكما أنـه تعـالى موجـود لا فى مكان ولا فى جهة، كذلك يرى وينظر من غير جارحة ولا مقابلة، ونفـى الـنظر عنه، ينافى كماله المطلق ﷻ لكن جاء فى عبارة له ما يفيد أنه يفرق بين النظر والرؤية بأنها لا تستدعى المقابلة، فإنه قال ـ فى الكلام على قوله تعالى ﴿ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّـا مَعَكُـمْ مُسْـتَمِعُونَ ﴾ (الشعراء: ١٥) وقوله ﴿ مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴾ من مجاز الكلام، يريد أنا لكمـا ولعدوكمـا كالناصـر الظهـير لكمـا علـيه، إذا حضـر وأسـتمع مـا يجرى بينكما وبينه، فأظهـركما وغلبكما وكسر شوكته عنكما ونكسه، فإن قلت: لم جعلت ﴿ مُسْتَمِعُونَ ﴾ قرينة ﴿ مَعَكُمْ ﴾ فـى كونـه مـن بـاب المجـاز . والله يوصـف على الحقيقة بأنه سميع وسامع ؟ قلت: ولكن لا يوصف بالمستمع على الحقيقة، لأن الاستماع جار مجرى الإصغاء، والاستماع من السمع بمنزلة النظر من الرؤية أهـ .

وتوضـيح مـا أشـار إلـيه: أن الاسـتماع إلى الشـئ، معـناه الإصغاء والإمالة إليه. والله سـبحانه مـنزه عـن ذلـك، بل يتعلق سمعه بجميع المسموعات من غير اصغاء وإمالة. وكذلك الـنظر، معـناه تـأمل الشـئ بالعين، والناظر فى المقلة السواد الأصغر الذى فيه إنسان العين. فمـن هـنا كـان الـنظر مسـتلزما لـلمقابلة، والله تعـالى اعـلم، ومن هنا جاء التعبير بالنظر عن المقابلـة، فـى قوله تعالى ﴿ وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ ﴾(الأعراف: ١٩٨) وتراهم أى الأصنام يقابلونك بعيون كأنها حقيقة، وهم لا يبصرون حقيقة، لأن عيونهم مصنوعة .

قولـه تعالى ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّـهُ ﴾ بفـتح الهمـزة أي بأنـه، وبكسـرها عـلى الاسـتئناف ﴿ لا إِلَه إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو

إسْرائيلَ وَأنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (يونس: ٩٠) .

قال الزمخشرى: كرر المخذول المعنى الواحد ثلاث مرات، فى ثلاث عبارات[1] حرصا على القبول . ثم لم يقبل منه، حيث أخطأ وقته، وقاله حين لم يبق له اختيار قط، وكانت المرة الواحدة كافية فى حال الاختيار، وعند بقاء التكليف ﴿ آلآنَ ﴾(يونس: ٩١) . أتؤمن الساعة فى وقت الاضطرار، حين أدركك الغرق، وآيست من نفسك ﴿ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ الضالين المضلين عن الإيمان ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ ﴾(يونس: ٩٢) فبعدك مما وقع فيه قومك من قعر البحر . حال كونك ﴿ بِبَدَنِكَ ﴾ أى جسما لا روح فيه ﴿ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ﴾ بعدك ﴿ آيَةً ﴾ عبرة فيعرفوا عبوديتك ومهانتك، وليتقين بنو اسرائيل هلاكه . لأنهم كانوا فى شك منه، حتى رأوه مطروحا على الساحل . ففرعون مات كافرا عدواً لله ورسوله، وأجمع العلماء على ذلك منذ الصحابة والتابعين وهلم . لكن القاضى عبد الصمد الحنفى - وكان موجودا سنة ثلاثين وأربعمائة - حكى فى تفسيره عن مذهب الصوفية: أن الإيمان ينتفع به ولو عند معاينة العذاب .

قلت: ومن هنا قال الشيخ محي الدين ابن العربى الحاتمى فى الفتوحات المكية، بصحة إيمان فرعون، ونجاته من العذاب . واليك حاصل كلامه فى هذا المعنى: لما حال الغرق بين فرعون وبين اطماعه، لجأ إلى الله تعالى، وإلى ما أعطاه باطنه مما كان عليه من الذلة والافتقار . فقال: (آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل) . لرفع الإشكال، كما قالت السحرة لما آمنت: آمنا برب العالمين رب موسى وهرون، لرفع الارتياب، وإزاحة الاشكال . ثم قال: وأنا من المسلمين . فخاطبه بلسان العتب ﴿ آلآنَ ﴾ أظهرت ما كنت قبل قد علمته ﴿ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾(يونس: ٩١) فى أتباعك ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ ﴾ فبشره قبل قبض روحه ﴿ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ﴾(يونس: ٩٢) أى لتكون النجاة علامة له . وإذا قال ما قلته كانت له النجاة مثل ما كانت لك، إذ العذاب ما يتعلق إلا بظاهرك وقد رأيت الخلق نجاتك من العذاب . فكان ابتداء الغرق عذابا، وصار الموت فيه شهادة خالصة كل ذلك حتى لا ييأس أحد من رحمة الله تعالى، فإنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون . والأعمال بالخواتيم .

وأما قوله تعالى ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴾(غافر: ٨٥) فكلام محقق فى غاية الوضوح، فإن النافع هو الله فما نفعهم إلا الله .

---

(١) هى: آمنت، إنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو اسرائيل. وأنا من المسلمين . هذا على قراءة كسر همزة أنه، باعتبارها جملة مستأنفة، وعلى فتحها تكون مفعولا لآمنت فى قوة المفرد .

وقولـه تعـالى ﴿ سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ﴾(غافر:٨٥) يعنى الإيمان عند رؤية البـأس . وإنمـا قـبض فـرعون ولم يؤخـر فـى اجلـه، فى حال إيمانه، لئلا يرجع إلى ما كان عليه من الدعوى .

وأمـا قولـه تعالى ﴿ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ﴾ (هود:٩٨) فما فيه نص أنه يدخلـها معهم، بل قال الله تعـالى ﴿ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ ﴾ (غافر:٤٦) ولم يقل: ادخلوا فرعون . ورحمة الله أوسع من حيـث أن لا يقـبل إيمـان فـرعون المضـطر، وأي اضـطرار أعظـم من اضطرار فرعون فى حال الغـرق ؟ والله تعـالى يقـول ﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ﴾ (النمل:٦٢) فقرر للمضطر إذا دعاه الإجابة وكشف السوء عنه: فلم يكن عذابه أكثر من الغرق فى الماء أهـ .

قلـت: الـذى يـدل علـيه القـرآن والحديث: أن الإيمان عند المعاينة لا يقبل، فإن قولـه تعـالى ﴿ إِنَّ الَّذِيـنَ حَقَّـتْ عَلَـيْهِمْ كَلِمَـتُ رَبِّـكَ لا يُؤْمِـنُونَ ۝ وَلَـوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَـذَابَ الأَلِيمَ ۝ فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَـذَابَ الْخِـزْيِ فِـي الْحَـيَاةِ الدُّنْـيَا وَمَتَّعْـنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾ (يونس:٩٦-٩٨) يفيد أن الإيمان عند المعايـنة لا ينفع أصحابه إلا قوم يونس فقط نفعهم إيمانهم عند المعاينة . ولو كان ينفع كما نقل عـن الصـوفية لم يكـن لاسـتثناء قـوم يونس معنى، وفى مسند احمد وسنن الترمذى وابن ماجه وصـحيح ابـن حـبان ومسـتدرك الحـاكم مـن حديـث ابـن عمر " أن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغـر " وهـذا الحديـث مـثل قولـه تعـالى ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَـرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ﴾ (النساء:١٨) وفرعون إنما آمـن عـند الغرغـرة ومعايـنة العـذاب، فكان إيمانه غير مقبول . لهذا، ولأنه لم يؤمن بموسى، وقياسـه علـى السـحرة غلـط، فـإنهم صرحوا بـأنهم آمنوا برب العالمين، ثم صرحوا بخصوص ربوبيـته لموسى وهرون، وفى ذلك تصريح بإيمانهم بهما . ولكن فرعون لم يذكر موسى تصريحا ولا إشارة، لأنه كان يراه ربيت نعمته .

وقولـه تعـالى ﴿ آلآنَ وَقَـدْ عَصَـيْتَ قَـبْلُ وَكُنْـتَ مِـنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (يونس:٩١) خطاب تقريع وتوبـيخ، بدلـيل تذكيره بعصيانه وإفساده . وذلك يدل على غضب منه وبغضه له، كما قال تعالى فـى آية أخرى ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (الزخرف:٥٥) ولو قبل إيمانه لما عـيره بعصـيانه وإفسـاده . بل كان يقول له: الآن نقبلك ونكرمك، جريا على عادة الله مع عباده حين يتوبون إليه ويقبل توبتهم، فإنه يعرض عن ذكر ما معنى من كفرهم وعصيانهم .

ومن حكم الصوفية: ذكر الجفاء وقت الصفاء، من الجفاء. والعتاب إنما يكون بين الأحباب، ابقاء على المودة التى بينهم. كما قال الشاعر:

ويبقى الود ما بقيَ العتابِ

وفرعون كان عدو الله إلى آخر لحظة من حياته فكيف يعاتبه الله الذى إنما يعاتب اصفياءه؟ ثم ما سمعنا عتابا يذكر فيه لفظ العصيان والافساد. وفى الآية نكتة تفيد القطع بأنها ليست خطاب عتاب، وهى: أن الله تعالى لم يقل له: وكنت مفسدا، بل قال: ﴿ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾(يونس:٩١)، وهذه الجملة أبلغ، لأنها تفيد أن فرعون عريق فى الإفساد. بحيث أنه صار - لعراقته فيه - من جملة المفسدين الذين صار الفساد والإفساد دأباً لهم وعادة وانجاؤه ببدنه الخالى من الروح، ليكون آية على فساد دعواه الألوهية، فالضمير فى ﴿ لِتَكُونَ ﴾ لفرعون لأن الخطاب موجه إليه، وجعله عائدا على النجاة المأخوذة من لفظ ننجيك، يرده أمران:

١ - أنه تشتيت للضمائر من غير ضرورة تدعو إليه.

٢ - أنه إن أريد النجاة من الغرق، فهو لم ينج منه، وإن أريد النجاة من عذاب يوم القيامة، فرمى جسمه على الساحل لا يدل عليها ولا يقتضيها، لأن جسم الميت لا يظهر عليه أثر عذاب ولا نعيم.

فالخلق لم يروا نجاة فرعون، وإنما رأوا جسمه خاليا من الروح مطرحا على الشاطئ، كما نرى نحن جسم الكافر الميت سليما ليس فيه شئ، وروحه تعذب عند الله تعالى. وكذلك فرعون وقومه تعذب ارواحهم عند الله كما قال تعالى ﴿ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ۝ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ (غافر:٤٥-٤٦) فروح فرعون معذبة الآن بعرضها على النار صباحا ومساء وعبرت الآية بآل فرعون، لأمرين:

١- الإشارة إلى أن آله إذا عذبوا أشد العذاب، كان هو أولى بذلك منهم، لأنهم إنما كفروا باضلاله وحملهم على عبادته، وقوله لهم: ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ (النازعات: ٢٤).

٢ - الاستهزاء به والطتر عليه، وذلك أغيظ له، وأشد لعذابه، وهذا كما يقال لأبى جهل يوم القيامة وهو فى أشد العذاب ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ (الدخان: ٤٩) استهزاء به، وسخرية منه.

وقولـه تعالى ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴾ (غافر:٨٥) يدل أيضا على أن الإيمان عند معاينة العذاب لا ينفع صاحبه . وسياق الآية يقتضى ذلك ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۝ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ۝ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ﴾ (غافر:٨٣-٨٥) فى الأمم التى لا ينفعهم الإيمان عند معاينة العذاب ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ فهؤلاء الأقوام آمنوا عند معاينة البأس وهو العذاب كما آمن فرعون فلم يقبل منهم وخسروا .

ولما كان الإيمان المقبول سببا لنجاة صاحبه من العذاب، نسب النفع إليه، على عادة القرآن والسنة فى نسبة الأمور إلى أسبابها الشرعية أو العادية، وأن كان النافع فى الحقيقة هو الله، فى كل شئ، لا فى الإيمان وحده، فالتمسك به فى هذه الآية، مخالف لنظمها وسياقها، كما هو مخالف لعادة القرآن والسنة على ما مر .

وقولـه تعالى ﴿ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ﴾(هود:٩٨) نص فى دخولها، وذلك أن الله تعالى يقول: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ۝ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ (هود:٩٦-٩٧) بمحمود العاقبة ثم بين عدم رشاده بقوله ﴿ يَقْدُمُ ﴾ (هود:٩٨) يتقدم ﴿ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ وهم يتبعونه كما كانوا يتبعونه فى الدنيا ﴿ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ﴾ وهو سابقهم إليها وهم وراءه . ولا أحد يفهم من هذه العبارة أنه أدخلهم النار وعاد لأن إدخال الكفار والعصاة للنار يوم القيامة وظيفة الزبانية، وهم طائفة من الملائكة خصهم الله بهذا العمل، لا يتولاه غيرهم . حتى إن الرسل المكرمين لا يقدرون أن يدخلوا مكذبيهم النار، لأنهم غير مأذون لهم فى ذلك: فكيف يتأتى لفرعون أن يورد قومه النار ثم يرجع ؟!! أأعطى فى ذلك اليوم ما لم يعط الرسل ؟ ام جعل مساعداً للزبانية ؟ أم ماذا ؟ والله تعالى يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف عنه السوء، ولو كان كافرا، لكن لا يقبل إيمان الكافر إذا آمن عند معاينة العذاب ولا توبة العاصى إذا غرغر[1] فمقام الإيمان غير مقام الدعاء، وخلط أحدهما بالآخر غلط واضح

---

(١) شرط قبول إيمان الكافر او توبة العاصى أمران: ان يكون مختارا غير مضطر، وأن يكون غائبا عنه العذاب المتوعد به على الكفر او المعصية فإذا عاين العذاب كحال فرعون عند الغرق، أو المحتضر عند الغرغرة . كان إيمان أو توبته حينئذ عن اضطرار، فلم يقبل منه، لفقد الشرطين . أما الدعاء فاجابته منوطة بالاضطرار، فكلما كان الداعى أشد ضرورة، وأكثر مصائب، كان أقرب إلى الإجابة، ولو كان كافرا . لأنه خاص بالدنيا ولا علاقة له بالآخرة . ولو أن فرعون دعا الله عند الغرق لأنجاه، وأعطاه فرصة الحياة مرة أخرى، كما أنجى غيره من المشركين عند اضطرارهم، لكنه لم يوفق للدعاء ولجأ إلى الإيمان مضطرا، فلم يقبل منه، ولم ينج من الغرق .

وبعد: فالدليل على موت فرعون كافرا ـ سوى مامر ـ قوله تعالى يخاطب أم موسى عليهما السلام ﴿ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَه ﴾ (طه:٣٩) تخبر هذه الآية بأن فرعون عدو لله وعدو لرسوله موسى، وخبر الله تعالى لا يدخله نسخ ولا تغيير . وهذا الدليل لم يتفطن له جميع من تكلم فى إيمان فرعون وكفره،[١] وانظر تتمة هذا البحث فى كتابنا " خواطر دينية " .

قوله تعالى ﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ﴾ (يونس:٩٤) على سبيل الفرض والتقدير ﴿ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ وهم علماء اليهود. لأن أمرك مكتوب عندهم فى كتبهم، وهم يعرفونك كما يعرفون ابناءهم .

والآية لا تقتضى وقوع الشك منه ﷺ، لأن حرف " أن " لا يفيد حصول شرطه، بل يفيد الشك فى حصوله، ولهذا يدخل على المستحيل كما في هذه الآية . وهى مثل قوله تعالى ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ (الزمر:٦٥) ومن المعلوم بالضرورة أن وقوع الشك أو الشرك منه ﷺ محال .

وقيل: الخطاب ـ فى الآية، موجه للنبى ﷺ والمراد أمته، مثل ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ ﴾(الطلاق:١) والمعنى على هذا: فان كنتم فى شك مما أنزلنا إليكم. كقوله ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً ﴾ (النساء:١٧٤) .

وقيل: الخطاب لأى سامع ممن يجوز عليه الشك، وهذا كقول العرب: إذا عز أخوك فهن .

ومن بدع التفاسير: قول من قال: " ان " نافيه، بمعنى " ما " وتقديرا لكلامه على هذا: فما كنت فى شك مما انزلنا إليك . لكنه لا يتلاقى مع قوله ﴿ فَاسْأَل ﴾ووجهه الزمخشرى بأن المعنى: فما كنت فى شك فسأل . يعنى لا نأمرك بالسؤال لأنك شاك. ولكن لنزداد يقينا كما ازداد إبراهيم عليه السلام بمعاينة إحياء الموتى، وفى هذا الوجه تكلف لا يخفى . ووجهه المرتضى بأنه تعالى لو أمره بسؤال أهل الكتاب من غير أن ينفى شكه. لأوهم أمره بالسؤال أنه شاك فى صدقه. وصحة ما أنزل عليه . فقدم نفى الشك عنه. ليعلم أن أمره بالسؤال. ليزول الشك عن غيره. لا عنه .

قلت: الإيهام المشار إليه باطل، لما مر . وغفل المرتضى والزمخشرى عن أن تعقيب

(١) ألف العلامة الجلال الدوانى الصديقى رسالة " إيمان فرعون " أيد فيها رأى ابن العربى الحاتمى. طبعت أخيرا وألف ابن سلطان القارى رسالة فى كفر فرعون. لم تطبع بعد .

النفى بالمر لا يحسن فى اللغة العربية، لأنه يورث ركاكة لا يجوز تخريج القرآن عليها، وإنما يحسن تعقيب النفى بالفعل المضارع كما هو معلوم .

* * * * * * * *

١٠- من سورة هود

قولـه تعالى ﴿ أُولَـٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي ما كانوا يعجزون الله فى الدنيا لو أراد أن يعاقبهم فيها ﴿ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ﴾ أنصار ينصرونهم منه، ويمنعون عنهم عقابه . لكنه أراد تأخيرهم إلى هذا اليوم ﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ ﴾، لأنهم أضلوا غيرهم، ولأنهم ﴿ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴾(هود: ٢٠)، أى أنهم لفرط تصامهم عن استماع الحق، وشدة كراهتم لـه كأنهم لا يستطيعون السمع والإبصار[١] وفى الآية وجوه أخرى .

ومن بدع التفاسير: جعل ما مصدرية، والمعنى: يضاعف لَهم العذاب فى الآخرة مدة كونهم يستطيعون السمع والأبصار، أى ما داموا أحياء، فجعل استطاعة السمع والأبصار كناية عن حياتهم . ذكر هذا الوجه، المرتضى فى أماليه، وهو ضعيف لا يفيده سياق الآية .

قولـه تعالى ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ ﴾(هود: ٤٠) المراد بالتنور: الذى يختبز فيه، وهو تنور كان بدار نوح عليه السلام، جعل فوران الماء منه علامة على الطوفان الذى أغرق قومه، وهذا القول هو الراجح . لأنه الحقيقة وهى الأصل ولأنه قول ابن عباس والحسن ومجاهد، ولأنه فوران الماء من مكان النار أقوى فى المعجزة، وأبلغ فى الدلالة على ما أعقبه من طوفان لم يحصل مثلَه فى العالم .

وقيل: التنور وجه الأرض، وأن الماء نبع وفار على وجه الأرض وهذا قول عكرمة، ويروى عن ابن عباس أيضاً، قال المرتضى: والعرب تسمى وجه الأرض تنوراً .

وقيل: أعالى الأرض، روى عن قتادة فى قولَه تعالى ﴿ وَفَارَ التَّنُّورُ ﴾ قال: ذكر لنا أنه أرفع الأرض وأشرفها .

---

(١) يؤيد هذا التأويل قولـه تعالى فى سورة الكهف ﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضاً ۝ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً ﴾(الكهف: ١٠٠-١٠١) فهذه الآية تفيد أنهم - لكراهتهم الحق وبغضهم له - كانت أعينهم مغطاة عنه، لا تراه وكانوا لا يستطيعون سماعه .

وقيل: معنى ﴿ وَفَارَ التَّنُّورُ ﴾: برز النور، وظهر الضوء وتكاثفت حرارة دخول النهار، وتقضى الليل .

وقيل: معنى ﴿ وَفَارَ التَّنُّورُ ﴾: اشتد غضب الله عليهم وحل وقوع نقمته بهم . فذكر تعالى التنور مثلاً لحضور العذاب . كما قال النبى ﷺ: " الآن حمى الوطيس " حين اشتدت الحرب يوم بدر .

وهذا التأويل والذى قبلَه من بدع التفاسير، لأنهما مجازان بعيدان . ولأننا لا نجزم بأن اللغة التى خاطب الله بها نوحاً كان فيها مثل هذه المجازات المعروفة فى لغة العرب .

ولَهذه المناسبة ننبه إلى قاعدة هامة، غفل عنها المفسرون قاطبة فيما أعلم، إذ لم أجد منهم من فطن لَها، أو نبه إليها . وبسبب غفلتهم عنها وقع كثير منهم فى تفسيرات مخطئة، مثل التفسيرين المذكورين، لجنوحهم إلى المجاز أو الاستعارة أو الكناية فى معظم الآيات التى يفسرونها، غير مفرقين بين موضوعاتها، مع أن الآيات التى يكون موضوعها الحديث عن الأمم التى لا تتكلم العربية، مثل قوم نوح وإبراهيم وبنى إسرائيل، وحكاية ما حصل بين رسلَهم وبينهم من مجادلات، وما توجه إليهم من خطابات تكليفية وغيرها . لا يجوز حملَها على المجاز كما مر فى المقدمة، بل يجب حملَها على الحقيقة، لأنها مجزوم بإرادتها رغم اختلاف اللغات، ورغم تباين التقاليد والعادات، فنحن حين نحمل التنور على تنور الخبز، نجزم بأنه كان عند نوح وقومه تنانير يخبزون فيها وإن كانوا قد يسمونها باسم آخر، فنكون قد أصبنا المعنى المراد حتماً ولكن حين نحمل ﴿ وَفَارَ التَّنُّورُ ﴾ على برز النور، أو: اشتد غضب الله، أو نحو هذا من المعانى المجازية، نكون مخطئين أشد الخطأ . لأننا لا نعرف هل كان فى لغة نوح وقومه مجاز وكناية ؟ وليس لدينا ما يدلنا على أصول لغتهم، وكيفية تخاطبهم . والمعروف على وجه العموم: أن اللغة العربية انفردت من بين اللغات بما فيها من كثرة التجوز والاتساع، حتى ادعى ابن جنى أن أغلب اللغة مجاز، وذلك لسيلان أذهان العرب وسلامة فطرتهم، وسرعة لمحتهم للمعانى التى يصوغونها فى قالب تشبيه أو مجاز أو كناية، وهم أنفسهم ما توصلوا إلى هذا الرقى اللغوى حتى تهذبت طباعهم، ورق إحساسهم واكتسبوا برحلاتهم إلى الشام واليمن والبحرين وأطراف الجزيرة العربية معارف وحضارات نقلوها إلى لغتهم، وأضافوها إلى كلامهم، وتعريبهم لكلمات فارسية ورومية وحبشية ونبطية شاهد صدق على ذلك، ولَهذا لا تجد فى لغة العرب القدماء، وهم العرب العاربة، وهى البائدة ما تجده فى لغة العرب المستعربة، من الثروة اللسانية التى بلغت ذروتها زمن البعثة .

المحمدية، بحيث يكاد ويجزم الباحث فى لغاتهم أن العرب جنسان مختلفان .

وإذا كان الفرق بين متقدمى العرب ومتأخريهم بهذه المنزلة من البعد، فالفرق بينهم وبين من لا يتكلم بلغتهم، أشد بعداً وأبعد منزلة . إذن فمن الخطأ البين حمل ما يحكيه القرآن من كلام الاسرائيليين وغيرهم على مذاهب العرب فى التجوز والاتساع، لما قررناه وأوضحناه، فشد يدك على هذه القاعدة التى لا تجدها فى غير هذا الكتاب .

قوله تعالى ﴿ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ (هود: ٤٦) وعد الله تعالى نوحاً عليه السلام بانجاء أهله من الطوفان، فلما هلك ابنه مع الهالكين فيه، قال نوح يخاطب ربه ﴿ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي ﴾ الذين وعدتنى بإنجائهم ﴿ وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ ﴾(هود: ٤٥)، لا يدخله خلف . فكيف هلك ابنى ؟ فقال الله تعالى ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ الموعود بنجاتهم . لأنه كافر، ولا نجاة لكافر .

ومن **بدع التفاسير**: قول بعض الجهلة ممن تسوروا علم التفسير بغير علم ﴿ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ أى هو ابن زنا . وهذا قول شنيع، يدل على الجهل بمقام النبوة . ثم هو مردود بنص القرآن[1] فإن الله تعالى قال قبل هذه الآية ﴿ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ ﴾(هود: ٤٢) فنسب الابن إليه، وهذا دليل قاطع على أنه ابنه لصلبه، إذ من المستحيل أن يكون ابن زنا وينسبه الله إليه، وأما قوله ﴿ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ فهو من حذف الصفة للعلم بها كما تقدم، قال تعالى ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ ﴾(هود: ١١٨)، هداية الخلق ﴿ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾(هود: ١١٨)، أهل دين واحد، وهو دين الإسلام ﴿ وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾(هود: ١١٨)، على أديان شتى ﴿ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ﴾(هود: ١١٩)، فهداهم للاتفاق على دين الحق ﴿ وَلِذَلِكَ ﴾ المذكور من الاختلاف والرحمة ﴿ خَلَقَهُمْ ﴾ خلق أهل الاختلاف لتكون عاقبتهم الاختلاف، وأهل الرحمة لتكون عاقبتهم الرحمة، فاللام للعاقبة ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ ﴾(هود: ١١٩)، وهى ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ (هود: ١١٩) .

ومن **بدع التفاسير**: قول أبى مسلم الأصفهانى: معنى ﴿ مُخْتَلِفِينَ ﴾: أن خلف هؤلاء الكفار يخلف سلفهم فى الكفر، لأنه: سواء قولك: خلف بعضهم بعضاً، وقولك: اختلفوا . وسواء قولك: قتل بعضهم بعضاً، وقولك: اقتتلوا . ومنه قولهم: لا أفعل كذا، ما أختلف الجديدان .

قلت: ان صح ان اختلفوا بمعنى خلف بعضهم بعضاً، فالسياق لا يساعد عليه . ولا

---

(١) فى الآية نكتة ترد هذا القول الشنيع، لم أر من تعرض لها، وهى أن نوحاً قال: ﴿ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي ﴾ (هود: ٤٥)، فاشتمل كلامه على أمرين: نسبة الابن إليه، وأنه من أهله . ورد الله عليه قال: ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ (هود: ٤٦)، فأقر بنوته، ونفى أنه من أهله الناجين، ولو لم يكن أبنه لقال له: ليس ابنك ولا من أهلك

يناسبه وإنما يناسب الاختلاف بالمعنى السابق، وهو المشهور المتعارف.

* * * * * * * *

١١- ومن سورة يوسف

قولـه تعالى ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ﴾ أى همت بمخالطته ، ﴿ وَهَمَّ بِهَا ﴾ هم بمخالطتها ﴿ لَوْلا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾(يوسف:٢٤)، لخالطهـا، والمـراد: أن نفسه مالت إليها بحكم الطبيعة البشرية، كمـا يميل الصائم للماء البارد مثلاً، لكنه لم يعزم . بل امتنع عن قربانها خوفاً من الله تعالى، ورعاية لزوجها الذى تركه معها مؤتمناً له، فلم يكن ليخونه . فقد تبين أن هـم يوسف عـلى حقيقته، وأن جـواب لـولا محذوف، وتقديره ما ذكرناه . وأن البرهان الذى رآه خشية الله المطلع على سره ونجواه، وقبح خيانة سيدها الذى أكرم مثواه .

ومـن بـدع التفاسير: جعـل ﴿ هَمَّ بِهَا ﴾ جواب ﴿ لَوْلا ﴾ مقدماً عليها، والتقدير: (ولـولا أن رأى بـرهان ربه) لَهمّ بها . امتنع همه بها، لرؤية برهان ربه، فلم يقع هم أصلاً وهو مردود بوجهين :

أحدهمـا: أن جواب لولا لا يتقدم عليها، لأنها فى حكم الشرط، وللشرط صدر الكلام . ولأنهـا مـع مـا فـى حـيزها من الجملتين، مثل كلمة واحدة، ولا يجوز تقديم بعض الكلمة على بعض، أما حذف بعضها إذا دل عليه دليل فجائز .

ثانـيهما: أنـه لـو لم يقـع مـنه هم أصلاً، لما كان ممدوحاً عند الله تعالى، ولا كان له ثواب، لأن استعظام الصبر على الابتلاء، على حسب عظم الابتلاء، وكذلك الثواب على قدر المشـقة، ولا مشـقة فـى عـدم الهـم . ولـو كان همه كهمها عن عزيمة، لما مدحه الله بأنه من عباده المخلصين .

وقـيل: ﴿ وَهَمَّ بِهَا ﴾ أى بضـربها، ولولا أن رأى أن ضربها يؤدى إلى اتهامه بأنه أراد بهـا سـوءاً فامتنعـت مـنه . وهـذا مـن بـدع التفاسير أيضـاً، وهو قول سخيف . وكيف يضـربها وهـو خـادم عـندها ؟ غريـب فـى بيتها ؟ بل قوله لها ﴿ مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾(يوسف:٢٣) يـدل عـلى أنـه كـان يخاطبها بأسلوب مؤدب مهذب، وهذا هو اللائق بمقامه، والمناسب لموقفه منها .

قـال الزمخشـرى: وقـد فسـر (همّ) يوسـف بأنه حل الهيمان. وجلس منها مجلس

المجامع . وبأنه حل تكة سراويله وقعد بين شعبها الأربع، وهى مستلقية على قفاها . وفسر البرهان بأنه سمع صوتاً: أياك وإياها، فلم يكترث له، فسمعه ثانياً، فلم يعمل به، فسمع ثالثاً: أعرض عنها، فلم ينجع فيه . حتى مثل له يعقوب عاضاً على أنملته، وقيل: ضرب بيده فى صدره، فخرجت شهوته من أنامله .

وقيل: (صيح به): يا يوسف لا تكن كالطائر، كان له ريش، فلما زنى قعد لا ريش له وقيل: بدت كف فيما بينهما ليس لا عضد ولا معصم، مكتوب فيها ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۞ كِرَاماً كَاتِبِينَ ﴾ (الانفطار: ١١) فلم ينصرف، فرأى فيها: ﴿ وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً ﴾ (الاسراء: ٣٢) . فلم ينته، ثم رأى فيها: ﴿ وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى الله ﴾ (البقرة: ٢٨١) فلم ينجع فيه . فقال الله لجبريل عليه السلام: أدرك عبدى قبل أن يصيب الخطيئة . فانحط جبريل وهو يقول: يا يوسف أتعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب فى ديوان الأنبياء ؟! وقيل: رأى تمثال العزيز .

وقيل: قامت المرأة إلى صنم لا كان هناك، فسترته . وقالت: استحى منه أن يرانا. فقال يوسف: أستحييت ممن لا يسمع ولا يبصر، ولا أستحى من السميع البصير العليم بذوات الصدور .

قلت: هذه الأقاويل من بدع التفاسير . وقد أحسن ردها الزمخشرى حيث قال: ولو وجدت من يوسف عليه السلام أدنى زلة، لنعيت عليه، وذكرت توبته واستغفاره، كما نعيت على آدم زلته. وعلى داود، وعلى نوح . وعلى أيوب . وعلى ذى النون، وذكرت توبتهم واستغفارهم . كيف وقد اثنى عليه وسمى مخلصاً فعلم بالقطع أنه ثبت فى ذلك المقام الدحض . وأنه جاهد نفسه مجاهدة أولى القوة والعزم . ناظراً فى دليل التحريم ووجه القبح، حتى استحق من الله الثناء فيما أنزل من كتب الأولين، ثم فى القرآن الذى هو حجة على سائر كتبه. ومصداق لها . ولم يقتصر إلا على استيفاء قصته وضرب سورة كاملة عليها[1]، ليجعل له لسان صدق فى الآخرين . كما جعله لجده إبراهيم عليه السلام، وليقتدى به الصالحون إلى آخر الدهر. فى العفة وطيب الازار، والتثبت فى مواقف العثار

(١) ولم يخبرب سورة لأيوب ﷺ مع عظيم ما أصابه من الضر حتى أثنى عليه بقوله تعالى ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ (ص: ٤٤) ويؤخذ من هذا أن الصبر عن المعصية مع قوة الشهوة الداعية إليها أعظم عند الله من الصبر على البلية فى جسم أو مال أو ولد . وجاء فى حديث ضعيف: أن الصبر على فعل الطاعة بثلاثمائة حسنة، والصبر على المصيبة بستمائة، والصبر عن المعصية بتسعمائة .

قلت: ويعجبنى قول الإمام الرازى فى هذا المقام: أن يوسف ﷺ برأه الله تعالى بقوله ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ (يوسف: ٢٤) وبرأته النسوة ﴿ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ﴾ (يوسف: ٥١) وبرأته امرأة العزيز، قالت: ﴿ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ وبرأه الشيطان ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ (الحجر: ٣٩-٤٠) فمن يتهمه بعد ذلك ؟!

قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ ﴾ (يوسف: ٣١)، أى فلما رأين يوسف أعظمنه وهبن حسنه الرائع. ومن بدع التفاسير: ما حكاه الزمخشرى فقال: وقيل: أكبرن بمعنى حضن، والهاء للسكت يقال: أكبرت المرأة إذا حاضت. وحقيقته: دخلت فى الكبر، لأنها بالحيض تخرج من حد الصغر، إلى حد الكبر. وكأن أبا الطيب أخذ من هذا التفسير قوله:

خف الله واستر ذا الجمال ببرقع فإن لحت حاضت فى الخدور العواتق

قلت: هذا التفسير - وإن لم يتعقبه هو ولا البيضاوى - بعيد من السياق، بل هو من غريب اللغة الذى يجب اجتنابه فى تفسير القرآن الكريم.

قوله تعالى ﴿ وَقَالَ ﴾ (يوسف: ٤٢)، يوسف ﴿ لِلَّذِي ظَنَّ ﴾ أيقن ﴿ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا ﴾ وهو الساقى ﴿ اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ (يوسف: ٤٢)، سيدك فقل له ان فى السجن غلاماً محبوساً ظلماً فخرج ﴿ فَأَنْسَاهُ ﴾ أى الساقى ﴿ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ ﴾ يوسف عند ﴿ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ (يوسف: ٤٢)، فمعنى الآية: أنس الشيطان الساقى أن يذكر يوسف عند الملك فمكث يوسف فى السجن بضع سنين. ونسب الانساء للشيطان، لأن ما ترتب عليه من مكث يوسف فى السجن مظلوماً يحبه الشيطان.

ومن بدع التفاسير: أن الضمير فى ﴿ أَنْسَاهُ ﴾ يعود على يوسف. والمعنى أنس الشيطان يوسف ذكر ربه ﷻ حين استغاث بمخلوق، فعوتب ببقائه فى السجن بضع سنين وهذا باطل. لأن الله تعالى أخبر عن يوسف فى أول السورة بأنه من عباده المخلصين فكيف يخبر عنه هنا بأن الشيطان تمكن منه وأنساه ذكر ربه تعالى ؟! هذا تناقض يتنزه عن القرآن! وقوله للساقى: اذكرنى عند الملك ليس استغاثة بمخلوق، لكنه سعى مشروع، لبيان حاله عند الملك، حتى يتخلص من الظلم الواقع عليه. وكيف ينسى الله أو يستغيث بسواه، وهو الذى يدعو فى السجن إلى توحيده وعبادته ؟!

قولـه تعـالى ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ الله آمِنِينَ ﴾ (يوسف: ٩٩) أى ادخلوا مصر آمنين ان شاء الله . فالمشيئة تعلقت بالدخول مكيفا بالأمن . وهذا نحو قوله تعالى ﴿ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ الله آمِنِينَ ﴾(الفتح: ٢٧) .

قال الزمخشرى: ومن بدع التفاسير: إن قول ﴿ إِنْ شَاءَ الله ﴾ من باب التقديم والتأخير، وأن موضعها ما بعد قوله ﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي ﴾ (يوسف: ٩٨) فى كلام يعقوب ـ أى سوف أستغفر لكم ربى ان شاء الله ـ ولا أدرى ما أقول فيه وفى نظائره ؟

قلت: ومن بدع التفاسير أيضاً استنباط بعض الجهلة ان كل من دخل مصر آمن . وهى لا تدل على ذلك، لأنها خطاب من يوسف لأهله، وإنما يستفاد الأمان من قوله تعالى عن البيت الحرام ﴿ وَمَنْ دَخَلَه كَانَ آمِناً ﴾ (آل عمران: ٩٧) فهذه الآية تعم كل داخل للبيت الحرام كما هو ظاهر .

* * * * * * * *

١٢ـ ومن سورة الرعد

قوله تعالى ﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ ﴾(الرعد: ١٣) تسبيح الرعد إما أن يراد به: تسبيح سامعيه، فيكون من مجاز الحذف .

أو يراد به: دلالته على قدرة الله تعالى، متلبسة بدلالته على نعمة المطر التى يحمد عليها، فيكون من قبيل الإستعارة .

أو: أنه يسبح حقيقة، وإن كنا لا نفقه تسبيحه .

أو: اسم ملك موكل بالسحاب كما جاء فى حديث ابن عباس عند أحمد والترمذى والنسائى . ولفظه عن ابن عباس، قال: أقبلت يهود إلى النبى ﷺ، فقالوا: أخبرنا يا أبا القاسم عن الرعد ؟ قال " ملك من الملائكة موكل بالسحاب، معه مجاديف من نار يسوق بها السحاب " قالوا: فما هذا الصوت ؟ قال " زجره للسحاب " قالوا: صدقت . وروى الطبرانى فى الأوسط من طريق أبى عمران الكوفى عن ابن جريج وعطاء عن جابر: أن خزيمة بن ثابت ـ وليس بالأنصارى ـ سأل النبى ﷺ عن الرعد، فقال: هو ملك بيده مخراق إذا رفع برق وإذا زجر رعدت وإذا ضرب صعقت " والحديث ضعيف .

قال الزمخشرى: ومن بدع المتصوفة، الرعد صفعات الملائكة، والبرق زفرات أفئدتهم.

والمطر بكاؤهم .

* * * * * * * *

١٣- ومن سورة إبراهيم

قولـه تعـالى ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ ﴾ (ابراهيم:٩) أى هذا جوابنا لكم ليس عندنا غيره، اقناطاً لهم من التصديق بهم . وهذا التأويل واضح قوى، يتفق مع سياق الآية ونظمها .

وقد أبدى الشريف المرتضى وجوهاً من التأويل، تعتبر من بدع التفاسير .

منها: أن المعنى: ﴿ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ ﴾ عاضين عليها غيظاً وحنقاً على الأنبياء

ومنها: ﴿ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ ﴾، مشيرين إلى رسلهم بأن يكفوا عن الكلام، ويمسكوا عنه . وهذه عادة من يريد أن يسكت غيره، وسياق الآية لا يناسب هذين الوجهين، وإنما يناسب إقناط الرسل من الإيمان كما قدمنا .

ومنها: أن يكون الضمير فى ﴿ أَفْوَاهِهِمْ ﴾ يعود على الرسل . والمعنى أن الكفار ردوا أيديهم فى أفواه الرسل، ما نعين لهم من الكلام، كما يفعل المسكت منا لصاحبه، والمراد لقوله . وهذا ينافى سياق الآية كما سبق، وينافى نظمها الذى يقتضى عود الضمير فى ﴿ أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ ﴾ على الكفار .

ومنها: أن الضميرين يعودان على الرسل، والمعنى: أن الكفار ردوا أيدى الرسل فى أفواههم. ليسكتوهم ويقطعوا كلامهم، وهذا - مع بعده - ينافى سياق الآية ونظمها .

ومنها: أن الضمير فى ﴿ أَفْوَاهِهِمْ ﴾ يعود على الرسل، والمعنى: أن الكفار ردوا أيديهم فى الرسل مكذبين لهم وليست الأيدى على حقيقتها، وإنما ذكرت كناية عن التكذيب وعدم الاصغاء إلى قول الرسل،فى هذا الوجه تعسف ومخالفة لنظم الآية .

ومنها: أن المراد بالأيدى النعم، والضمير المضافة هى اليه يعود على الرسل . وفى بمعنى الباء، والضمير فى ﴿ أَفْوَاهِهِمْ ﴾ يعود على الكفار. المعنى: فردوا نعم الرسل بأفواههم. أى ردوا وعظيم وانذارهم . وفى هذا الوجه تعسف كبير. وخروج على نظم الآية .

ومنها: أن تكون الأيدى بمعنى النعم أيضا، والضمير فيها يعود على الكفار والمعنى: فردوا بأفواههم نعمهم التى جاء بها الرسل وأضيفت النعم اليهم، لأنها من نعم الله تعالى عليهم، وهذا الوجه أكثر تعسفا من سابقه وكيف تضاف النعم اليهم وهم منسلخون منها ؛ بل رافضون لها كل الرفض .

ومنها: وجه نقله عن أبى مسلم الأصفهانى فى تفسيره . وهو: عود الضميرين فى (أيديهم وأفواههم) على الرسل . والمراد بالأيدى ما نطق به الرسل من البينات والحجج التى جاءوا بها قومهم، لأنها من نعم الله تعالى .

ولما كان ما يعظ به الأنبياء قومهم وينذرونهم به،إما يخرج من أفواههم. فردهوه وكذبوه . قيل: انهم ردوا أيديهم فى أفواههم، أى أنهم ردوا القول من حيث جاء، قال: ولا يجوز أن يكون الضمير فى ذلك للمرسل اليهم، كما تأوله بعض المفسرين . وذكر أن معناه: أنهم عضوا عليهم أناملهم غيظا، لأن رافع يده إلى فيه، والعاض عليها، لا يسمى رادا ليده إلى فيه إلا إذا كانت يده فى فيه فيخرجها ثم يردها .

قلت: هذا الوجه بعيد متكلف، وهو يناى نظم الآية أيضا . وما اعترض به، أجاب عنه المرتضى بأنه قد يقال: رد يده إلى فيه وإلى وجهه . وعاد فلان يقول كذا . وان لم يتقدم ذلك الفعل منه ولو لم يسغ هذا القول تحقيقا، لساغ تجوزا واتساعا . على أنه يمكن، أن يكون المراد بذلك أنهم فعلوا الفعل شيئا بعد شئ، وتكرر منهم فلهذا جاز أن يقول: (ردوا أيديهم فى افواههم)، لأنه قد تقدم مثل هذا النعل، فلما تكرر، جازت العبارة عنه بالرد .

قلت: يؤيد جوابه الأول قوله تعالى حكاية عن شعيب عليه السلام ﴿ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللهُ مِنْهَا ﴾(الأعراف: ٨٩)، وشعيب لم يكن فى ملتهم قط .

* * * * * * *

١٤- ومن سورة النحل

قولَه تعالى ﴿ لا جَرَمَ أنَّ لَهمُ النَّارَ وَأنَّهُمْ مُفْرَطُونَ ﴾(النحل:٦٢)، قال الفراء: ﴿ لا جَرَمَ ﴾ هـى كـلمة كانت فى الأصل بمنزلة لابد، ولا محالة، فجرت على ذلك وكثرت، حتى تحولت إلى معـنى القسم، وصارت بمنزلة حقا . فلذلك يجاب عنها باللام كما يجاب بها عن القسم ألا تراهم يقولون لا جرم: لآتينك ! وليس قول من قال: جركت، حققت بشئ .

قلت: ومعـنى الآيـة عـلى هـذا واضـح، فـبعد أن حكـى الله تعـالى قولَهم ﴿ أنَّ لَهمُ الْحُسْنَى ﴾ (النحل:٦٢)، رد علـيهم بصـيغة تفـيد التأكيد فقال ﴿ لا جَرَمَ ﴾ أى حقاً أن لَهم الـنار، فلأنـا فـيه للجنس، وجرم مبنى على الفتح فى محل نصب اسمها، وأن لَهم النار فى موضع رفع خبرها، وقيل ـ فى لا جرم ـ وجهان آخران .

أحدهمـا: أن: لا، نفـى لكـلام الكفار السابق، وجرم فعل ماضى بمعنى حق وثبت وأن لَهم النار، فى موضع رفع فاعل، وتقدم قول الفراء: أن من جعل جرم بمعنى حق، ليس كلامه بشئ .

والـثانى: أن: لا . نفـى لكـلام الكفار أيضاً، وجرم فعل ماض معناه كسب، وأن لَهم الـنار، فـى موضـع نصـب مفعـول، والفـاعل محـذوف يفهـم مـن السـياق . والـتقدير عـلى الوجهـين: لا . رد لكلام الكفار . ثم ابتدأ: حق أن لَهم النار، أو: كسب قولَهم أن لَهم النار . والـتقدير فـيه تكلـف ظاهـر، وهـو يقتضـى الوقـت عـلى: لا . وليس أحد من القراء وقف عليها، فالوجهان جديران بأن يكونا من بدع التفاسير .

" **تنبـيه** " فـى: لا جـرم . لغـات: بفـتح الجـيم والراء وهى المشهورة . وبضم الجيم وسكون الراء . ولا: جر. بحذف الميم . ولا ذا جرم، قال الشاعر:

إن كلابا والدى لا ذا جرم

لأهـدرن الـيوم هـدرا فـى النعم. هدر المعنىّ ذى الشقاشق اللهم[١] والتصرف فيها على هذا الوجه يؤيد قول الفراء، ولو كان جرن فعلاً ماضياً، ما تصرفوا فيه بحذف آخره، وتغير بنيته .

قولَـه تعـالى ﴿ وَأَوْحَـى رَبُّـكَ إلَـى الـنَّحْلِ ﴾ (النحل:٦٨)، . النحل معروف. والشراب

---

(١) **لأهـدرن**: لأصـوتن، من الَهدير. وهو تردد صوت البعير فى حنجرته . والمعنى ـ بصيغة اسم المفعول ـ الفحل من الإبـل يحـبس فى الحظيرة إذا هاج حتى لا يضرب فى النوق . والشقاشق جمع شقشقة وهى كالرئة تخرج من فم البعير عند هيجانه، واللهم بكسر الهاء الذى يلتهم أى يبتلع ما يعرض له .

الذى يخرج من بطنه معروف أيضاً، وهما المرادان بهذه الآية عند جمع المفسرين .

قال الزمخشرى: ومن بدع تأويلات الرافضة أن المراد بالنحل: على: وقومه . وعن بعضهم: أنه قال - عند المهدى الخليفة - إنما النحل بنو هاشم، يخرج من بطونهم العلم، فقال له رجل: جعل الله طعامك وشرابك ما يخرج من بطونهم . فضحك المهدى، وحدث به المنصور فاتخذوه أضحوكة .

فقلت: لهم كثير من مثل هذه التأويلات المضحكة

* * * * * * *

١٥- سورة الإسراء

قوله تعالى ﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴾ (الاسراء: ٧١)، معنى الآية: أن الناس ينادون يوم القيامة بإمامهم الذى اقتدوا به فى الدنيا . فيقال: يا أتباع القرآن، يا أتباع إبراهيم، ومن هنا كان فى هذه الآية فضيلة كبيرة لأهل الحديث جعلنا الله منهم، لأنهم أتباع النبى ﷺ تبعية خاصة .

قال الزمخشرى: ومن بدع التفاسير: أن الامام جمع أم، وأن الناس يدعون يوم القيامة بأمهاتهم . وأن الحكمة فى الدعاء بالأمهات دون الآباء، رعاية حق عيسى عليه السلام وإظهار شرف الحسن والحسين، وأن لا يفتضح أولاد الزنا[1] وليت شعرى أيهما أبدع ؟! أصحة لفظه ؟ أم بهاء حكمته ؟!

قلت: قد وفاه حقه من التهكم ! لأن جمع الأم أمات وأمهات. وولادة عيسى من غير أب، جعلها الله شرفاً له وآية، ولم يذكره الله فى القرآن إلا منسوباً لأمه. تنبيهاً لعابديه على أنه مخلوق . وشرف الحسن والحسين، لا يحتاج إلى هذه الحكمة المخترعة .

---

(١) روى الطبرانى فى الكبير عن ابن عباس مرفوعاً " أن الله يدعو الناس يوم القيامة بأمهاتهم سترا منه على عباده " فى اسناده وضاع . وورد نحوه من حديث عائشة وأنس بأسانيد ضعيفة، ولذا ذكره ابن الجوزى فى الموضوعات . وهو معارض بحديث أبى الدرداء مرفوعاً " انكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم فحسنوا أسماءكم " رواه أبو داود باسناد جيد . وفى صحيح البخارى عن ابن عمر مرفوعاً " إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة يرفع لكل غادر لواء فيقال: هذه غدرة فلان ابن فلان " فهذان الحديثان الصحيحان يفيدان أن الناس يدعون يوم القيامة بأسماء آبائهم . وهم فى ذلك اليوم مشغولون بأنفسهم. يفر أحدهم من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه فكيف يتفرغ للبحث فى أن هذا ابن زنا أو ابن حلال ؟!! وإنما يكون هذا فى الدنيا حيث يتفرغ الناس للطعن فى الأنساب. والبحث فى العورات . ولهذا جاء فى حديث تلقين الميت أن يقال له: يا فلان بن فلانة، فإن لم يعرف اسمها فليقل يا فلان ابن حواء . والحكمة فى هذا ستر الميت من قالة الناس وعيبهم له .

وأولاد الزنا كانوا صالحين، لا يضيرهم أن يدعوا بأمهاتهم . بل بركة صلاحهم تنفعهم فى ذلك الموقف، فلا يفضحهم الله تعالى . والعجيب أن البيضاوى - وهو ملخص للكشاف - أعتمد هذا التفسير !! ووجهه بأن الأم تجمع على امام، كخف وخفاف . وإن صح له هذا فكيف يفعل بقراءة الحسن (بكتابهم) ؟ وهى وإن كانت شاذة، تجرى مجرى الآحاد، فى تعيين المعنى المراد . حسبما تقدر فى علم الأصول . وأيضاً فإن الآية تفيد دعاء (كل أناس) باعتبارهم جماعة يتبعون داعياً من الدعاة، أو كتاباً من الكتب . وحكمة الدعاء على هذا الوجه: إظهار فضل أهل الحق وفوزهم، وهم أتباع القرآن ودين الإسلام . وإظهار خسران غيرهم، وهم أتباع أى دين غير دين الإسلام، والحديث الصحيح يؤيد هذا أيضاً .

قوله تعالى ﴿ وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ ﴾(الاسراء: ٧٢)، الدنيا ﴿ أَعْمَى ﴾ (الاسراء: ٧٢)، عن الحق لا يبصر رشده ﴿ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى ﴾(الاسراء: ٧٢)، عن طريق النجاة ﴿ وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ (الاسراء: ٧٢)، أبعد طريقاً عنه والعمى كناية عن عمى قلوب الكفار، وعدم اهتدائهم لطريق الحق وهذه الآية فى معنى: ومن أوتى كتابه بشماله فهو لا يهتدى لقراءة كتابه قراءة تسره وتنجيه . لأنها ذكرت فى مقابلة قوله تعالى ﴿ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَأُونَ كِتَابَهُمْ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴾(الاسراء: ٧١) .

ومن بدع التفاسير: جعل الآية مرتبطة بقوله تعالى ﴿ رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ (الاسراء: ٦٦)، إلى قوله ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾(الاسراء: ٧٠)، ثم قال ﴿ وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ ﴾(الاسراء: ٧٢)، يعنى عن هذه النعم وعن هذه العبر ﴿ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى ﴾(الاسراء: ٧٢)، يعنى فهو عما غيب عنه من أمر الآخرة ﴿ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴾(الاسراء: ٧٢)، ونسب هذا التفسير إلى إبن عباس، ولا يصح عنه، وهو تأويل ركيك

قوله تعالى ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً ﴾(الاسراء: ٨٥)، ذكر المرتضى فى هذه الآية وجهين. ثم قال:

وثالثها: أنهم سألوا عن الروح الذى هو القرآن . وقد سمى الله القرآن روحاً فى مواضع من الكتاب. وإذا كان السؤال عن القرآن، فقد وقع الجواب موقعه لأنه قال لهم: الروح الذى هو القرآن من أمر ربى. ومما أنزله على نبيه ﷺ، ليجعله دلالة وعلماً على صدقه . وليس من فعل المخلوقين. ولا مما يدخل فى امكانهم . وهذا جواب الحسن البصرى ويقويه .

قوله تعالى ﴿ وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً ﴾ (الاسراء: ٨٦) .

فكأنه تعالى قال: إن القرآن من أمرى وفعلى، ومما أنزلته علماً على نبوة رسولى، ولو شئت لرفعته وأزلته وتصرفت فيه كما يتصرف الفاعل فيما يفعله .

قلت: ليس فى الآية دلالة بالمطابقة ولا بالتضمن ولا بالإشارة على أن القرآن من فعل الله، وأنه يتصرف الفاعل فيما يفعله . وتسميته فى غير هذه الآية روحاً مجاز، لأن الناس يحيون فى دينهم، كما يحيا الجسد بالروح . فما ذكره فى هذا الوجه، من بدع التفاسير . لأنه حمل الآية ما لا تحتمله، واستخرج منها - بطريق التعمد الخاطئ - الإفادة بخلق القرآن وهو القول الذى خالف به المعتزلة ومن وافقهم من الامامية اجماع علماء المسلمين، من الصحابة والتابعين ومن بعدهم . والروح الذى سألت عنه قريش - باشارة اليهود كما فى سيرة ابن هشام وهو الروح الذى به قوام الجسم وحياته، كما تقدم للمرتضى فى الوجهين السابقين . أما القرآن فلا معنى لسؤالهم عنه، لأنهم إما أن يؤمنوا به، فيعملوا أنه وحى من الله تعالى . وإما أن لا يؤمنوا به، فيقولوا: سحر أو شعر، أو كهانة، كما حكى الله قولهم فى غير آية ورد عليهم .

* * * * * * * *

١٦ - ومن سورة الكهف(١)

قوله تعالى ﴿ وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً ۝ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ الله ﴾ (الكهف: ٢٣-٢٤) نزلت الآية تأديبا من الله لنبيه، حين قالت له قريش - باشارة اليهود -: أخبرنا عن الروح وذى القرنين وأصحاب الكهف، فقال (ائتونى غدا أخبركم) ولم يستثن فأبطأ عليه الوحى خمسة عشر يوما حتى شق عليه، وكذبته قريش . والاستثناء من النهى، أى ولا تقولن . لأجل شئ تعزم عليه: إنى فاعله فيما يستقبل إلا أن يشاء الله، أى إلا متلبساً بمشيئته قائلا: (إن شاء الله)، أو: (ولا تقولن ذلك إلا أن يشاء الله) أن تقوله بأن يأذن لك فيه . وفيه لفظ وقت محذوف للعلم به، تقديره: إلا وقت أن يشاء الله أن تقوله .

حكى الزمخشرى هذين الوجهين، وقال:

(١) من بدع التفاسير فى كلب أهل الكهف: أنه كان أسداً، وقيل: كان رجلا، سمى بالكلب لملازمته للحراسة . حكاهما الحلبى فى سيرته . والصواب أنه كان كلبا حقيقة .

وفيه وجه ثالث: وهو أن يكون إن شاء الله، في معنى كلمة تأييد كأنه قيل: ولا تقولنه أبداً، ونحوه قوله ﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّنَا ﴾(الأعراف: ٨٩) .

قلت: هذا من بدع التفاسير، لأنه صرف للآية عن ظاهرها إذ معناها الظاهر والمناسب لسبب نزولها، هو ما تقدم . ولأن جعل المشيئة لتأبيد النهي، مبني على مذهبه الاعتزالي في أن مشيئة الله لا تتعلق بجميع أفعال المكلفين، كما سبق في خطبة الكتاب، بل ببعضها .

وحكى المرتضى وجها آخر عن الغراء، وهو جعل الإستثناء متصلا بفاعل والتقدير: ولا تقولن إنك فاعل إلا ما يشاء الله: قال: وما رأيته - أي هذا التأويل - إلا له، ومن العجب تغلغله إلى مثل هذا !! مع أنه لم يكن متظاهرا بالقول العدل . قلت: هذا التأويل اعتزالي محض إذ معناه أن الله تعالى ينهى أن يقول أحد: إني أفعل ذلك الا أن يشاء الله . معلقا فعله على مشيئة الله، لأنه تعالى لا يشاء جميع ما يفعله الناس . وهذا من بدع التفاسير، لأنه ينافي مدلول الآية، ولا يتفق مع سبب نزولها، ويظهر أن الغراء كان معتزليا يخفي مذهبه، كما كان أبو عبيدة خارجيا يخفي مذهبه إلا عن أصدقائه الخاصين به، وكان يغضب من أحدهم إذا لم يقل عن قطري بن الفجاءة: أمير المؤمنين .

وقال أبو علي الجبائي في تفسيره: إنما عنى بذلك أن من كان لا يعلم أنه يبقى غد حيا . فلا يجوز أن يقول: إني سأفعل غدا كذا وكذا، فيطلق الخبر بذلك وهو لا يدري، لعله سيموت ولا يفعل ما أخبر به، لأن هذا الخبر إذا لم يوجد مخبره به فهو كذب، وإذا كان المخبر لا يأمن أن لا يوجد مخبره، لحدوث أمر من فعل الله نحو الموت أو العجز أو بعض الأمراض . أولا يحدث ذلك، بأن يبدو له هو في ذلك، فلا يأمن أن يكون خبره كذبا في معلوم الله ﷻ . وإذا لم يأمن ذلك، لم يجز أن يخبر به . ولا يعلم خبره هذا من الكذب إلا بالاستثناء الذي ذكره الله تعالى، فإذا: إني صائر غدا إلى المسجد أن شاء الله، فاستثنى في مصيره مشيئته الله أمن أن يكون خبره في هذا كذبا، لأن الله إن شاء أن يلجئه إلى المصير إلى المسجد غدا. ألجأه إلى ذلك، وكان المصير منه لا محالة فإذ كان ذلك على ما وصفنا، لم يكن خبره هذا كذبا. وإن لم يوجد منه المصير إلى المسجد، لأن لم يوجد ما أستثناه في ذلك من مشيئة الله تعالى - يعني مشيئته الا لجاء - قال: وينبغي ألا يستثني مشيئة دون مشيئة لأنه إن استثنى في ذلك مشيئة الله لمصيره إلى المسجد على وجه التعبد، فهو لا يأمن أن يكون خبره كذبا لأن الانسان قد يترك كثيرا مما يشاؤه الله تعالى منه، ويتعبده به . ولو كان أستثناه مشيئة الله لأن يبقيه ويقدره ويرفع عنه المواقع ما كان أيضا لا يأمن أن يكون خبره كذبا . لأنه قد يجوز ألا يصير إلى المسجد

مـع تبقـية الله تعالى له قادرا مختارا، فلا يأمن من الكذب فى هذا الخبر دون أن يستثنى المشيئة العامـة الـتى ذكـرناها . فـإذا دخلـت هذه المشيئة فى الاستثناء فقد أمن أن يكون خبرة كذباً. إذا كانـت هـذه المشـيئة مـتى وجدت، وجب أن يدخل المسجد لا محالة . قلت: هذا التأويل . رغم ما أطال صاحبه فى تقديره ـ باطل لأربعة أمور:

أحدها: تخصيص لفظ " شئ " وهو أعم ألفاظ العموم بعمل الطاعة .

ثانـيها: جعـل مذهبه الاعتزالى ـ وهو أن مشيئة الله لا تتعلق بأفعال المكلف المحرمة والمكروهة والمباحة ـ دليلا على التخصيص المذكور .

ثالثها: تقييد المشيئة الا لجاء .

رابعهـا: اتخـاذ مذهـبه فـى أن العبد يفعل باختياره مالا يشاؤه الله منه، دليلاً على التقيـيد المذكـور، ومـن بـدع التفاسـير أن يجعـل المفسر مذهبه دليلا على تخصيص لفظ فى الآية، أو تقييده . مضافا إلى غفلته عما يفيده سياق الآية، وسبب نزولَها .

قولـه تعـالى ﴿ حَـتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ ﴾ (الكهف:٦٠)، هو المكان الذى وعد موسى لقاء الخضر عنده، وهو ملتقى بحر فارس والروم مما يلى المشرق وقيل: طنجة، وقيل: إفريقيا .

قـال الزمخشـرى: ومـن بـدع التفاسير أن البحرين موسى والخضر لأنهما كانا بحرين فى العـلم، قلـت: حكـاه البيضاوى مصرحا بأن موسى بحر فى علم (الظاهر) والخضر بحر فى علم (الـباطن) وقـد قدمـنا أن مـا يحكـيه القرآن عن السابقين من الأنبياء وغيرهم يجب حملَه على الحقـيقة كمـا هـنا . فانـنا لا نـدرى هـل كان فى لغة موسى التى خاطب بها فتاه، إطلاق البحر عـلى العـالم مجـازا أو كـناية كما فى لغة العرب ؟ وعلى هذا فالمتيقن فى " مجمع البحرين " هو المعنى الحقيقى الذى ذكره المفسرون جميعهم، وماعداه من بدع التفاسير حتما[1] .

* * * * * * *

١٧ ـ ومن سورة مريم

قولَه تعالى ﴿ فأرفأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَها بَشَراً سَوِيّاً ﴾ (مريم:١٧)، معنى الآية :

(١) نعم يصح أن يكون تفسيرا إشاريا، وهو نوع من التفسير بينته فى الخاتمة .

أن الله تعالى أرسل جبريل عليه السلام إلى مريم، فظهر لها فى صورة بشر، إلى آخر القصة .

وروى أبو جعفر الرازى عن الربيع عن أنس عن أبىّ بن كعب - فى قوله تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ (الأعراف:١٧٢)، وذكر حديثا طويلا فى استنطاق الأرواح، وهى فى عالم الذر - وفيه : وكان عيسى عليه السلام من تلك الأرواح التى أخذ عليها العهد والميثاق فى زمن آدم . فأرسل ذلك الروح إلى مريم حين أنتبذت من أهلها مكانا شرقيا . فأرسله الله فى صورة بشر، فتمثل لها بشرا سويا، فحملت الذى يخاطبها . فدخل من فيها !! قال ابن تيمية : هذا غلط، فإن الذى أرسل إليها : الملك الذى قال لها ﴿ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيّاً ﴾ (مريم:١٩)، ولم يكن الذى خاطبها بهذا عيسى بن مريم، هذا محال . قلت: أبو جعفر الرازى ضعيف، ضعفه أحمد وغيره وقال ابن حبان: كان ينفرد بالمناكير عن المشاهير . وهذا من مناكيره الواصلة إلى حد الاستحالة وعدم الامكان، فهو من بدع التفاسير [1] .

قوله تعالى ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ (مريم:٣٨)، يعنى يوم القيامة ﴿ لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ ﴾(مريم:٣٨)، يعنى فى حياتهم الدنيا ﴿ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ ﴾ (مريم:٣٨) فى ذهاب عن العلم بالله ودينه . وصيغة " أسمع وأبصر " تفيد التعجب، والمراد أن أسماع الكفار وأبصارهم جدير بأن يتعجب منها يوم القيامة، لعلمها بما كانت عنه صما وعميا فى الدنيا، قال المرتضى: أما قوله تعالى ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ ﴾ فهو على مذهب العرب فى التعجب، ويجرى مجرى قولهم: ما أسمعه ! وما أبصره ! والمراد بذلك: الاخبار عن قوة علومهم بالله فى تلك الحال. وأنهم عارفون به على وجه لا أعتراض للشبهة عليه . وهذا يدل على أن أهل الآخرة عارفون بالله تعالى ضرورة . ولا تنافى بين هذه الآية، وبين الآيات التى أخبر عنهم فيها بأنهم لا

---

(١) من بدع التفاسيرفى مسألة مريم: رأى أبداه لى طبيب فى كلية الطب وكان يعنى بالمسائل الدينية . وحاصل ذلك الرأى: أن مريم كانت خنثى. عندها عضو الذكر وعضو الأنثى. والدليل على هذا: أن مريم لما وضعتها قالت رب أنى وضعتها أنثى. فرد الله كلامها يقوله ﴿ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾ (آل عمران: ٣٦). أى ليست أنثى كما فهمت، بل خنثى فلما بعث الله لها جبريل فى صورة بشر. علمها الاستمناء فخرج المنى من عضو الذكر ودخل فى عضو الأنثى فحملت . وهذا معنى قوله: لأهب لك غلاما زكيا . بتعليمك طريق التناسل بين العضوين، وبسببه جاء الغلام. وهو أيضا معنى النفخ فى فرجها على سبيل الكناية فأوردت عليه قراءة حمزة ﴿ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتُ ﴾ بضم التاء من وضعت. والقراءات يفسر بعضها، بعضا فالجملة على القراءتين المتواترتين تفيد توجع أم مريم وتأسفها على فوات مطلوبها حيث نذرت لخدمة بيت المقدس ذكرا فجاء المولود أنثي . ولهذا حصل التعقيب بجملة ﴿ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى ﴾ (آل عمران: ٣٦)، أى ليس الذكر المطلوب كالأنثى المعطاة . فلم يجد مخلصا من هذا الإيراد . والحقيقة أنه رأى باطل جدا . ويكفى فى بطلانه قول الملائكة لمريم ﴿ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾ (آل عمران: ٤٢). وقوله تعالى ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ (التحريم: ١٢) .

يسمعون ولا يبصرون، وبأن على أبصارهم غشاوة . لأن تلك الآيات تناولت أحوال التكليف . وهي الأحوال التي كان الكفار فيها ضلالا عن الدين، جاهلين بالله وصفاته .

وهذه الآية تناولت يوم القيامة وهو المعنى يقوله ﴿ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ (مريم:٣٨)، وأحوال يوم القيامة لابد فيها من المعرفة الضرورية . وتجرى هذه الآية مجرى قوله تعالى ﴿ فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ (ق:٢٢)، فأما قوله تعالى ﴿ لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ (مريم:٣٨)، فيحتمل أن يريد تعالى يقوله (اليوم) الدنيا وأحوال التكليف، ويكون الضلال المذكور إنما هو الذهاب عن الدين والعدول عن الحق . فأراد تعالى أنهم فى الدنيا جاهلون، وفى الآخرة عارفون، بحيث لا تنفعهم المعرفة .

ويحتمل أن يريد تعالى باليوم يوم القيامة، ويعنى تعالى بالضلال العدول عن طريق الجنة ودار الثواب، إلى دار العقاب . فكأنه تعالى قال: اسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا، غير أنهم مع معرفتهم هذه وعلمهم، يصيرون فى هذا اليوم إلى العقاب، ويعدل بهم عن طريق الثواب. قلت: فى هذا الوجه بعد لا يخفى .

وقال الزمخشرى: معناه ـ أى أسمع بهم وأبصر ـ: التهديد بما سيسمعون ويبصرون، مما يسوءهم قلوبهم .

ومن بدع التفاسير: ما ذكره أبو على محمد بن عبد الوهاب الجبائى فى تفسيره، فقال: ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ (مريم:٣٨)، أى أسمعهم وبصرهم وبين لهم أنهم إذا أتوا مع الناس إلى موضع الجزاء، سيكونون فى ضلال عن الجنة، وعن الثواب الذى يناله المؤمنون . والظالمون الذين ذكرهم الله هم هؤلاء الذين توعدهم الله بالعذاب فى ذلك اليوم .

ويجوز أيضا أن يكون عنى يقوله ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ ﴾ (مريم:٣٨)، أى أسمع الناس بهؤلاء الأنبياء وأبصرهم بهم ؛ ليعرفوهم ويعرفوا خبرهم، فيؤمنوا بهم، ويقتدوا بأعمالهم وأراد يقوله تعالى ﴿ لَكِنِ الظَّالِمُونَ ﴾ (مريم:٣٨)، لكن من كفر بهم من الظالمين اليوم، وهو يعنى يوم القيامة، فى ضلال عن الجنة وعن نيل الثواب المبين . قلت: هذان الوجهان باطلان، تولى ردهما الشريف المرتضى:

فقال فى **الوجه الأول**: أن الكلام ـ وإن كان محتملا لما ذكره بعض الاحتمال من بعد ـ فإن الأولى والأظهر ما تقدم ذكره من المبالغة فى وصفهم ـ يعنى بإفادة التعجب ـ وقوله ﴿ لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ (مريم:٣٨)، بعد ما تقدم، لا يليق إلا بالمعنى المذكور، لاسيما

إذا حمل اليوم على أن المراد به يوم القيامة . على أن أبا على جعل قوله تعالى ﴿ لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾(مريم:٣٨)، صلة ومتعلقا بقوله تعالى﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ ﴾ (مريم:٣٨)، والمعنى: أعلمهم وبصرهم بأنهم يوم القيامة فى ضلال عن الجنة والكلام يشهد بأن ذلك لا يكون من صلة الأول، وأن قوله تعالى (لكن) أستئناف لكلام ثان . قال:

فأما الوجه الثانى الذى ذكره فباطل، لأن قوله تعالى ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ ﴾(مريم:٣٨) إذا تعلق بالأنبياء الذين ذكرهم الله تعالى، بقى قوله ﴿ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾(مريم:٣٨)، بلا عامل، ومحال أن يكون ظرف لا عامل له: فالقرب والأولى أن يكون على الوجه الأول مفعولا .

* * * * * * *

١٨ ـ ومن سورة طه

قوله تعالى ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾ (طه:١٥)، أى أريد أخفيها: فأكاد بمعنى أريد كما جاء يريد بمعنى يكاد قى قوله تعالى ﴿ جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ ﴾(الكهف:٧٧)، وهذا من لطائف اللغة العربية: أن تستعمل كلمة مكان أخرى، لتناسب بينهما فان كاد تدل على قرب وقوع الفعل، وكذلك من أراد شيئاً فقد قرب فعله له . وروى عن سعيد بن جبير، أنه كان يقرأ ﴿ أَكَادُ أَخْفِيهَا ﴾ (طه:١٥)، بفتح الهمزة، أى أظهرها . يقال: خفى الشئ يخفيه إذا أظهره . وهذه قراءة شاذة، تردها القراءة المتواترة .

وقيل (أكاد) زائدة، والمعنى: أن الساعة آتية أخفيها .

قال المرتضى فى الأمالى: وقد قيل فيه وجه آخر، وهو: أن يتم الكلام عند قوله تعالى (آتيه أكاد) ويكون المعنى: أكاد آتى بها . ويقع الابتداء بقوله (أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى) ومما يشهد لهذا الوجه، قول ضابئ البرجمن:

همممت ولم أفعل وكدت وليتنى ... تركت على عثمان تبكى حلائله

أراد: وكدت أقتله . فحذف الفعل لبيان معناه . قلت: هذا الوجه بعيد، ولو كان صحيحاً لكان نظم الآية: أكاد، وأخفيها، كما جاء فى البيت: كدت، وليتنى . لأن وجود الواو يبين أن الخبر محذوف، ودعوى زيادة (أكاد) ضعيفة وإن أرتضاها المرتضى، فالوجهان من بدع التفاسير . وأرى أن أدعاه زيادة حرف أو كلمة فى آية من القرآن، كادعاء زيادة الكاف فى قوله تعالى ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ (الشورى:١١)، وأكاد هنا . يدل

على ضعف صاحب الادعاء، وعدم أدراكه لما في تلك الحروف والكلمات المدعى زيادتها، من نكات لطيفة، يدركها من تعمق في فهم أسرار القرآن الكريم .

وقال الزمخشري: أكاد أخفيها فلا أقول: هي آتية، لفرط إرادتي أخفاءها . ولولا ما في الأخبار بإتيانها، مع تعمية وقتها من اللطف، لما أخبرت به .

ومن بدع التفاسير: ما حكاه الزمخشري فقال: وقيل: معناه: أكاد أخفيها عن نفسي . ولا دليل في الكلام على هذا المحذوف، ومحذوف لا دليل عليه مطرح والذي غرهم منه: أن في مصحف أبي: أكاد أخفيها من نفسي . وفي بعض المصاحف: أكاد أخفيها من نفسي، فكيف أظهركم عليها ؟!! قلت: قد أعتمد هذا التفسير في سورة الأعراف، حيث قال ثمة: (إنما علمها) أي علم وقت إرسائها عنده، وقد استأثر به لم يخبر به أحد من ملك مقرب، ولا نبي مرسل، يكاد يخفيها من نفسه . وهذا غلط قبيح وكيف خفي عليه ـ مع فطنته وذكائه ـ أن خفاء علم الساعة عن الله تعالى محال ؟! وأنه لا يجوز أن يقال: يكاد يخفيها عن نفسه . ثم من أكبر عيوب الزمخشري حشد شواذ القراءات، والنقل عن شواذ المصاحف . وتكلف توجيه تلك الشواذ، بغرائب الأعراب، ونوادر اللغة بل لا يعيب كثيراً من التفاسير غير هذا، وغير الاعتماد على الاسرائيليات .

قوله تعالى ﴿ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ (طه: ٧٨)، أي البحر ﴿مَا غَشِيَهُمْ ﴾ (طه: ٧٨): أي البعض الذي غشيهم، والمعنى أن الذي أغرق فرعون وقومه بعض ماء البحر لا جميعه . وهذا تأويل الفراء . واعتمده أبو بكر ابن الأنباري .

وقيل: معنى: (ما غشيهم) تعظيم الأمر وتفخيمه، والمعنى: فغشيهم من اليم مالا يدرك لعظمه، ومثله قوله تعالى ﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ ﴾ (الشعراء: ١٩)، ومنه قول أبي النجم:

أنا أبو النجم وشعري شعري   لله دري ما يجن صدري

قال الزمخشري: (ما غشيهم) من باب الاختصار، ومن جوامع الكلم التي تستقل من قلتها بالمعاني الكثيرة، أي غشيهم مالا يعلم كنهه إلا الله .

وقيل: (فغشيهم من) جهة (اليم ما غشيهم) من العطب والهلاك .

ومن بدع التفاسير (فغشيهم) أي فرعون وقومه (من اليم ما غشيهم) أي موسى وقومه . وهو مردود بوجهين:

الأول: تشتيت الضمائر، حيث إن الضمير فى (غشيهم) الأولى يعود على فرعون وقومه وفى (غشيهم) الثانية يعود على موسى وقومه، وتشتيت الضمائر، يورث فى الكلام ضعفا وركاكة .

الثاني: أن البحر لم يغش موسى وقومه، بل انفرق لهم فسلكوا فيه طريقا يبسا . قال تعالى ـ فى الآية قبل هذه ـ ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لا تَخَافُ دَرَكاً وَلا تَخْشَى ﴾ (طه: ٧٧)

قوله تعالى ﴿ وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾ (طه: ١١٤)، كان النبى ﷺ إذ نزل عليه القرآن، وسمعه من جبريل عليه السلام: قرأ معه ما يوحى به إليه أولا فأولا، قبل أنتهاء الوحى، حرصا على ضبطه وحفظه، وخوفا من نسيان بعضه . فأمره الله تعالى فى هذه الآية بانتظار ما يوحى إليه، حتى ينتهى إلى غايته .

وقال له فى آية أخرى ﴿ لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ (القيامة: ١٦-١٩) ،فضمن تعالى تحفيظ القرآن له، وتثبيته فى صدره، وهذا خرج مخرج الاشفاق عليه، والترفيه عنه، كما أشرت إليه فى كتاب (دلالة القرآن المبين على أن النبى أفضل العالمين) .

ومن بدع **التفاسير:** أن المراد نهى النبى ﷺ عن تلاوة القرآن على أمته . وإبلاغ ما يسمعه منه إليهم . قبل أن يوحى إليه ببيانه والإيضاح عن معناه وتأويله، لأن تلاوته على من لا يفهم معناه، لا تحسن ومعنى ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾(طه: ١١٤)، من قبل أن يقضى إليك وحى بيانه وهذا تفسير أعتزالى يخالف سبب النزول، ولا يتلاقى مع سياق الآية ولفظها. وهو ـ مع هذا ـ مردود بقوله تعالى ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾(النحل: ٤٤) .

ومن البدع أيضا: قول المرتضى: غير ممتنع أن يريد: لا تعجل بأن تستدعى من القرآن ما لم يوح إليك به، فإن الله تعالى إذا علم مصلحة فى إنزال القرآن عليك أمر بإنزاله، ولم يدخره عنك . لأنه لا يدخر عن عباده الاطلاع لهم على مصالحهم . قلت: هذا تفسير أعتزالى كسابقه . يخالف نظم الآية وسبب نزولها .

قوله تعالى ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾ (طه: ١٢١). من الغى ضد الرشد . وكان أكله من الشجرة نسيانا، بدليل الآية السابقة ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً ﴾ (طه: ١١٥)، ومن بدع **التفاسير:** قول بعضهم: فغوى فبشم من كثرة الأكل .

قال الزمخشري: وهذا ـ وإن صح على لغة من يقلب الياء المكسور ما قبلها ألفا . فيقول في فني وبقي: فنا وبقا، هم بنوطي ـ تفسير خبيث، قلت لنسبة آدم عليه السلام إلى الشره، وهو دال على الدناءة، والأنبياء معصومون من الدناءة ومن كل خلق ردئ كعصمتهم من المعاصي .

* * * * * * * *

١٩ ـ ومن سورة الأنبياء

قولَه تعالى ﴿ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ (الانبياء:٣٧)، كأنه خلق منه، لفرط أستعجالَه، وقلَه تأنيه كقولك: خلق حاتم من الكرم، جعل ما طبع عليه، كالمطبوع هو منه، ففي الآية أستعارة بالكناية . ويشهد لَهذا لتأويل قولَه تعالى ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولاً ﴾ (الاسراء:١١)، وقال أبو عبيدة وقطرب بن المستنير: إن في الكلام قلبا، والمعنى: خلق العجل من الإنسان . وهو مثل قولَه تعالى ﴿ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ ﴾ (آل عمران:٤٠)، وقولَه تعالى ﴿ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ ﴾ (القصص:٧٦)، أي أن العصبة تنوء بها .

وتقول العرب: عرضت الناقة على الحوض، والأصل: عرضت الحوض على الناقة، وهو كثير في كلامهم، وأختار ابو القاسم البلخي المعتزلي هذا التأويل في تفسيره، وأيده بما ذكر لَه من الشواهد . ثم أورد على نفسه سؤالا، حاصلَه: كيف جاز أن يقول: (فلا تستعجلون) وهو خلق العجلة فيهم !! وأجاب بأنه قد أعطاهم قدرة على مغالبة طباعهم وكفها، وقد يكون الانسان مطبوعا عليها، وهو ذلك مأمور بالتثبيت، قادر على أن يجانب العجلة . وذلك كخلقه في البشر شهوة النكاح، وأمره في كثير من الأوقات بالامتناع منه .

قلت: السؤال والجواب مبنيان على قاعدة المذهب الاعتزالي: أن التكليف لا يتعلق إلا بفعل المكلف المخلوق بقدرته التي خلقها الله فيه ولكن التأويل الذى أختاره، يضعف من جهة أن القلب خلاف الأصل . وإذا كان القصد منه إفادة كثرة وقوع العجل من الإنسان، فالتأويل الأول أفاد هذا المعنى بطريق الاستعارة التي هي أولى من القلب لأنها مجاز قريب، وهو مجاز بعيد .

ومن التفاسير: قول بعضهم العجل الطين بلغة حمير، والمعنى: خلق الإنسان من طين . وروى ثعلب عن ابن الأعرابي قول الشاعر:

والنبع ينبت بين الصخر ضاحية   والنخل ينبت بين الماء والعجل

قال الشريف المرتضى: وقد حكى صاحب كتاب العين عن بعضهم أن العجل الحمأة، ولم يستشهد عليه، لكن البيت الذى رواه ثعلب عن ابن الأعرابى يمكن أن يكون شاهدا له. وذكر البيت السابق. قال: وإذا صح هذا فوجه المطابقة بينه وبين قوله تعالى ﴿ فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ (الانبياء:٣٧)، أن من خلق الإنسان – مع الحكم الظاهرة فيه – من الطين، لا يعجزه أظهار ما أستعجلوه من الآيات، أو يكون المعنى: انه لا يجب لمن خلق الطين المهين أن يهزأ برسل الله وآياته وشرائعه، لأنه قال تعالى ﴿ وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً ﴾ (الانبياء:٣٦)، قلت: فيما أبداه من وجهى المطابقة تكلف. والذى يفيده السياق، ويقتضيه نظم الكلام أن الله وصف الإنسان بكثرة العجلة، توبيخا للمشركين وتقريعا لهم، وهددهم بأنه سيريهم آياته، ونهاهم عن الاستعجال باستدعاء الآيات إبقاء عليهم وإفساحا لهم فى الأمر ليرجعوا حتى إذا جاءت الآيات التى أستعجلوها، هلكوا ولم يبق لهم عذر.

وقيل: المراد بالأنسان آدم عليه السلام، ومعنى (من عجل) أى فى سرعة من خلقه. لأنه لم يخلقه من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة كما خلق غيره. وإنما ابتدأه الله ابتداء، وأنشأه انشاء.

وقال مجاهد: المراد آدم عليه السلام، وأن الله خلقه بعد خلق كل شئ آخر نهار الجمعة، على سرعة، معاجلا به غروب الشمس.

وهذان التفسيران أن من بدع التفاسير أيضا، لأنهما يناسبان سياق الآية ولأنه لا يجوز أن يقال: خلق الله آدم على سرعة معاجلا به غروب الشمس.

لأن معاجلة الشئ مخافة فوته، من صفات المخلوقات. والله تعالى لا يفوته شئ وهو خالق الزمان والمكان.

قوله تعالى ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾ (الانبياء:١٠٤)، هو الجلد الذى يضم الكتاب. والآية تبين عظم قدرة الله تعالى، وأن السماء مع كبرها وسعتها يطويها يوم القيامة ويضمها، كما يضم السجل أوراق الكتاب.

ومن بدع التفاسير: ما حكاه الزمخشرى وتبعه مختصر وكلامه كالبيضاوى والنسفى: أن السجل أسم ملك يكتب صحائف آدم. وقيل: أسم صحابى كان يكتب للنبى ﷺ. وليس فى الملائكة ولا فى الصحابة من أسمه السجل.

قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ (الانبياء:١٠٥)، معنى الآية: أن الله تعالى كتب فى الكتب المنزلة بعد الكتابة فى اللوح المحفوظ:

أن أرض الجنة يرثها عباده الصالحون المتقون، وحكى عنهم قولهم حين دخولها ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لله الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ﴾ (الزمر: ٧٤) .

ومن **بدع التفاسير**: قول بعض المعاصرين: أن الأرض يعنى أرض الدنيا يرثها عبادى الصالحون لعمارتها والفرض بهذا التأويل تأييد الاستعمار الأوربى، والحض على عدم مقاومته، حيث إن القرآن أخبر بأن لهم وراثة أرض الدنيا . وهذا إلحاد فى القرآن، وكذب على الله، وخروج على دينه، وحض على ترك فريضة الجهاد وإنى أبرأ إلى الله من هذا التأويل ومن صاحبه .

* * * * * * *

٢٠ - ومن سورة الحج

قوله تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُول وَلا نَبيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى ﴾ (الحج: ٥٢) إيمان الناس لينجوا من العذاب، ويعظم له عند الله الثواب . بدليل قوله تعالى ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ ﴾ (الشعراء: ٣)، قاتلها غما من أجل ﴿ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِين﴾ (الشعراء: ٣)، تمنى على حقيقته كما تبين ﴿ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي ﴾ (الحج: ٢)، ريق (أمنيته) الشبه والشكوك فى عقول الناس حتى لا يؤمنوا﴿ فَيَنْسَخُ الله مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ﴾ (الحج: ٥٢)، أى يبطله بما يبديه الرسول من المعجزات والدلائل ﴿ ثُمَّ يُحْكِمُ الله آيَاتِهِ ﴾ (الحج: ٥٢)، يثبتها فى قلوب الناس وعقولهم ﴿ وَالله عَلِيمٌ ﴾ (الحج: ٥٢) بما يلقى الشيطان ﴿ حَكِيمٌ ﴾ (الحج: ٥٢). فى تمكينه من ذلك ليختبر عباده . وتفسير الآية بهذا المعنى واضح معقول، يتمشى مع نظم القرآن. ويوافق حال الرسل فى حرصهم على إيمان الناس . وقد ذكره العارف الكبير السيد عبد العزيز الدباغ فى كتاب الإبريز

ومن **بدع التفاسير**: ما ذكره كثير من المفسرين، فقالوا: معنى تمنى قرأ . واستدلوا بقول الشاعر:

تمنى كتاب الله أول ليلة   تمنى داود الزبور على رسل

قالوا: والمعنى: إلا إذا قرأ، وألقى الشيطان فى قراءته ما ليس من الوحى مما يرضاه المرسل إليهم . قالوا: وقد قرأ النبى ﷺ سورة والنجم، بمجلس من قريش. فلما بلغ ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى ﴾ (النجم: ١٩-٢٠) ألقى الشيطان على لسانه

ﷺ، بغير علمه به: تلك الغرانيق العلا، وأن شفاعتهن لترتجى . ففرح المشركون . ولما قرأها على جبريل عليه السلام، قال له: ما أتيتك بهذا، فحزن ﷺ . فأنزل الله هذه الآيات من سورة الحج، يسليه بهن .

فهذه القصة وتسمى قصة الغرانيق - باطلة، وأن قال الحافظ ابن حجر رحمة الله تعالى: لا طريقان صحيحان مرسلان . لأن ما يمس العصمة، ويتصل بصميم العقيدة، لا تقبل فيه المسندات الصحيحة، فضلا عن المراسيل .

وأول نكارة فى تلك القصة: تسلط الشيطان على النبى ﷺ بإلقاء شئ على لسانه وهو لا يعلم . مع أن من هذه البدهيات العقلية عصمة النبى من الشيطان . فكيف تمكن منه فى هذه الحادثة ؟! هل كان نائماً ؟ لنفرض ذلك ! فهو معصوم فى نومه . ولذا كانت رؤيا الأنبياء وحيا يعمل بها فى التشريع، كما فى قصة الذبيح أسماعيل عليه السلام .

ثم كيف خفى عليه الفرق بين القاء الملك والقاء الشيطان ؟! ولئن جاز الاشتباه عليه فى هذه الحادثة، جاز الأشتباه فى غيرها، فترتفع الثقة بالوحى .

ثم كيف خفى تناقض الكلامين ! إذ (الأخرى) صفة ذم، وكلام الشيطان المقحم، مدح، وهل يجوز فى عقل أن يمتزج كلامان متناقضان، على لسان أفصح العرب وأعلمهم بكلام الله تعالى، ثم لا يشعر بتنافيهما !! ثم بعد هذا كله كيف يسلى الله نبيه بأن جميع الرسل تمكن الشيطان أن يلقى على لسانهم ما لم يوح إليهم وما معنى العصمة الواجبة فى حقهم عقلا ؟!

وبعضهم كالحافظ ابن حجر، أراد تقليل نكارات القصة فقال: لم يقل النبى ﷺ ذلك الكلام، ولا ألقى على لسانه . وإنما كان من عادته أن يسكت عند مقطع كل آية حين يقرأ القرآن . فتحين الشيطان سكوته عند (الثالثة الأخرى) فتكلم بتلك الجملة، بقراءة تشبه قراءة النبى ﷺ، وألقاها فى أسماع المشركين، فظنوها قراءة النبى ﷺ، ففرحوا . وهذا وجه قريب، لكن يبطله أمور:

أحدها: أن الشيطان لا يتمثل بالنبى ﷺ فى شئ من أموره، بمعنى أنه لا يقدر على ذلك، ولا يتمكن منه، حفظا لمقام النبوة من الخلط والاشتباه . ولذا صح فى الحديث « من رآنى فى المنام فقد رآنى حقا فإن الشيطان لا يتمثل بى » وفى رواية « فإن الشيطان لا يتكوننى » وهو حديث مخرج فى الصحيحين وغيرهما . مع أن الشيطان قد يظهر لبعض الناس فى اليقظة أو المنام، فيدعى أنه الله . ولا ضرر فى ذلك إذ العقل يقضى بتنزه الله عن

سمات المحدثات . فكذب الشيطان فى دعواه هذه لا يحتاج إلى بيان .

ثانيها: تنافر كلام الله وكلام الشيطان، والمشركون عرب فصحاء، لا يخفى عليهم ذلك .

ثالثها: أن الشيطان لا يفعل ما يؤدى إلى التقارب بين النبى ﷺ وبين المشركين، بل هو يعمل على ضد ذلك، وبالجملة فالقصة منكرة باطلة، كما قال ابن العربى وعياض وغيرهما .

* * * * * * *

٢١ ـ ومن سورة النور

قولـه تعـالى ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ ﴾ (النور:٤٣)، قال أبو الحسن علـى بـن عيسـى الـرمانى فـى تفسيره: معنى من الأولى: ابتداء الغاية، لأن السماء ابتداء الانزال والثانـية للتبعـيض، لأن الـبرد بعض الجبال التى فى السماء، والثالثة لتبيين الجنس، لأن جنس الجـبال جـنس البرد . قلت: ومفعول ينزل، قولَه (من جبال) والتقدير: وينزل من السماء بعض جـبال فـيها مـن بـرد . فلفـظ من أسم بمعنى بعض، مبنى على السكون فى محل نصب مفعول، وهـو مضـاف، وجـبال مضـاف إلـيه . وعـلى هذا مشى الزمخشرى، وهو أوجه وقيل: من الأولى والثانـية للابتداء، والآخرة للتبعيض . والمعنى: ينزل من السماء من جبال فيها بعض برد . حكاه الزمخشرى، ومفعول ينزل، قولَه (من برد) ويقال فى إعرابه: ما مر .

وأخـتار الشـريف المرتضـى: أن مـن الأولى والثانية للابتداء، والأخيرة زائدة . والمعنى ويـنزل مـن السـماء مـن جـبال فيها بردا . فبرد مفعول ينزل، ونصبه مقدر فى آخره منع من ظهوره أشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد .

ويضـعف هـذا الوجـه أن " مـن " تزاد فى النفى لإفادة العموم، نحو ﴿ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَـهٍ ﴾ (المؤمنون:٩١) وزيادتهـا فـى الاثـبات — إن صحت — خالية عن الفائدة ولا يصح تخريج القرآن على وجه لا فائدة فيه .

وقـال أبـو بكر محمد بن الحسن بن مقسم النحوى فى كتاب " الأنوار " أما من الأولى والثانـية، فبمعـنى حد التنزيل، ونسبته إلى الموضع الذى نزل منه . كما يقال: جئتك بكذا، ومـن بلـد كـذا . وأمـا الثالثة فبمعنى التفسير والتمييز، لأن الجبال تكون أنواعا فى ملك الله تعـالى، فجـاءت مـن لتميـيز البرد من غيره، وتفسير معنى الجبال التى أنزل منها وقد يصلح فـى مـثل هـذا الموضـع مـن الكـلام أن يقـال: مـن جبال فيها برد بغير من . يترجم برد عن

خيال، لأنها مخلوقة من برد . كما يقال: الحيوان من لحم ودم . والحيوان لحم ودم، بمن، وبغير من . قلت: حاصل ما ذكره أن من الأولى والثانية للابتداء، والثالثة للتبيين، لكن يضعفه أن الكلام على هذا التقدير، يكون خاليا من مفعول ينزل .

وقوله تعالى ﴿ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ ﴾ (النور: ٤٣)، يحتمل وجهين، ذكرهما الزمخشرى .

أحدهما: أن يخلق الله فى السماء جبال برد، كما خلق فى الأرض جبال حجر

ثانيهما: أن يريد الكثرة بذكر الجبال، كما يقال: فلان يملك جبالا من ذهب . ومن بدع التفاسير: قول أبى مسلم الأصفانى فى تفسيره: الجبال ما جبل الله من برد، وكل جسم شديد مستحجر، فهو من الجبال، ألم تر إلى قوله تعالى فى خلق الأمم ﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴾ (الشعراء: ١٨٤)، والناس يقولون: فلان مجبول على كذا، قلت: هذا التأويل مردود بوجهين، ذكرهما الشريف المرتضى:

أحدهما: خلو الكلام من مفعول ينزل .

ثانيهما: أنه لا يسمى أحد من أهل اللغة كل جسم شديد مستحجر جبلا والجبل مشتق من الجبل - بسكون الباء - وهو الجمع . لأن الجبل مجموع من تراب وحجر وارتفاع . ولا يلزم من ذلك تسمية جسم جمع أشياء جبلا، على أن البرد ماء جمد قلت: معنى الآية على تأويل أبى مسلم: وينزل من السماء من جبال برد فيها، ومن فى الموضعين أبتدائية والثالثة بيانية، فلهذا لزمه خلو الكلام من معمول ينزل .

* * * * * * * *

٢٢ - ومن سورة الشعراء

قوله تعالى ﴿ يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى الله بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ (الشعراء: ٨٨-٨٩)، معنى الآية: أن يوم القيامة لا ينفع الإنسان فيه ماله ولأولاده، ولكن ينفعه أن يأتى الله بقلب سليم من الشرك والمعاصى . وهذا من دعاء إبراهيم عليه السلام، يطلب من الله ألا يخزيه يوم البعث الذى صفته ما ذكر .

قال الزمخشرى: ومن بدع التفاسير: تفسير بعضهم السليم باللديغ من خشية الله

وقول آخر: هو الذى سليم وسلمٌ وأسلم وسالمَ وأستسلم . قلت: أطلاق السليم على اللديغ من باب التفاؤل، كما يقال للبرّية . المهلكة: مفازة، وحمل الآية عليه وعلى المعنى الذى بعده، غير سليم .

* * * * * * * *

٢٣ ـ ومن سورة النمل

قوله تعالى ﴿ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ ﴾ (النمل: ٢٤)، تفيد الآية أن الهدهد حين أخبر سليمان عليه السلام بملكة سبأ . وصف عرشها بأنه عظيم، مع أنه يعرف عرش سليمان . إما لأنه أستعظمه بالنسبة لها وإما لأنه بالغ، ليلفت نظر سليمان عما توعده به .

قال الزمخشرى: ومن نوكى القصّاص: من يقف على قوله: ولها عرش ثم يبتدئ عظيم وجدتها، أى أمر عظيم أن وجدتها وقومها يسجدون للشمس، فر من أستعظام الهدهد عرشها، فوقع فى عظيمة، وهى مسخ كتاب الله، قلت: صدق فيما قال، وتقدم ما يناسبه فى آية الكرسى

قوله تعالى ﴿ وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ (النمل: ٥٤)

قال الزمخشرى: من بعد القلب، أى تعلمون أنها فاحشة لم تسبقوا إليها وعلمكم بذلك أعظم لذنوبكم، وأدخل فى القبح والسماجة .

وفيه دليل على أن القبيح من الله أقبح منه من عباده، لأنه أعلم العالمين وأحكم الحاكمين .

قلت: بئس ما أستنبط وساء ما قال . وهى جرأة قبيحة تعد فى صدر **بدع التفاسير**، نسأل الله العفو والعافية .

وما دعاه إلى هذا الاستنباط القبيح إلا اغراقه فى حب مذهب المعتزلة . وتعصبه الشديد له، كما نبهت عليه فى الخطبة . والله تعالى منزه عن القبيح. ولكن للمعتزلة فى فهم القبيح وتعيين جزئياته، أصطلاح يتمشى مع قواعد مذهبهم التى يحاولون أن يجعلوا آيات القرآن دالة عليها، وناطقة بها .

* * * * * * * *

٢٤ ـ ومن سورة القصص

قولـه تعـالى ﴿ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ ﴾ (القصص: ٣٢)، الرهب: الخوف . والمعنى: إذا أصابك الرهب عند رؤية العصا ثعباناً، فاضمم إليك جناحك .

قال الزمخشرى: ومن بدع التفاسير أن الرهب اليكم بلغة حمير[١]، وأنهم يقولون: أعطنى مما فى رهبك . وليت شعرى كيف صحته فى اللغة ؟ وهل سمع من الأثبات الذين ترتضى عربيتهم ؟ ثم ليت شعرى كيف موقعه فى الآية ؟ وكيف تطبيقه المفصل كسائر كلمات التنزيل ؟ على أن موسى عليه السلام ما كان عليه ليلة المناجاة إلا زرمانقة من صوف لاكمىْ لَها . قلت: الزرمانقة: الجبة . قال أبو عبيد: أراها عبرانية .

قولـه تعالى ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ﴾(القصص: ٦٨) ما المعنى: أن الله يصطفى من خلقه لرسالته من يعلم أنه يصلح لَها، نزل رد القول الوليد ابن المغيرة ﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ (الزخرف: ٣١) وما على هذا نافية، أى ما كان للناس اختيار فيمن يرسلهُ الله إليهم رسولا .

ومن بدع التفاسير: جعل ما: موصولة، والمعنى: أن الله يختار لخلقه الأمر الذى لَهم الخيرة فيه . وهذا ـ مع كونه مخالفا لسبب النزول ـ يلزم عليه حذف العائد المجرور، فى موضع لايجوز حذفه فيه إذ المقرر فى علم العربية أن العائد لايحذف إلا إذا جر بحرف جر الموصول بمثله، مع اتحاد المعنى . نحو (يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون) أى منه .

فالعائد هنا محذوف لو جود شرط حذفه . ولا يجوز: جاءنى الذى مررت به ورأيت الذى رغبت، أى فيه، لعدم توفر الشرط . ويلزم عليه أيضا نصب الخيرة خبرا لكان. واسمهما ضمير عائد على الموصول . ويكون المعنى أن الله يختار لَهم الأمر الذى كان هو الخيرة. لكن لم يقرأ بنصب الخيرة أحد من القراء المشهورين .

ومن البدع أيضا: جعل ما مصدرية، تسبك مع بعدها بمصدر والمعنى: يختار أختيارهم فيه، وهو ظاهر البطلان .

* * * * * * *

---

(١) لكن ذكر أبو عبيد فى الرسالة التى ألفها لبيان ما ورد فى القرآن من لغات قبائل العرب أن الرهب اليكم بلغة حنفية .

٢٥ ـ ومن سورة لقمان

قولـه تعالى ﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللهُ ﴾ (لقمان: ١٦)، معنى الآية: أن الخصلة من الإساءة أو الإحسان إن كانت في الصغر كحبة الخردل، وكانت مع شدة صغرها فى أخفى مكان، كجوف صخرة، أو حيث كانت فى العالم العلوى أو السفلى فإن الله يأتى بها يوم القيامة، فيحاسب عاملها، لا يخفى عليه مكانها.

فالصخرة ذكرت مثالا لأخفى مكان تختفى فيه السيئة الصغيرة أو الحسنة الصغيرة.

ومن **بدع التفاسير**: أن المراد: الصخرة التى تحت الأرضين السبع. وخضرة السماء منها، وأن الأرض خلقت على حوت، والحوت فى الماء على ظهر صفاة، والصفاة على ظهر ثور، وهو على الصخرة، وهى التى ذكرها لقمان. وهذا من الاسرائيليات التى يكفى فى ردها حكايتها.

ومن بابته: ما رواه الطبرى من طريق أبى وائل، قال: جاء رجل إلى عبد الله ابن مسعود ﷺ، فقال: من أين جئت؟ قال: من الشام. قال: من لقيت به؟ قال: كعبا. قال: وما سمعته يقول؟ قال: سمعته يقول: أن السموات على منكب ملك. قال: كذب كعب. ثم قرأ ﴿ إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا ﴾ (فاطر: ٤١). قلت: هذه الآية دليل على أن السموات والأرض واقعتان فى الفضاء ليس يسندهما إلا قدرة الله تعالى.

٢٦ ـ ومن سورة الأحزاب

قولـه تعالى ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَمْ تَطَأُوهَا ﴾ (الأحزاب ٢٧). يخاطب الله المسلمين بأنه أورثهم أرض بنى قريظة وأموالهم وديارهم.

وأختلف فى قولـه ﴿ وَأَرْضاً لَمْ تَطَأُوهَا ﴾ فقيل: خيبر، وقيل: فارس والروم. وقيل مكة. وقيل: ما فتح على المسلمين من البلاد والأقطار فيما بعد.

قال الزمخشرى: ومن **بدع التفاسير**: أنه أراد نساءهم. قلت: هذا تأويل بعث عليه الشبق! وأنتقل ذهن صاحبه من وطء الأرض إلى وطء الفرج.

* * * * * * *

٢٧ ـ ومن سورة فاطر

قولـه تعـالى ﴿ ثُـمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ ﴾ (فاطر:٣٢)، القرآن . حكمنا بتوريثه منك ﴿ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ (فاطر:٣٢)، يعنى علماء الأمة من الصحابة ومن بعدهم من الأئمة، أو الأمـة جميعهم . لأن الله اصطفاهم عـلى جميع الأمم، ولأنه ﷺ " تركت فيكم ثقلين كتاب الله وسنتى"[١] ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ﴾(فاطر:٣٢)، بالتقصير فى العمل به ﴿ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ ﴾ (فاطر:٣٢)، يعمـل بـه أغلـب أحوالـه ﴿ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ (فاطر:٣٢)، بضم التعليم والارشاد إلى العمل .

وقـيل: الظـالم المجـرم، والمتصـد الـذى خلـط صـالحا بسـئ، والسابق الذى رجحت حسناته على سيئاته ﴿ ذَلِكَ ﴾ (فاطر:٣٢) التوريث أو الاصطفاء أو السبق، والأول أقرب، لأنه محـط الكـلام ﴿ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ (فاطر:٣٢) هو ضمير فصل وما بعده خبر ذلك .ختمت الآيـة بهـذه الجملـة، بيانا لما فى إيراث القرآن من ميزة وفضل ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾ (فاطر:٣٣) مبتدأ وخبر، والضمير يعود على الثلاثة: الظالم والمقتصد والسابق

هـذا التفسـير هـو الذى يقتضيه ظاهر الآية، وتؤيده الأدلة . وروى البيهقى فى شعب الإيمـان مـن طـريق ميمون بن سياه عن عمر ﷺ مرفوعا " سابقنا سابق ومقتصدنا ناج وظالمنا مغفورلَـه " ورواه الثعلـبى وابـن مـردويه مـن طـريق آخـر عن ميمون بن سياه عن أبي عثمان الهندى عن عمر أيضاً، وسنده ضعيف[٢] .

ورواه سـعيد بـن منصـور عن فرج بن فضالة عن أزهر بن عبد الله الحرازى عمن سمع عمر يقول فذكره موقوفا؛ وهو حكم المرفوع .

وأبدى بعضهم تأويلات، هى فى الواقع من بدع التفاسير، ونحن نذكرها مع بيان ما فيها:

١ ـ قـال المرتضـى ـ وهـو شيعى إمامي ـ: أن المورّثين الكتاب هم الأئمة من ولد النبى ﷺ، لأنهم المتعبدون بحفظه وبيانه والعمل بأحكامه .

قلـت: هـذا تخصـيص للآيـة من غير دليل . بل الدليل يقتضى نقيض هذه الدعوى، لأن العمـل بأحكـام القـرآن تعبد الله به جميع الأمة، كما أنه قام بحفظه وبيانه علماء أجلاء

---

(١) لهـذا الحديـث طـرق تبلغ حد الاستفاضة. وفى بعض طرقه " وعترتى " بدل " وسنتى " وهى صحيحة أيضا . وحاصل هذه الروايات الصحيحة ضمان الهداية فى العمل بالكتاب والسنة وفى حب العترة النبوية .

(٢) وحسنه السيوطى بالنظر لمجموع طرقه. فهو من قبيل الحسن لغيره .

من الصحابة والتابعين وغيرهم ممن لا يحصيهم العد . وللشيعة فى شأن أهل البيت عليهم السلام، دعاوى تشتمل على غلو وإسراف .

ثم جعل الضمير فى ﴿ فَمِنْهُمْ ﴾ يعود على ﴿ عِبَادِنَا ﴾ لا على ﴿ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا ﴾ (فاطر:٣٢) وأورد على نفسه سؤالا، وهو: أى فائدة فى وصف العباد بهذه القسمة ؟ وكيف عدل عن وصف الذين اصطفاهم وورثهم الكتاب ؟ وأجاب بأنه تعالى لما علق توريث الكتاب بمن اصطفاهم من عباده، أراد أن يبين وجه الاختصاص . وإنما علق وراثة الكتاب ببعض العباد دون بعض، لأن فى العباد من هو ظالم لنفسه، ومن هو مقتصد، ومن هو سابق بالخيرات، فوجه المطابقة بين الكلام واضح، قلت: لا وضوح ولا مطابقة . بل الذى يقتضيه السياق، ويقيده دخول فاء التفريع على منهم: أن يكون التقسيم تفريعا على الذين اصطفوا، بهذا ينسجم الكلام، ويتحد سياقه ولا ينافى اصطفاءهم وجود ظالم لنفسه فيهم . لأن المراد أن الله أصطفاهم واختارهم لتوحيده، وإقامة دينه لأن أهل الكتاب تركوا دينهم . واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله . فاختار الله هذه الأمة المحمدية لحمل القرآن، والعمل به . وأخبر سبحانه أن فيهم من هو ظالم لنفسه بما دون الشرك الذى وقع فيه أهل الكتاب قبلهم .

وفى المسند وغيره عن أبى بصرة الغفارى عن النبى ﷺ " سألت ربى أن لا تجتمع أمتى على ضلالة فأعطانيها " وله طرق كثيرة بينتها فى تخريج أحاديث منهاج البيضاوى وهو من أدلة حجية الاجماع، وعدم أجتماعهم على ضلالة من أدلة أصطفائهم للتوحيد وإقامة الدين الحق، وأن الله حماهم من أن يجتمعوا على ضلالة، كما أجتمع عليها اليهود والنصارى أما جعل التقسيم للعباد، فيرده مخالفته للسياق، وعدم الارتباط بين التقسيم والاصطفاء، لأن الأقسام الثلاثة موجودة فى العباد، سواء أحصل الاصطفاء أم لا ؟ ولأن السابق بالخيرات أن كان من المصطفين فلمَ ذكر فى غيرهم ؟ وإن لم يكن منهم، فكيف يعقل أن يكون سابق بالخيرات غير مصطفى ؟ .

٢ ـ ذكر أبو على الجبائى فى تفسيره أن المراد بالذين أصطفينا: الأنبياء عليهم السلام، والظالم لنفسه من ارتكب الصغيرة منهم، وإنما وصف بذلك من حيث فوت نفسه الثواب الذى زال عنه بارتكاب الصغيرة ويؤدى سائر الواجبات . والسابق إلى الخير. هو الذى استكثر من فعل النوافل .

قال المرتضى: وهذا التأويل يفسر من جهة أن الدليل قد دل على أن الأنبياء عليهم السلام.

لا يقع منهم شئ من المعاصى والقبائح، ولو عدلنا عن ذلك لم يجز ما قالَه، لأن قولنا: فلان ظالم لنفسه، من أوصاف الذم والذم لا يستحقه فاعل الصغيرة فكيف تجرى عليه أوصاف الذم ؟

٣ - ذكر بعضهم: ﴿ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا ﴾ (فاطر:٣٢) هم الأنبياء أيضاً . وتأول ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ﴾ (فاطر:٣٢) على أن المراد: أجهد نفسه فى العبادة وحمل عليها . وهذا يليق بأوصاف الأنبياء ولا تمنع النبوة منه .

ورده المرتضى أيضا بأن لفظة " ظالم لنفسه " يذم بها، فكيف تجرى على المدح ؟ وبأن السابق إلى الخيرات هو المجتهد فى العبادة، الحامل على نفسه فيها، فأى معنى للتكرار ؟ وبأن هذا التأويل يفسر التقسيم .

٤ - قال أبو القاسم البلخي المعتزلى فى تفسيره: أنه تعالى أراد العقلاء البالغين ويجوز أن يكونوا عند الاصطفاء أخياراً أتقياء، ثم ظلم بعضهم نفسه . فيكون كما قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ ﴾ (المائدة: ٥٤) وهو فى وقت الارتداء غير مؤمن كذلك يكون فى حال ظلمه نفسه ليس من المصطفين . ويجوز أيضاً أن يكون فيهم من ظلم نفسه ثم تاب وأصلح . ويكون قولَه ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ﴾ (فاطر:٣٢) أى منهم من كان قد ظلم نفسه، ليس أنه فى هذا الوقت ظالم لَها .

قال المرتضى: هذا فاسد، لأن من كان منهم ظالما فاعلا للقبيح لا يوصفون على الاطلاق بأن الله تعالى أصطفاهم، فهذا الوصف يقتضى أن تكون الجماعة أخياراً .

وقولَه تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ ﴾ (المائدة: ٥٤) بخلاف هذا. لأن وصفهم بأنهم آمنوا فى الماضى لا يمنع من الردة فى المستقبل، وقولَه تعالى ﴿ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا ﴾ (فاطر:٣٢) يمنع أن يكون فيهم من ليست هذه صفته . وأما حمل ذلك على من ظلم ثم تاب، فهو غير صحيح، لأن من تاب لا يوصف بعد التوبة بأنه ظالم لنفسه، لأن التوبة تمنع من اجراء ألفاظ الذم .

قلت: بينا معنى الاصطفاء بما لا يتنافى مع قولَه ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ﴾(فاطر:٣٢) وهو بيان مؤيد بالدليل كما مر .

٥ - قال الزمخشرى: فإن قلت: فكيف جعلت ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ ﴾ (فاطر:٣٣) بدلا من الفضل الكبير الذى هو السبق بالخيرات المشار إليه ؟

قلت: لما كان في نيل الثواب، نزل منزلة السبب كأنه هو الثواب، فأبدلت عنه جنات عدن وفي أختصاص السابقين ـ بعد التقسيم ـ بذكر ثوابهم، والسكوت عن الأخرين، ما فيه من وجوب الحذر، فليحذر المقتصد، وليملك الظالم لنفسه حذرا، وعليهما بالتوبة النصوح المخلصة من عذاب الله، ولا يفترا بما رواه عمر ﷺ عن رسول الله ﷺ (سابقنا سابق ومقتصدنا ناج وظالمنا مغفور له) فإن شرط ذلك صحة التوبة. لقوله تعالى ﴿ عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾(التوبة: ١٠٢) .

وقوله ﴿ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ﴾(التوبة: ١٠٦) ولقد نطق القرآن بذلك في مواضع، من أستقرأها أطلع على خقيقة الأمر، ولم يعلل نفسه بالخدع. **قلت:** تمحل بجعل ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ ﴾(فاطر: ٣٣) بدلا من الفضل الكبير، وجعل الإشارة بذلك قاصدة على السبق بالخيرات لتفيدً مذهبه الاعتزالي: أن الظالم لنفسه والمقتصد لا يدخلان الجنة لكن يبطل تأويله أن جنات عدن ليست هي الفضل الكبير إلا بتجوز لا ضرورة تقتضيه، ولا حاجة إليه، وذلك، لكونه أسم إشارة للبعيد، مشار به إلى توريث الكتاب، وجنات عدن يدخلونها جملة استئنافية ذكرت لبيان جزاء المصطفين، وضمير الجمع دليل على ذلك. وعوده للسابق بالخيرات ـ كما زعم الزمخشري ـ نظراً إلى أن سابقا في معنى سابقين، تكلفه ظاهر، ولا داعي لارتكاب مثل هذا التكلف في اعراب الآية إلا الحرص على موافقة المذهب، ثم يلزم على قصد الإشارة في (ذلك) على السبق بالخيرات ـ خلو الكلام من الإشارة إلى ما في توريث الكتاب من الفضل، مع أنه مقصد الكلام، ومحط الفائدة.

* * * * *

٢٨ ـ ومن سورة يس

قوله تعالى ﴿ لِتُنْذِرَ قَوْماً ﴾ هم العرب ﴿ مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ ﴾ الأولون الذين كانوا في زمن الفترة ﴿ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾(يس: ٦) عن معرفة الله وعبادته فما نافية، وهي مثل ما في قوله تعالى ﴿ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ ﴾(القصص: ٤٦) . ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ ﴾(سبأ: ٤٤) .

ومن **بدع التفاسير**: جعل (مَا) موصولة، وهي مفعول ثان لتنذر، والمعنى: لتنذر قوما الانذار الذي أنذر به آباؤهم وفيه تكلف، بحذف الموصوف، وحذف العائد المجرور في مكان لا يجوز فيه حذفه، وقد نبهنا عليه في سورة القصص.

أو: جعلها مصدرية. والمعنى: لتنذر قوما إنذار آبائهم. وهو لا يلتئم مع سياق الآية

إلا بتكلف لا داعى إليه، على أن العرب لم يأتهم نذير من عهد إسماعيل ﷺ، وقيل: ما نافية، لكن المعنى: لتنذر قوما أنت منهم، ما أنذر آباءهم من هو منهم، وهذا فى غاية البعد .

وقال المرتضى: يمكن فى " ما " وجه آخر، وهو: أن يراد بها التنكير كأنه قال (لتنذر قوما ما) وتقف، ثم نبتدىء فتقول ﴿ أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ (يس:٦) كما يقول القائل: أكلت طعاما ما . ولقيت جماعة ما، يكون الغرض التنكير والإجمال . قلت: هذا التأويل أشد بعدا مما قبله . وحمل الآية عليه يوجب ركة يتنزه عنها القرآن، ثم لا يجوز الوقف على: (ما) .

* * * * * * * *

٢٩ - ومن سورة ص

قوله تعالى ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ ﴾(ص:٢١) خبرهم ﴿ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴾(ص:٢١) محراب داود ﷺ، وهو مسجده الذى أعده للصلاة فى بيته . وكان قد رتب أيام الأسبوع، فجعل يوما للقضاء بين الناس، ويوما لأهله، ويوما ينظر فى شئون معايشه، لأنه كان يأكل من عمل يده، كما جاء فى الحديث الصحيح[1] وجاء هؤلاء الخصوم فى العبادة، فمنعهم الحرس من الدخول، وهم مستعجلون يريدون الفصل فى قضيتهم . فتسوروا المحراب ﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ﴾ (ص:٢٢) حيث نزلوا من جهة السقف، ظن أنهم يريدون به شرا، إذ الملك لا يخلو فى العادة ممن يقصده بشر من رعاياه ﴿ قَالُوا لا تَخَفْ ﴾ (ص:٢٢) لا نقصدك بشر . نحن ﴿ خَصْمَانِ ﴾(ص:٢٢) فريقان، أو شخصان، كانت بيننا مشاركة فى نعاج، ،احتلفنا فيها بحيث ﴿ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ ﴾ (ص:٢٢) لا تجر، وهذا تعبير فيه جفاء لا يليق بمقام النبوة، وهو يدل على ما كان يتمتع به الشعب الاسرائيلى فى حكم داود من حرية فى التعبير ﴿ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴾ (ص:٢٢) أرشدنا إلى وسط الطريق الصواب . فاطمأن وسألهم عن قضيتهم، فقال أحدهم ﴿ إِنَّ هَذَا أَخِي ﴾ (ص:٢٣) أى اسرائيلى مثلى ﴿ لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً ﴾ (ص:٢٣) حقيقة، لا كناية عن النساء كما قيل ﴿ وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا ﴾ (ص:٢٣) أجعلنى كافلها بأن أضمها إلى نعاجى ﴿ وَعَزَّنِي ﴾ (ص:٢٣) غلبنى ﴿ فِي الْخِطَابِ ﴾ (ص:

(١) فى صحيح البخارى عن المقدام بن معد يكرب عن النبى ﷺ قال " ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده وإن نبى الله داود عليه الصلاة والسلام كان يأكل من عمل يده " وكان عمله صنعة الدروع التى تلبس فى الحراب . قال تعالى ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ ﴾ (الانبياء: ٨٠)

٢٣) أى الجدال . بقوة منطقه ﴿ قَالَ ﴾ (ص: ٢٤) داود مصدرا الحكمة بعد موافقة الخصم واعترافه، أو ثبوت الحجة عليه ﴿ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ ﴾ (ص: ٢٤) ليضمها ﴿ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ ﴾ (ص: ٢٤) الشركاء ﴿ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ (ص: ٢٤) فلا يبغون، والبغى المظلم ﴿ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ ﴾ (ص: ٢٤) فالتأكيد القلة ﴿ وَظَنَّ ﴾ (ص: ٢٤) أيقن ﴿ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ ﴾ (ص: ٢٤) أبتليناه بالفزع الذى جعل منه حين تسور الخصوم عليه المحراب . وما كان ينبغى له الفزع من المخلوق وهو فى حضرة الخالق وعبادته ﴿ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ ﴾(ص: ٢٤)من فزعه الذى لا يليق به ﴿ وَخَرَّ رَاكِعاً ﴾ (ص: ٢٤) ساجدا ﴿ وَأَنَابَ ﴾(ص: ٢٤) رجع إلى الله تعالى .

فتبين من سياق القصة أنه كانت خصومة بين شركاء فى نعاج حقيقة، وأنه لم يحصل من داود ـ قبلها ـ ما يستوجب لومه أو عتابه . وكل ما حصل منه خوفه من الخصوم الذين تسوروا عليه المحراب، والخوف غريزة بشرية، فقد قال موسى وهرون من قبله ـ وهما أفضل ـ ﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى ﴾(طه: ٤٥) وما من رسول إلا وقد خاف إذاية قومه، غير أنه أعتبر فزعه من المخلوق وهو بين يدى الخالق. لا يليق بمنصبه الكريم، وعده ابتلاء وأمتحانا، فاستغفر الله منه .

ومن التفاسير: ما ذكره كثير من المفسرين أنه نظر من طاق فى بيته فرأى امرأة عريانة تغتسل فأعجبته، فسأل عنها ؟ فقيل له: إنها امرأة شخص يقال له: أوريا . فبعثه إلى حرب، وأمر بأن يحمل التابوت ـ وكان حامل التابوت لا يحل له أن يرجع حتى ينتصر الجيش أو يقتل هو ـ فانتصر الجيش وعاد أوريا .

فبعثه مرة ثانية وثالثة، فقتل . فتزوج امرأته، وكان له تسع وتسعون امرأة. وقيل: بل كانت خطيبة أوريا، فبعث داود يخطبها ـ ولم يعلم بخطبتها فآثره أهلها على خطيبها الأول، فزوجوها له، وهى أم سليمان، فبعث الله إليه ملكين فى صورة رجلين يختصمان فى نعاج، كنيا بها عن الزوجات، فلما قضى، صعدا إلى السماء وهما يقولان: قضى الرجل على نفسه، فأدرك، خطأه وتاب . وهذه القصة مأخوذة عن الاسرائيليات وفيها مساس بمقام النبوة، وخدش للعصمة الواجبة للأنبياء .

وقال بعضهم فى خطأ داود: إنه قضى للخصم قبل أن يسمع كلام خصمه. وبعد الحكم أدرك خطأه وتاب . وهذا أيضاً باطل، لأن من البدهيات فى القضاء: ألا يحكم

القاضـى إلا بعد سماع الخصميين وإبداء حججهما، والموازنة بينهما . فكيف يخفى هذا على نبى آتاه الله الملك والحكمة وفصل الخطاب ؟ .

(تنبيه) قولـه تعـالى عقب هـذه القصـة ﴿ يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ﴾(ص:٢٦) يدل على أن الله رضى حكمه فى القضية، وأنه وفق إلى إصابة الصواب . ولهذا قال: احكم بالحق أى دم على الحكم بالحق .

أمـا قولـه تعـالى ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ﴾ (ص:٢٦) فلا يدل على أن داود اتـبع الهـوى أبـداً، وإنمـا المـراد به الأمر بمداومة اجتناب الهوى أى دم على أجتناب الهـوى فـى أحكامك . لما تقرر فى الأصول: أن النهى عن الشئ يستلزم الأمر بضده . ونظير هـذا قولـه تعـالى ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾(القصص:٨٧) فإن معناه: دم على توحيدك، وأجتناب الشرك . لأن النبى معصوم من الشرك ومن المعاصى .

قولـه تعـالى ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ ﴾(ص:٣٤) ثبت فى الحديث الصحيح المخرج فى الصحيحين عن أبى هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ " قـال سـليمان: لأطوفـن الليلة على مائة امرأة كلهن يأتى بفارس يجاهد فى سبيل الله تعالى، فقـال لـه صـاحبه: قل إن شاء الله فلم يقل - نسيانا أو عرضت له مسألة شغلته، أو رأى أن منيـته خـير سـيحققها الله ولـو لم ينطق بالشيئة - فطاف عليهن جميعا فلم تحمل منهن إلا امرأة واحدة جاءت بشق . وأيم الله الذى نفسى بيده لو قال: أن شاء الله لجاهدوا فى سبيل الله فرسـانا أجمعـون " قـال العـلماء والشـق الجسـد الـذى ألقى على كرسيه، وفتنته نسيان المشـيئة، فامـتحن بهـذا وتـاب . وحصـل نظير هذا للنبى ﷺ، فقد سأله أهل مكة عن قصة أهـل الكهـف، فقـال " أجيبكم غدا " ولم يقل: إن شاء الله: فأبطأ عنه الوحى خمسة عشر يومـا، ثم نزل قوله تعالى ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً ۝ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ ﴾(الكهف: ٢٣-٢٤) والحكمة فى هذا أن الله تعالى يحب من عباده أن يردوا المشيئة إليه فى كل أمورهم، فـإذا غفلـوا نـبهم بمـثل ما هنا[1] بل هو نفسه ﷺ ذكر المشيئةفى فعله إرشاداً لعباده وتعليما

---

(١) وحصـل لنا مـثل هـذا أيضـاً .. فقـد كنـت أدرس المقدمـة الآجرومـية لشـقيقى السيد محمد الزمزمى - ونحن بالمركـب فى طريقنا إلى مصر - وبعد أربعة أيام مضت على قيامنا من جبل طارق قرأنا فى النشرة التى يصدرها قـائد الـباخرة أنـنا سنصـل إلى الأسـكندرية فـى الخامسـة مـن صـباح الـيوم الـتالى . وحـين جلسنا إلى درس الآجرومـية بعد صلاة العصر كالمعتاد - وكنا وصلنا إلى ظرف الزمان وظرف المكان - فقلت لشقيقى المذكور ممثلا لظـرف الـزمان: نصـل غـدا إلى الاسكندرية فقال لى شقيقنا الحافظ أبو الفيض رحمه الله: قل . أن شاء الله . فقلت مداعبا: علام أقولها؟ المسافة قربت، وشبح الأسكندرية لاح على بعد . وفى منتصف الليل هاج البحر، وعلـت أمواجه حتى كانت الموجة تلف الباخرة لفا، وهى تميل وتتأرجح كالقشرة . ونحن لا نملك أنفسنا من

لهم فقال تعالى ﴿ لَقَدْ صَدَقَ الله رَسُولَه الرُّؤْيا بالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إنْ شَاءَ الله آمِنِينَ ﴾(الفتح: ٢٧) وليس لأحد أن يقول كيف يكون سليمان متزوجا بمائة امرأة ؟ وكيف يستطيع الطواف عليهن فى ليلة ؟ لأنا نقول: ليس بممتنع أن يخص الله تعالى رسوله سليمان بجواز الزواج بمائة امرأة وأكثر، كما خص أباه داود بذلك من قبل، وكما أباح لرسوله محمد ﷺ التزوج بأكثر من أربع نسوة خصوصية له . وأما الطواف عليهن فى ليلة، فيحتمل أن يكون الله أقدره عليه، آية له أو ليبين له أن ما تمناه من ولادة فرسان مجاهدين، لا يكون عن مجرد الإطاقة بنسائه ان لم يشأ الله . ويحتمل أن الجن المسخرين له، استنبطوا له أدوية وعقاقير للتقوية، كما استنبطوا له النورة لإزالة الشعر، حين أراد أن يتزوج بملكة سبأ، ووجد فى رجليها شعرا كثيرا .

ومن **بدع التفاسير**: ما ذكره كثير من المفسرين أيضاً: (أن سليمان تزوج امرأة أحبها وكانت تعبد الصنم فى بيته بغير علمه . وكان ملكه فى خاتمه، فنزعه عند إرادة الخلاء، ووضعه عند امرأته المسماة بالأمينة فجاءها جنى فى صورته، وأخذه منها . وقعد على كرسيه وعكفت عليه الطير وغيرها وجاء سليمان فى غير هيئته، وقال: أنا سليمان، فأنكره الناس . ثم توصل إلى الخاتم ـ لعله وجده فى بطن سمكة ـ فرجع إليه ملكه) .

وهذه القصة رواها النسائى فى التفسير من طريق المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، وهذا إسناد قوى كما قال الحافظ، لكن ابن عباس تلقاها عن كعب، فهى من الإسرائيليات، وبطلانها يظهر بوجوه .

احدها : أن الجنى لا يسمى جسداً، لأنه كان حياً، والجسد الذى يلقى، لايكون إلا ميتاً.

ثانيها: أن الجنى لا يمكن أن يتصور فى صورة نبى، ولا يقدر على ذلك، لما يترتب عليه من المفاسد .

ثالثها: لو جاز للجنى أن يأتى امرأة سليمان فى صورته، ويأخذ منها خاتم ملكه، لجاز أن يزنى بها وبغيرها من نسائه، وذلك يبطله العقل والنقل أيضا .

دوار البحر وكانت أمامنا باخرة بعثت إشارة إلى الاسكندرية تستغيث، لكنها غرقت قبل وصول النجدة، ثم لطف الله ووصلنا إلى الأسكندرية فى الساعة الثانية عشر ظهرا بعد أن رأينا الموت عيانا، وأخبرنا قائد الباخرة أنه قضى فى البحر خمسا وثلاثين سنة لم ير فيها عاصفة مثل هذه فى شدتها ومفاجأتها، فتأكدنا أنها تأديب من الله تعالى لنا .

رابعها: أن الخاتم - لو سلم أنه خاتم الملك، يذهب بذهابه - فلا يجوز أن يكون خاتم هيئته أيضاً بحيث حين ذهب منه أنكره الناس، وحين رجع إليه عرفوه

خامسها: أن هذه القصة - مع كونها كذبا غير محبوك - خالية من العبرة[1] والله تعالى يقول ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾(يوسف:١١١) قوله تعالى ﴿ حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾ (ص:٣٢) أى حتى غابت الشمس، وأختفت بما يحجبها عن الأنظار .

" **تنبيه** " كان المعرى إذا ذكر الشعراء، يقول: قال أبو نواس، قال البحترى، قال أبو تمام . فإذا ذكر المتنبى، يقول: قال الشاعر، وذلك لاعجابه به . فقيل له يوما: لقد أسرفت فى وصفك المتنبى، أليس هو القائل:

بليت بَلى الأطلال إن لم أقف بها وقوف شحيح ضاع فى الترب خاتمه

كم قدر ما يقف الشحيح على الخاتم ؟ قال: أربعين يوما، فقيل له: ومن أين علمت ذلك؟ فقال: سليمان بن داود عليهما السلام، وقف على طلب الخاتم أربعين يوما فقيل له: ومن أين تعلم أنه بخيل ؟ قال: من قوله تعالى ﴿ وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي ﴾ (ص:٣٥) وما عليه أن يهب الله لعباده أضعاف ملكه ؟ قلت: قرأت هذا فى كتب الأدب التى كتبت عن المتنبى، وهو يشتمل على خطأين:

أحدهما: أن سليمان عليه السلام وقف على طلب الخاتم أربعين يوما . وهذا مبنى على الخرافة الإسرائيلية التى مربيان بطلانها .

ثانيهما: نسبة سليمان عليه السلام إلى الشح، وهى جراءة قبيحة، وإزراء بمقام نبى كريم، وجهل بحكمه طلبه، كما جهلها الحجاج بن يوسف الثقفى، فسماه حاسدا . وقد برأ الله نبيه سليمان مما زعم الزاعمون، وكان عنده وجيها، فهو طلب الملك الذى لا ينبغى لأحد من بعده، ليكون معجزته على رسالته . كما كانت العصا معجزة موسى عليه السلام، والمعجزة لابد أن تكون خاصة بالنبى لا ينالها غيره وإلا بطل الاعجاز . وبطلت النبوة، وإنما طلب خصوص الملك معجزة، لأنه عليه السلام كان رسولا إلى اليهود، وهم عبيد المال. وخدام الدنيا، يبهرهم بريق الذهب ويخضعهم هيبة السلطان وأبهة الملك . تمردوا على الله، وقتلوا أنبياءه، فلا

(١) قد يقال: العبرة فيها مؤاخذة سليمان بعبادة الصنم فى بيته وإن كانت بغير علمه، لأنه كان يمكنه منعها لو استعمل التشدد والرقابة فى بيته على نسائه، وهذا غير صحيح . لأنه كان مباحا للرسل تزوج المشركات، وقد كانت امرأتا نوح ولوط عليهما السلام مشركتين، فلم يكن الله ليؤاخذ سليمان بكفر امرأته وقد أباح له التزوج بها .

ينجع فيهم إلا مثل ملك سليمان معجزة . والدليل على ما نقول أمران:

الأول: أن الله سخر له الجن والشياطين والريح، وعلمه منطق الوحوش وسخرها له . وهذا لا يتأتى إلا أن يكون معجزة .

الثاني: أن الله تعالى أعطاه ما طلب وقال له ﴿ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ (ص: ٣٩-٤٠) ولو كان سليمان شحيحا لم يقل الله هذا فى حقه، ولا قال عنه ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ (ص: ٣٠) وكيف يمدح شحيحا وهو الذى قال ﴿ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (الحشر: ٩) وسمى البخل فحشاء فى قوله تعالى ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ ﴾ (البقرة: ٢٦٨) وذم البخلاء فى غير آية من الكتاب الكريم .

ومن بدع التفاسير ـ كما قال الزمخشرى ـ: أن الحجاب جبل دون قاف بمسيرة سنة تغرب الشمس من ورائه .

قلت: حكاه الصاوى فى حاشية تفسير الجلالين ولم يتعقبه، وهو واضح البطلان

قوله تعالى ﴿ رُدُّوهَا عَلَيَّ ﴾ (ص: ٣٣) الضمير يعود على الصافنات، والمعنى: أن سليمان أمر أتباعه برد الخيل عليه، ليمسحها ويختبر عيوبها .

" **لطيفة** " روى إبراهيم الحربى فى غريب الحديث من طريق مغيرة عن الشعبى، قال: كان رهان، فقال رجل لبلال ﷺ: من سبق قال: رسول الله ﷺ . قال: فمن صلى ؟ قال: أبو بكر قال: إنما أعنى فى الخيل، قال: وأنا أعنى فى الخير . قلت: يقال للفرس السابق: مجلِّى، وللذى يليه مصلى، وصلى الفرس إذا تاليا للسابق، وحقيقة الكلمة: أن رأسه عند صلاة، وهو مغرز ذنبه، أى رأس المصلى عند مغرز ذنب المجلى .

ومن بدع التفاسير: ما حكاه الصاوى فى حاشية الجلالين، وعبارته:

وقيل: الضمير فى قوله ﴿ رُدُّوهَا ﴾ عائد على الشمس، والخطاب للملائكة الموكلين بها، فردوها ؛ فصلى العصر فى وقته .

قلت: لم يكن سليمان عليه السلام ملكا فى السماء، ولم تكن له سلطة على الملائكة يأمرهم برد الشمس فيردوها، وهى لم ترد على أحد قبله منذ خلق الله الدنيا. ثم لو صح هذا

التفسير، لوجب أن يكون نظم الآية: ردوها على فصلى، لكن نظمها الحالى يؤكد أن المردود عليه: الخيل التى طفق يمسح سوقها وأعناقها .

نعم ثبت فى الصحيح عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أن نبى الله يوشع حينما ذهب لقتال الجبارين، وكان فى يوم الجمعة، وخاف أن تغرب الشمس قبل الفراغ من قتالهم؛ فدعا الله، فحبسها عليه ساعة من النهار .

وفى أوسط معاجم الطبرانى باسناد حسن عن جابر بن عبد الله: أن رسول الله ﷺ أمر الشمس فتأخرت ساعة من نهار .

وسبب ذلك: ما جاء فى مغازى ابن اسحق: لما أسرى برسول الله ﷺ وأخبر قومه بالرفقة والعلامة التى فى العير . قالوا: متى تجئ ؟ قال " يوم الأربعاء " فلما كان ذلك اليوم، أشرفت قريش ينظرون، وقد ولى النهار ولم تجئ . فدعا ﷺ، فزيد له فى النهار ساعة وحبست عليه الشمس .

وروى الطبرانى فى الكبير والحاكم فى المستدرك والبيهقى فى الدلائل عن أسماء بنت عميس أنه ﷺ وعاكا نام على ركبة على، ففاتته صلاة العصر، فردت الشمس حتى صلى على، ثم غربت، صححه الطحاوى وعياض وغيرهما[1] وانظر هذا البحث فى كتابنا " الأحاديث المنتقاة فى فضائل سيدنا رسول الله " .

وللحافظ الحسكانى مجلس أملاء على حديث رد الشمس، ذكره الذهبى فى تذكرة الحفاظ . قال الزرقانى فى شرح المواهب: ومن لطائف الاتفاقات الحسنة: أن أبا المظفر الواعظ ذكر يوما قرب الغروب فضائل على ﷺ ورد الشمس له، والسماء مغيمة غيما مطبقا . فظنوا أنها غربت وهموا بالانصراف، فأصبحت السماء، ولاحت الشمس صافية الإشراق . فأشار إليهم بالجلوس، وقال أرتجالا:

لا تغربى يا شمس حتى ينتهى	مدحى لآل المصطفى ولنجله
واثنى عنانك إن أردت ثناءهم	أنسيت إذ كان الوقوف لأجله ؟!
إن كان للمولى وقوفك فليكن	هذا الوقوف لخيله ولرجله

(١) وقال ابن تيمية فى منهاج السنة: أنه باطل. وخطأه الحافظ ابن حجر فى فتح البارى

يشير بنجله إلى أن عليا عليه السلام تربى فى بيت النبى ﷺ، وبالمولى إلى حديث " من كنت مولاه فعلى مولاه " .

" فائدة " قال بعض العلماء: كان علم النجوم صحيحا، فلما توقفت الشمس ليوشع بطل أكثره، ولما ردت لعلى بطل جميعه[1] .

والشيعة يزعمون أن الشمس ردت لعلى عليه السلام مرة أخرى غير هذه وهو فى أرض بابل أيام خلافته . وقد فاتته صلاة العصر أيضاً . قال السيد إسماعيل بن محمد الحميرى فى قصيدته المذهبة ، يذكر الحادثتين فى بيتين وهما :

ردت عليه الشمس لما فاته ... وقت الصلاة وقد دنت للمغرب

وعليه قد حُبست ببابل مرة ... أخرى وما حُبست لخلق معُرب

وانظر شرحهما فى أمالى الشريف المرتضى ج٢ ص ٣٤٠ - ٣٤٣ .

قوله تعالى ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴾ (صٓ: ٧٥) فى هذه الآية وما شابهها طريقتان ، أشرنا إليهما فى المقدمة :

إثبات اليدين صفة لله تعالى ، كما جاء به السمع ، مع أعتقاد التنزيه عن الجارحة وتفويض المعنى المراد لله تعالى ، إليه . هذه طريقة السلف ، وهى مذهب أبى الحسن الأشعرى أمام الأشعرية ، والقاضى أبى بكر البلاقلانى من أئمتهم . والتأويل بصرف الكلام إلى بعض وجوه المجاز التى يقتضيها السياق ، وهذه طريقة الخلف . فيكون قوله ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ (صٓ: ٧٥) كنايه عن قوله : لما توليت أحداثه ، ولم يقدر على توليه غيرى .

قال الزمخشرى : فإن قلت : ما وجه قوله ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ ؟(صٓ: ٧٥) قلت : سبق لنا أن ذا اليدين يباشر أكثر أعماله بيديه ، فغلب العمل باليدين على سائر الأعمال التى تباشر بغيرهما ، حتى قيل فى عمل القلب : هو مما عملت يداك . وحتى قيل لمن لا يدى له : يداك أو كتا ، وفوك نفخ . وحتى لم يبق فرق بين قولك . هذا مما عملته ، وهذا مما عملته يداك ، ومنه قوله تعالى ﴿ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا ﴾(يٰس: ٧١) ، ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾(صٓ: ٧٥)

(١) علم النجوم مبنى على حساب سير الكواكب وتقابلها وحلول كل منها فى برج كذا ساعة كذا ، فلما توقفت الشمس ساعة ليوشع عليه السلام أختل حساب المنجمين بالنسبة لسير الشمس ، ولما ردت بعد الغروب أختل حسابهم بالنسبة لها ولسير الكواكب الليلية .

قلت: ففى الكلام استعارة، شبه تصوير الله جسم آدم وتسويته إياه، بما ينحته النحات بيديه من التماثيل، واستعير له لفظ يدى، على طريق الاستعارة التصريحية الأصلية وقيل: معنى ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ (ص: ٧٥) . لما خلقت بغير واسطة أب أو أم .

وجوز إمام الحرمين وغيره أن يكون معنى ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ (ص: ٧٥) : لما خلقت بقدرتى، فاليد بمعنى القدرة، والتثنية للتعظيم .

وأن يكون معنى اليد: النعمة، والباء بمعنى اللام، والمراد: لما خلقت لنعمتى وتثنية اليد، لأنه أريد نعمة الدنيا والآخرة .

ويضعف الوجه الأول: أن المخلوقات كلها مخلوقة بقدرة الله تعالى، فما فائدة تخصيص خلق آدم بها ؟ إلا أن يقال: فائدته: التلويح بتهديد إبليس، ويكون المعنى: ما منعك أن تسجد لما خلقت بقدرتى التى بها أعذبك إن لم تطع أمرى . والوجه الثانى فيه تكلف .

وفى تفسير الكشاف: فإن قلت فما معنى قوله ﴿ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ (ص: ٧٥) قلت: الوجه الذى استنكر له إبليس السجود لآدم، واستنكف منه: أنه سجود لمخلوق، فذهب بنفسه، وتكبر أن يكون سجوده لغير الخالق . وانضم إلى ذلك آدم مخلوق من طين، وهو مخلوق من نار، ورأى للنار فضلا على الطين، فاستعظم أن يسجد لمخلوق مع فضله عليه فى المنصب وزل عنه أن الله سبحانه حين أمر به أعز عباده عليه، وأقربهم منه زلفى وهم الملائكة، أحق بأن يذهبوا بأنفسهم عن التواضع للبشر الضئيل، ويستنكفوا من السجود له من غيرهم، ثم لم يفعلوا . وتبعوا أمر الله، ولم يلتفتوا إلى التفاوت بين الساجد والمسجود له، تعظيما لأمر ربهم، وإجلالا لخطابه، كان هو مع إنحطاطه عن مراتبهم، حريا بأن يقتدى بهم، ويعلم أنهم فى السجود لمن هو دونهم، بأمر الله، أوغل فى عبادته منهم فى السجود له، لما فيه من طرح الكبرياء، وخفض الجناح فقيل له: ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى؟ أى ما منعك من السجود لشيئ هو كما تقول مخلوق، خلقته بيدى، امتثالاً لأمرى . كما فعلت الملائكة، فذكر له ما تركه من السجود، مع العلة التى تشبث بها فى تركه .

وقيل له: لم تركت مع وجود هذه العلة وقد أمرك الله به يعنى كان عليك أن تعتبر أمر الله، ولا تعتبر هذه العلة، ومثاله: أن يأمر الملك وزيره أن يزور بعض سقاط الحشم، فيمتنع إعتباراً لسقوطه .

فيقول له: ما منعك أن تتواضع لمن لا يخفى على سقوطه ؟ يريد . هلا أعتبرت أمرى، وتركت أعتبار سقوطه . وفيه إنى خلقته بيدى، فأنا أعلم بحاله ومع ذلك أمرت الملائكة بأن يسجدوا له، لداعى حكمة دعانى إليه من إنعام عليه بالتكرمة السنية، وابتلاء للملائكة، فمن أنت حتى يصرفك عن السجود له ما لم يصرفنى عن الأمر بالسجود له ؟ أهـ .

قلت: فى هذا الكلام أمور .

الأول: تفضيل الملائكة على الأنبياء، وهذه مسألة فيها خلاف معروف، ولنا فيها رأى يخالف مذهبى الأشعرية والمعتزلة .

الثانى: ذكر الأمر بزيارة بعض سقاط الحشم، مثلا لآدم عليه السلام وهى إساءة بالغة فى حق أبى البشر، وأصل الأنبياء، وإقامة العذر لإبليس فى ظنه خيريته على آدم، وأن الله تعالى أقره على ظنه الباطل، وإنما عابه على ترك السجود أتباعا للأمر به، والواقع أن جملة ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ (ص: ٧٥) ذكرت رداً على إبليس، لا إقراراً له، وبيانا لتكريم آدم، بأن الله خلقه بيده، وتلك مزية تقتضى الاسراع بالسجود له، ولم يكن لابليس ولا لغيره أن يتعاظم على من كرمه الله بهذا التكريم الذى أدركه الملائكة، فبادروا إلى أمتثال الأمر بالسجود .

الثالث: قوله: لداعى حكمة دعانى إليه . وهذه جرأة لا تصدر إلا من معتزلى جلد كالزمخشرى والله تعالى لا يدعوه شيئ إلى فعل شيئ، لأن الداعى إلى الشيئ والباعث عليه، والوصول إلى غرض من تكميل نقص، أو جلب مصلحة، أودرء مضرة والله تعالى منزه عن ذلك . ومن ثم قال أهل الأصول ـ فى الكلام على علة القياس ـ: أنها الوصف المناسب ومن مناسبته أن يكون باعثا للمكلف على الامتثال . ولا يجوز أن يكون باعثا للشارع على تشريع الحكم، انظر جمع الجوامع وما كتب عليه والمقصود أن كلام الكشاف فى هذا الموضع . من بدع التفاسير .

* * * * * * *

٣٠ ـ ومن سورة الزمر

قوله تعالى ﴿ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ (الزمر:٦٧)، من الطى ضد النشر. بيمينه بقدرته، أو هى صفة لله تعالى مع التنزيه والتفويض . والمقصود: بيان سعة قدرة الله تعالى، وأن الأمور العظام، كالسموات والأرض، هينة عنده لا يعييه طيها وقبضها[1] .

(١) وتقدم قوله تعالى ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾ (الانبياء: ١٠٤) وهو يؤكد بطلان التفسير

ومن بدع التفاسير: أن معنى مطويات بيمينه . مغنيات بقسمه لأنه أقسم أن يعنيها .

قال الزمخشرى: ومن أشتم رائحة من علمنا هذا ـ يعنى علم البيان ـ فليعرض عليه هذا التأويل، ليتلهى بالتعجب منه ومن قائله !! ثم يبكى حمية لكلام الله المعجز بفصاحته، وما منى به من أمثاله ؛ وأثقل منه على الروح، وأصدع للكبر تدوين العلماء قوله، واستحسانهم له، وحكايته على فروع المنابر، وأستجلاب الاهتزاز من السامعين قلت: وقع مثل هذا وأشد منه فى تفاسير مبتدعة العصر التى أشرنا إلى بعضها فى الخطبة. وتمكنوا من نشرها وإشاعتها فعمت بها البلية، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

* * * * * * * *

٣١ ـ ومن سورة غافر

قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ (غافر:٧٨) وهم اربعة وعشرون: آدم وإدريس ونوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وإسماعيل وإسحق ويعقوب ويوسف وموسى وهرون وشعيب وأيوب وإلياس واليسع وذو الكفل وداود وسليمان وذكريا ويحيى وعيسى ويونس عليهم السلام ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ (غافر:٧٨) وهم كثيرون ففى مسندى أحمد واسحق بن راهوية عن أبى أمامة أن أباذر سأل النبى ﷺ: كم الأنبياء ؟

فقال " مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا " قال: كم الرسل منهم ؛ قال " ثلاثمائة وثلاثة عشر جما غفيراً " إسناده ضعيف ورواه ابن حبان والحاكم من طريقين ضعيفين أيضا عن أبى ذر فى حديث طويل، وله طرق وذكرها الحافظ السيوطى فى أماليه فى التفسير. وانظر كتاب تنزيه الشريعة لابن عراق .

وروى الطبرى والطبرانى فى الأوسط واين مردويه فى تفسيره عن على عليه السلام قوله ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ (غافر:٧٨) ـ قال: أرسل الله عبدا حبشيا، فهو الذى لم نقصص عليك . قلت: لم يصح عن على هذا الكلام، فى سنده جابر الجعفى، وهو مطعون فيه . وهذا من بدع التفاسير، لأنه تخصيص بعموم الآية بدون دليل . ثم من هذا الحبشى الذى أرسله الله ؟ لم يقم على تعيينه دليل . وإذا لم يقصه الله علينا ولا رسوله، فكيف

المحكى هنا .

عرفنا أنه رسول ؟! .

* * * * * * * *

٣٢ ـ ومن سورة فصلت

قوله تعالى ﴿ حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا ﴾ (فصلت: ٢٠) أى النار ﴿ شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (فصلت: ٢٠) أن يخلق الله فيها النطق فتنطق بما فعلته من المعاصر مقرة به .

ومن **بدع التفاسير**: أن شهادة الجوارح كناية عن ظهور أثر المعاصى عليها، بأن يظهر الله عليها علامات دالة على ما كانت تعمله فى الدنيا ؛ كنتانة فروج الزناة مثلا . وهذا التأويل حكاه الألوسى وغيره، وهو باطل لوجوه:

أحدها: أنه مجاز، وهو خلاف الأصل .

ثانيها: أن الآية تتحدث عن الآخرة، وقد قدمنا فى المقدمة أن ما كان من هذا القبيل، يمتنع حمله على المجاز .

ثالثها: أن بقية الآية تدل على أن النطق حقيقى ﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ (فصلت: ٢١)، أبعد هذه المراجعة الصريحة بين الكفار وأعضائهم يقال: للشهادة كناية .

رابعها: أن قوله تعالى ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (يس: ٦٥) يفيد أن كلام أعضائهم إنما يكون بعد ختم أفواههم ومنعها من النطق، لما سيأتى بعده .

خامسها: أن الحديث الصحيح صرح بأن نطق الجوارح حقيقة، ففى صحيح مسلم وسنن النسائى عن أنس ﷺ، قال: كنا عند رسول الله ﷺ فضحك حتى بدت نواجذه . قال " أتدرون مم أضحك " ؟ قلنا: الله ورسوله أعلم قال " من مخاطبة العبد ربه، يقول: يا رب ألم تجرنى من الظلم ؟ قال: بلى . قال: فانى لا أجيز اليوم على شاهدا إلا من نفسى. فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا، وبالكرام الكاتبين شهدوا . فيختم على فيه، ويقال لأركانه: أنطقى فتنطق بأعماله . ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول: بعداً لكن وسحقاً فعنكن كنت أناضل " .

وروى أحمد والنسائى والبيهقى باسناد جيد عن معاوية بن حيدة قال: قال رسول الله ﷺ "يجيئون يوم القيامة على أفواههم الفدام[1] فأول ما يتكلم من العبد فخذه ويداه " ورواه الحاكم من حديث معاوية بن جندب .

* * * * * * * *

٣٣ - ومن سورة الشورى

قولـه تعالى ﴿ لله مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْض يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾(الشورى: ٤٩) من الأولاد ﴿ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ۝ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ (الشورى: ٤٩-٥٠) فى الآية تقسيم حاصر، وهى تفيد عموم قدرته، ونفاذ إرادته فى مخلوقاته . وأنه يفعل بهم ما يشاؤن هو لا ما يشاؤن، فيهبهم من الأولاد حسبما تقتضيه حكمته ومشيئته .

ومن بدع التفاسير: ﴿ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً ﴾ (الشورى: ٤٩) يريد لوطا وشعيبا عليهما السلام لم يكن لهما إلا البنات ﴿ ويهب لمن يشاء الذكور ﴾ (الشورى: ٤٩) يريد ابراهيم عليه السلام لم يكن له إلا الذكور ﴿ أو يزوجهم ذكرانا وأناثا ﴾ (الشورى: ٥٠) يريد النبى ﷺ كان له ذكور وبنات ﴿ ويجعل من يشاء عقيما ﴾ (الشورى: ٥٠) يريد يحيى وعيسى عليهما السلام وهذا التاويل باطل . لأنه تخصيص للآية بدون دليل، ثم تخصيصها بهؤلاء الأنبياء دون غيرهم لا دليل عليه، ثم العقيم من تزوج ولم يولد له ويحيى وعيسى لم يتزوجا أصلا .

قوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ ﴾ وما صح لأحد من البشر ﴿ أَنْ يُكَلِّمَهُ الله إِلَّا ﴾ أن يوحى إليه ﴿ وَحْياً ﴾ فى المنام، أو بطريق الإلهام، فرؤيا الأنبياء حق يعمل بها فى التشريع، وكذلك إلهامهم ﴿ أَوْ ﴾ ألا ﴿ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ بأن يسمعه كلامه ولا يراه، كما وقع لموسى عليه السلام ﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً ﴾ ملكا كجبريل عليه السلام ﴿ فَيُوحِيَ ﴾ الرسول الملك إلى النبى المرسل إليه ﴿ بِإِذْنِهِ ﴾ أى الله ﴿ مَا يَشَاءُ ﴾(الشورى: ٥١) الله القاءه إليه من الأحكام وغيرها . وقيل: معنى (وحيا) كما أوحى على الرسل بواسطة الملائكة (أو يرسل رسول) بشرا كما كلم الأمم على ألسنة رسلهم .

وقال أبو على الجبائى فى تفسيره: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ الله ﴾(الشورى: ٥١) إلا

---

(١) بكسر الفاء، ما يوضع فى فم الأبريق ليصفى به ما فيه من الشراب، وهو كناية عن منعهم من الكلام بألسنتهم لتنطق جوارحهم .

مثل ما يكلم به عباده من الأمر بطاعته، والنهى لَهم عن معاصيه . وتنبيهه إياهم على ذلك من جهة الخاطر أو المنام، وما أشبه ذلك على سبيل الوحى وإنما سمى الله تعالى ذلك وحيا، لأنه خاطر وتنبيه، وليس كلاما لَهم على سبيل الإفصاح، كما يفصح الرجل منا لصاحبه إذا خاطبه . والوحى فى اللغة إنما هو ما جرى مجرى الإيماء والتنبيه من غير أن يفصح به، فهذا هو معنى ما ذكره الله تعالى فى هذه الآية .

وعنى بقولَه ﴿ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ (الشورى:٥١) أن يحجب ذلك الكلام عن جميع خلقه، إلا من يريد أن يكلمه به، نحو كلامه تعالى لموسى عليه السلام . لأن حجب ذلك عن جميع الخلق إلا موسى عليه السلام وحده فى كلامه إياه أولا . فأما كلامه إياه فى المرة الثانية، فإنه أسمع ذلك موسى والسبعين الذين كانوا معه، وحجب عن جميع الخلق سواهم .

فهذا معنى قولَه ﷻ ﴿ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ (الشورى:٥١) لأن الكلام هو الذى كان محجوبا عن الخلق . وقد يقال: أنه تعالى حجب عنهم موضع الكلام الذى أقام الكلام فيه . فلم يكونوا يدرون من أين يسمعونه ؟ لأن الكلام عرض لا يقوم إلا فى جسم . ولا يجوز أن يكون أراد بقولَه تعالى ﴿ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ (الشورى:٥١): يكلم عباده، لأن الحجاب لا يجوز إلا على الأجسام المحدودة .

وعنى بقولَه ﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾ (الشورى:٥١) إرسالَه ملائكته بكتبه وبكلامه إلى أنبيائه عليهم السلام، ليبلغوا ذلك عنه عباده، على سبيل إنزالَه القرآن على عبده محمد ﷺ، وإنزالَه الكتب على أنبيائه . فهذا أيضا ضرب من الكلام الذى يكلم الله به عباده، ويأمرهم فيه بطاعته، وينهاهم عن معاصيه من غير أن يكلمهم عن سبيل ما كلم به موسى، وهذا الكلام هو خلاف الوحى الذى ذكره الله تعالى فى أول الآية، لأنه أفصح لَهم فى هذا الكلام بما أمرهم به ونهاهم عنه . والوحى الذى ذكره الله تعالى فى أول الآية، إنما هو تنبيه وخاطر، وليس فيه إفصاح .

قلت: أشتمل هذا الكلام على أمرين، يعتبران من بدع التفاسير :

أحدهما: تفسير (وحيا) بما يلقيه الله إلى عباده من جهة الخاطر أو المنام . وهذا ينافى سياق الآية، لأن الله تعالى أراد بها أن يبين أنواع كلامه لرسلَه المبلغين عنه، وأن ما يلقيه إليهم من إلَهام، أو ما يريه غياهم فى المنام، يجب أتباعه والعمل به، كما قال تعالى ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ ﴾ (الفتح:٢٧)

، وكما قال إبراهيم لابنه إسماعيل عليهما السلام ﴿ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ (الصافات: ١٠٢) وقال النبى ﷺ " أن روح القدس نفث فى روحى أن نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب"[١] ولذا عقب الآية بقوله تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا ﴾ (الشورى: ٥٢) فأخبر أنه سلك به مسلك الرسل من قبله، وأن الوحى إليه، نوع من أنواع الكلام الثلاثة المشار إليها، فكانت الآيتان متناسبتين أما ما يلقى فى خواطر الناس، أو ما يرونه فى منامهم، فلا معنى لذكره هنا، ولا مصلحة تتعلق به .

ثانيهما: تفسير ﴿ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ (الشورى: ٥١) بأنه حجب الخلق جميعا عن الكلام الذى تكلم إلا من يريد أن يكلم به، فإنه يسمعه من وراء الحجاب الذى حجب غيره من الناس . وهذا خلاف الظاهر المتبادر من اللفظ، فإن الذى يفهم بادئ ذى بدء من عبارة ﴿ أو مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ (الشورى: ٥١) أن يسمع كلامه لرسوله من غير أن يراه . فالرسول حين يسمع الكلام، محجوب عن رؤية المتكلم ولا معنى لذكر المخلوقات هنا، لأنهم محجوبون عن كلام الله دائما حال كلامه مع رسوله وقبله وبعده .

قال الزمخشرى : وأما على أن يسمعه كلامه الذى يخلقه فى بعض الأجرام من غير أن يبصر السامع من يكلمه ؛ لأنه فى ذاته غير مرئى . وقوله ﴿ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾(الشورى: ٥١) مثل . أى كما يكلم الملك المحتجب بعض خواصه وهو ﴿ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾(الشورى: ٥١) مثل . أى يكلم الملك المحتجب بعض خواصه وهو من وراء الحجاب فيسمع صوته ولا يرى شخصه .

بقى أمر ثالث ننبه عليه، لأنه بدعة البدع وهو قوله: لأن الكلام عرض لا يقوم إلا بجسم . وهذا مبنى على مذهب المعتزلة فى إنكار أن يكون لله تعالى كلام نفسى قديم وقالوا: معنى أن الله متكلم: خالق للكلام فى جسم كشجرة مثلا . ومن هنا قالوا بخلق القرآن، فخالفوا إجماع الصحابة والتابعين وسائر علماء السنة . وهذا بحث طويل، يطلب تحريره فى كتب الكلام، وفى كلام الزمخشرى بدعة ننبه عليها أيضا. وهى قوله: لأنه فى ذاته غير مرئى، يشير إلى مذهبه الاعتزالى أن الله لا تجوز رؤيته عقلا. وقد صرح بهذا فى سورة الأعراف، ورمى الأشعرية المجوزين للرؤية بأنهم حمر موكفة. ونحن لا نعجب من وقيعته فى الأشعرية، مثل عجبنا من إصراره على إنكار الرؤية التى ثبت وقوعها فى الآخرة بالسنة

---

(١) رواه الحاكم عن ابن مسعود فى جملة من حديث، وهو صحيح .

المتواترة، وأجمع عليها الصحابة قبل ظهور شيوخ الزمخشرى بسنين !! .

* * * * * * * *

٣٤ ـ ومن سورة الزخرف

قولـه تعـالى ﴿ وَجَعَلُوا لَـه مِنْ عِبَادِهِ جُـزْءاً ﴾ (الزخرف: ١٥)، أى ولدا، حيث قالوا: الملائكة بنات الله، فجعلوها جزءا له، وبعضا منه، كما يكون الولد بضعة من أبيه .

قـال الزمخشرى: ومن بدع التفاسير الجزء بالإناث، وادعاء أن الجزء فى لغة العرب أسـم للإنـاث . ومـا هـو إلا كذب على العرب، ووضع مستحدث متحول، ولم يقنعهم ذلك، حتى أشتقوا منه:

أجزأت المرأة ثم صنعوا بيتا وبيتا:

إن اجـزأت حـرة يومـا فـلا عجـب زوجـتها مـن بـنات الأوس مجـزئة

قلت: الصنعة ظاهرة على هذا البيت، ومعناه ركيك .

قولـه تعالى ﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ ﴾(الزخرف: ٢٩) يخـبر الله تعـالى أنـه مـتع أهـل مكـة ـ وهـم مـن عقـب إبراهـيم ـ ومتع آباؤهم أيضا بالأمن والـنعمة، فاغتروا وشغلوا بالشهوات وعبادة الأوثان عن التوحيد . حتى جاءهم القرآن والنبى ﷺ فكذبوا وجحدوا .

قـال الزمخشـرى: فـإن قلت: ما وجه قراءة من قرأ: متعت، بفتح التاء ؟ قلت: كأن الله تعـالى اعـترض عـلى ذاتـه، فـى قولـه تعـالى ﴿ وَجَعَلَهـا كَلِمَـةً بَاقِـيَةً فِـي عَقِبِهِ لَعَلَهمْ يَـرْجِعُونَ ﴾ (الزخـرف: ٢٨) فقال: بل متعتهم بما متعتهم به من طول العمر والسعة فى الرزق، حتى شغلهم ذلك عن التوحيد . وأراد بذلك، الأطناب فى تعييرهم . الخ .

قلـت: القراءة المشار إليها شاذة، وتوجيهها بما ذكره قبيح وكيف يعترض الله على ذاته؟ وقد أغنانا الله بالقراءة المتواترة المعروفة، عن هذا التوجيه الذى هو أقبح من بدع التفاسير .

والمقـرر فى علم الأصول: أن القراءة الشاذة ليست من القرآن، لفقدها شرط التواتر، ولا تجـوز الصـلاة بها . كما لا تجوز بأى كلام غير القرآن وقد حكم العلماء بتعزيز ابن شنبوذ ، لأنه كان يقرأ بها فى صلاة التراويح .

قولـه تعـالى ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا ﴾ (الزخرف:٤٥) إذا لقيتهم ليلة الاسـراء كمـا قـيل فـى قولـه تعـالى ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ ﴾ (السجدة:٢٣) يعـنى فـى لـيلة الإسـراء أيضا . فقد صح أنه ﷺ أجتمع فى تلك الية بالأنبـياء وصـلى بهـم وعـرفه بهم جبريل والحكمة فى أمره بالسؤال . التقرير لمشركى قريش على أنه لم يأت رسول ولا كتاب إلا بتوحيد الله وعبادته .

وقـيل: المـراد واسـأل اتـباع مـن أرسـلنا، وهم علماء أهل الكتابين، ففى الكلام مجاز بالحذف، مثل ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ ﴾ (يوسف:٨٢) أى أهلها .

وقـال ابـن قتيـبة: معـنى الآيـة . واسأل من أرسلنا إليه قبلك من رسلنا وهم الأتباع من أهل الكـتابين أيضـا، غـير أنـه جعـل كـلمة (إلـيه) مقـدرة محذوفـة، فأخطـأ وكـان تاويلـه مـن بدع التفاسير، لأن المقرر فى علم العربية: أن الضمير المنفصل لا يجوز حذفه، فلا يقال: الذى جلست زيـد، عـلى معـنى: الـذى جلست اليه زيد، وكذلك لا يصح أن يقال: الذى رغبت محمد، بمعنى الـذى رغبـت فـيه محمـد، وإنمـا يجـوز حـذف الضـمير المتصل، نحو الذى أكرمت صديقك، اى اكرمـته، وجـاء مـن قابلـت أمـس، أى قابلته، والسر فى ذلك أن الضمير المتصل يدل عليه الموصول علـيه، فلـذا جاز حذفه بخلاف المنفصل، فإنه وأن دل الموصول عليه - لا يدرى عين الحرف الجار لَه هل هو إلى أوفى أو عن مثلا ؟ وقد يكون ظرفا نحو جلست معه فلذا لم يجز حذفه .

وقـد وقـع الجـلال المحـلى فـى هـذا الخطـأ أيضـا، عند تفسير قولَه تعالى - أول هذه السـورة - ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴾ (الزخرف:١٢) فإنه قال: قلت . يعنى أن التقدير . وجعل لكم من الفلك ما تركبون فيه ومن الأنعام ما تركبونه .

وتقديـر (فـيه) خطـأ لمـا مـر والصـواب تقدير العائد المحذوف ضميرا متصلا منصوبا فيهما، ويجوز فى اللغة أن يقال: ركب الفلك، كما يقال: ركب فيهـا .

* * * * * * *

٣٥ - ومن سورة " ق "

قولـه تعـالى ﴿ ق ﴾ (ق:١) الكلام فى حروف الهجاء المفتتح بها بعض السور معروف، بسـطه الزمخشرى فى أول سورة البقرة، وفصلَه تفصيلا وافيا . ونحن ننقل وجها مما ذكره، لأنه من بديع ما كتبه .

قال: الوجه الثاني: أن يكون ورود هذه الأسماء هكذا مسرودة، على نمط التعديد، كالإيقاظ وقرع العصا لمن تحدى بالقرآن، وبغرابة نظمه . وكالتحريك للنظر في أن هذا المتلو عليهم ـ وقد عجزوا عنه عن آخرهم ـ كلام منظوم من عين ما ينظمون منه كلامهم، ليؤديهم النظر إلى أن يستيقنوا أن لم تتساقط مقدرتهم دونه ولم تظهر معجزتهم عن أن يأتوا بمثله، بعد المراجعات المتطاولة، وهم أمراء الكلام، وزعماء الحوار . وهم الحراص على التساجل في اقتضاب الخطب، والمتهالكون على الافتنان في القصيد والرجز . ولم يبلغ من الجزالة وحسن النظم، المبالغ التي بزت بلاغة كل ناطق، وشقت غبار كل سابق . ولم يتجاوز الحد الخارج من قوى الفصحاء، ولم يقع وراء مطامح أعين البصراء، إلا لأنه ليس بكلام البشر، وأنه كلام خالق القوى والقدر . قلت: قد أبدع في هذا الوجه غاية الإبداع .

ومن بدع التفاسير: أن ﴿ ق ﴾ (ق: ١) جبل محيط بالأرض، من زمردة خضراء، إخضرت السماء منه، وعليه طرفا السماء، والسماء عليه مقببة . وما أصاب الناس من زمرذ، كان مما تساقط من ذلك الجبل !!

وهذا الكلام أبطل من أن يشتغل برده . والعجب ممن يكتبه في التفسير !! ويحمل عليه آيات القرآن الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه !!

قوله تعالى ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ (ق: ١٩) أن كانت الاشارة للموت، فالخطاب للأنسان المذكور في قوله تعالى ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ ﴾ (البلد: ٤) على طريق لالتفات . وإن كانت الاشارة للحق . فالخطاب للكافر .

ومن بدع التفاسير: أن الخطاب للنبي ﷺ عن بعضهم: أنه سأل زيد بن أسلم عن ذلك ؟ فقال: الخطاب لرسول الله ﷺ فحكاه لصالح بن كيسان، فقال: والله ما سن عالية ولا لسان فصيح، ولا معرفة بكلام العرب، هو للكافر .

ثم حكاهما للحسين بن عبد الله ابن عبيد الله ابن عباس، فقال: أخالفهما جميعا، هو للبر والفاجر .

قلت: لاشك أن تفسير زيد بن أسلم غير مقبول ولا معقول، وهو بعيد من سياق الآية غاية البعد . وكيف يحيد النبي ﷺ عن الموت ؟ وهو الذى خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عند الله كما ثبت عنه في الصحيحين .

أما تفسير صالح بن كيسان، فهو أقرب من تفسير الحسين بن عبد الله، لأن البر لا

يحيد من الموت، ولا يهرب منه وإنما الذى يهرب منه ويحيد، هو الفاجر الكافر .

****

٣٦ - ومن سورة الرحمن

قولـه تعـالى ﴿ يَـا مَعْشَـرَ الْجِـنِّ وَالْـإِنْس إن اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْـأَرْض فَـانْفُذُوا لا تَـنْفُذُونَ إلَّـا بسُـلْطَان ﴾ (الرحمن:٣٣) تتحدى الآية الثقلين أن ينفذوا من جوانـب السموات والأرض إن أستطاعوا، ويهربوا من قضاء الله وحكمه . وتخبر الآية أيضا أن نفوذهم لا يمكـن إلا بقـوة وهـى غـير موجـودة عندهم . وهذا مثل قولَه تعالى ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بمُعْجِـزِينَ فِـي الْـأَرْض وَلا فِـي السَّمَاءِ ﴾ (العنكبوت:٢٢) ومثل قول الجن ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ الله فِي الْأَرْض وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَباً ﴾ (الجـن:١٢) ثم أكدت الآية التحدى بهذه الجملة ﴿ يُرْسَـلُ عَلَـيْكُمَا شُـوَاظٌ مِنْ نَارٍ ﴾ (الرحمن:٣٥) هو لَهبها الأحمر (ونحاس) دخان لالَهب فيه ﴿ فَلا تَنْتَصِرَان ﴾ (الرحمن:٣٥) .

ومـن بـدع التفاسـير: قـول بعـض المعاصرين ﴿ بسُلْطَان ﴾: بعلم وأن الآية تشير إلى سفن الفضاء التى تحاول بطريق العلم الوصول إلى القمر أو غيره من الكواكب على ما يقال .

وهـذا تحـريف للآيـة يوقـع فـى الإثـم، وذاك المفسـر لا يفهـم - لجهلـه بقواعد اللغة العربـية - أن عـبارة ﴿ إن اسْتَطَعْتُمْ ﴾ (الرحمن:٣٣) تفـيد التحدى والتعجيز: وأن لفظ ﴿ مِنْ أَقْطَـارِ ﴾ (الرحمن:٣٣) يفـيد مجـاوزة جوانـب السـموات والأرض إلى مـا بعدها كما يقال: نفذ السـهم مـن الرمـية أى جاوزهـا . وقـد أخـبر الله تعالى فى سورة الجن: أنهم كانوا يصعدون عـلى السـماء، ويـتخذون مـنها مقاعد لاسـتراق السـمع . وهذا يبين أن الله تحداهم هنا مع الإنس بما هو أبعد من ذلك وأقوى مما لا تبلغه قدرتهم، وهو ما أوضحناه .

ومن الابتداع الخاطئ: حمل ألفاظ الكتاب والسنة على معان تنافس مدلولَها اللغوى، وتباين السـياق الـذى سيقت لَه الآية أو الحديث، ونحن لا ننكر أن فى القرآن والحديث إشارات إلى كثير مـن المخترعات الحديثة، لكن تدل عليها فى حدود المدلول اللغوى، وداخل نطاق الأسلوب الكلامى عـند العـرب . وقـد ذكـرنا أمـثلة لذلـك فـى " **خواطـر دينية** " وانظر كتاب " مطابقة الاختراعات العصرية لما أخبر به سيد البرية "[١] لشقيقنا الحافظ أبى الفيض رحمه الله تعالى ورضى عنه .

---

(١) وهما مطبوعان لمكتبة القاهرة وكل كتبنا .

* * * * * * * *

٣٧ - ومن سورة التحريم

قولـه تعـالى ﴿ يَـا أَيُّهَـا النَّـبيُّ لِـمَ تُحَـرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ﴾ (التحريم: ١) اخـتلف فـى سـبب نـزول هـذه الآيـة . فقـيل: أن النـبى ﷺ خلا بمارية فى يوم حفصة وفى بيتها، ووطئها . فعثرت حفصة على ذلك، فقالت: يا رسول الله لقد جئت أمرا مـا جئـته عـلى أحـد مـن نسـائك فـى بيـتى وعلى فراشى وفى دولتى ؟ فقال " أيرضيك أن أحـرمها فـلا أمسـها أبدا ؟ " قالت: نعم . فحرمها على نفسه[١] وقال " لا تذكريه لأحد من الناس " فأخبرت حفصة عائشة بذلك، وكانتا صديقتين .

وقـيل: أن النـبى ﷺ شـرب العسـل عند زينب بنت جحش إحدى أمهات المؤمنين - فـتواطأت عائشـة وحفصـة فقالـتا لَـه: إنا نشم منك ريح مغافير . وكان يشتد عليه أن يوجد منه الريح منه الريح، فحرم العسل على نفسه .

قال الحافظ ابن حجر: يجوز أن تكون الآية نزلت للسببين معا .

ومعـنى الآيـة على هذا أن الله تعالى يقول لنبيه: لم تمتنع مما أحل الله لك من قربان جاريـتك ومـن شـرب العسـل، تبـتغى مرضاة أزواجك ؟ والكلام خرج مخرج الاشفاق عليه، والـتوجع لَـه ﷺ . فكأنـه تعالى يقول: لم تبتغى مرضاة أزواجك بادخال المشقة على نفسك ؟ هـذا هـو الظاهر، كما قال الشريف المرتضى فى " غرر الفوائد " ثم بين الله كيفية التحلل من الـيمين، فقـال تعـالى ﴿ قَدْ فَـرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّـةَ أَيْمَانِكُمْ ﴾ (التحريم: ٢) فالتحريم هنا معناه الامتناع ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ ﴾ (القصص: ١٢) .

ومـن بـدع التفاسـير: قـول الزمخشـرى: ﴿ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ ﴾ (التحريم: ١) من ملك اليمين أو العسل، و ﴿ تَبْتَغِي ﴾ (التحريم: ١) إما تفسير لتحرم، أو حال. أو استئناف .

وكـان هـذا زلة منه، لأنه ليس لأحد أن يحرم ما احل الله، لأن الله ﷻ إنما أحل ما أحـل، لحكمـة ومصـلحة عـرفها فـى إحلالَـه . فـإذا حـرم، كان ذلك قلب المصلحة مفسدة ﴿ وَاللهُ غَفُـورٌ ﴾ قـد غفـر لك ما زللت فيه ﴿ رَحِيمٌ ﴾ (البقرة: ٢١٨) قد رحمك فلم يؤاخذك به

---

(١) جـاء هذا فى حديث رواه الطبرانى في عشرة النسـاء وابن مردويه فى التفسير عن أبى هريرة، وفيه زيادة: أن النـبى ﷺ قـال لحفصة " ألا أبشرك ؟ " قالت: بلى هذا الأمر من بعدى أبو بكر ويليه من بعده أبوك واكتمى هذا على " وهذه زيادة منكرة لا تصح .

ووجه البدعة فى هذا التفسير: أنه حمل التحريم على اعتقاد الحلال حراما، وسياق الآية لا يقتضيه، ولا يدل عليه، ثم حكم بأن النبى ﷺ لم زل فى التحريم .

والواقع أن النبى ﷺ يزل . لأنه لم يعتقد ما أحلّه الله حراما . كما زعم الزمخشرى . بل أمتنع منه بيمين[1] على أنه ﷺ لو قال فى شيئ: أنه حرام، كان حراما، لأنه مبلغ عن الله . وقد حرم أشياء لم تأت فى القرآن، مثل السباع والحمر الأهلية، وقال فى الحديث الصحيح "ألا وان ما حرم الله" فإذا أعتقد فى شيئ أنه حرام، فهو حرام حقيقة، لأن أعتقاده لا يكون إلا مطابقا للواقع . فالزمخشرى هو الذى زل فى هذا المكان وضل، سامحه الله .

" تنبيه " قول الزمخشرى: لحكمة ومصلحة عرفها . فيه إطلاق المعرفة على علم الله تعالى، وهو خطأ . لأنه لا يجوز شرعا أن يقال: عرف الله كذا، وهو عارف . وإنما يقال: علم كذا، وهو عالم . وتجويز الشيخ زكريا الأنصارى إطلاق المعرفة فى حق الله، لورود ذلك، يقال عليه: لا يكفى الورود، بل لابد من الثبوت ولم يثبت فى إطلاقها عليه تعالى: لا يكفى الورود، بل لابد من الثبوت ولم يثبت فى إطلاقها عليه تعالى حديث صحيح .

قوله تعالى ﴿ **ضَرَبَ الله مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ الله شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ** ﴾ (التحريم: ١٠) زعم بعض المعاصرين ممن أقحم نفسه فى التفسير بغير علم: أن المراد بالخيانة: الزنا . وهذا من بدع التفاسير، وهو يدل على جهل صاحبه وغباوته . فليست الخيانة هنا إلا المخالفة فى العقيدة، ومساعدة الكفار على زوجيهما، وهو خلاف ما تقتضيه العشرة الزوجية من صفاء المودة، وحسن المراعاة .

والدليل على هذا أمور:

الأول: ان امرأة نوح كانت ترمى زوجها بالجنون، وتساعد قومه عليه من شتمه وإيذائه وامرأة لوط كانت تدل قومه على ضيوفه إذا كانوا حسان الوجوه . لم ينقل عنهما

---

(١) ولأجل اليمين قال الله تعالى ﴿ وَالله غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (البقرة: ٢١٨) إشارة إلى أنه ما كان ينبغى أن يستعمل اليمين لإرضاء أزواجه • ويكفى إرضائهن بغير يمين • وإنما تستعمل اليمين فى الأمور المهمة، مثل ما أمروا بها فى قوله تعالى ﴿ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾ (يونس: ٥٣) وقوله تعالى ﴿ قَدْ فَرَضَ الله لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ﴾ (التحريم: ٢) مبنى على ما قبله بناء المسبب على سببه، أى من أجل أنه غفور رحيم، جعل لكم تحلة لأيمانكم تتحللون بها . فلا يلحقكم إثم فى حنثها . ولذا جاء فى المراسيل لأبى داود عن قتادة عن الحسن - فى تحريم ام إبراهيم - قال: فأمر ان يكفر عن يمينه . وقال ابن اسحق فى السيرة: أخبرنى بعض آل عمر قال: أصاب النبى ﷺ جاريته القبطية أم ابراهيم فى بيت حفصة، وفى يومها، وذكر القصة إلى ان قال: فأنزل الله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ﴾ (التحريم: ١) فكفر عن يمينه وقرب جاريته .

غير ذلك .

الثاني: لو ثبت عليهما شيئ من الزنا، لأسرع قوم نوح وقوم لوط إلى تغييرهما، والتشنيع عليهما، لكنهم لم يحرجوا على ذلك بحال .

الثالث: أن من يقع الزنا فى بيته بأهله - وهو لا يشعر - كيف يكون أهلا لأن يدعو أمة ؟ ويتزعم شعبا !

الرابع: أن اكبر عار يلحق بالرجل، ويسقط حرمته وكرامته، وقوع الزنا فى اهله . فكيف ينسب إلى رسولين كريمين ؟!! كان أحدهما يكافح جريمة اللواط، وكان من السهل جداً أن يقول له قومه: اذهب إلى بيتك فطهره من الفاحشة، ثم تعال فطهرنا !

الخامس: لا يجوز أن يقع الزنا فى بيت نبي يوحى إليه، ولا ينبهه الله عليه، هذا محال، لأن الله تعالى غيور، كما ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة ﷺ عن النبى ﷺ قال " إن الله ﷻ يغار وغيرة الله أن يأتى المؤمن ما حرم الله عليه " .

وفى صحيح البخارى عن ابن عباس فى قصة قذف هلال بن أمية امرأته، ونزول قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ ﴾ (النور:٦) ، وقول سعد بن عبادة: لو رأيت رجلا مع امرأتى لضربته بالسيف غير مصفح[١] قال النبى ﷺ " أتعجبون من غيرة سعد ؟! لأنا أغير منه والله أغير منى ومن أجل غيرة الله حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن " فكيف يرضاها فى بيت رسول يختاره لتلقى وحيه ؟ ودعوة الناس إلى توحيده ؟ وإقامة دينه ؟!

السادس: أن من الشروط التى يجب عقلا وجودها فى الرسول، الفطنة والذكاء، والذى يقع الزنا فى أهله - وهو لا يشعر - يكون بالغ النهاية فى الغفلة والبلاهة، ولا يجوز أن يكون الرسول مغفلا ولا أبله . بل الغفلة مذمومة فى عموم الصالحين. الا ترى إلى قول عمر ﷺ: لست بخب والخب لا يخدعنى ؟ تجده يتبرأ من الغفلة كما يتبرأ من الخبث . فهو ليس بخبيث، لكنه ليس من الغفلة بحيث يخدعه خبيث . لأنه مؤمن. والمؤمن فطن . كما جاء فى مسند الشهاب للقضاعى من حديث أنس " المؤمن كيس فطن حذر " .

السابع: أن كفر المرأة لا يعيبها ولا يلحق زوجها عار بسببه لأنه ينشا عن عناد فى الرأى، أو اعتداد به، أو تقليد للآباء . لكن زناها يعيبها ويعيب أهلها، لأن سببه أغتلام

---

(١) بضم الميم وسكون الصاد وبفتح الفاء أى (فمال على صفحته) أى جانبه والمعنى: لو وجدت رجلا مع امرأتى لضربته بحد السيف لأقتله ؟ ولم أضربه بجانبه الذى لا يقتل

الشهوة، وانحطاط الخلق، ودناءة الهمة، وسوء التربية . ولهذا جاءت هند زوج أبى سفيان، لتسلم ـ وكانت من العنيدات فى الشرك، والمعتزات به ـ وعرض عليها النبى ﷺ فيما عرض " ولا تزنين " قالت مستنكرة أو تزنى الحرة ؟!

فمن ثم جاز أن تكون زوج النبى كافرة، ولم يجز أبدا بحال أن تكون زانية . وهذا معنى ما رواه عبد الرازق والطبرى وابن مردويه من طرق عن ابن عباس ﷺ قال: ما بغت امرأة نبى قط، أى مازنت[1] .

قوله تعالى ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا ﴾ (التحريم:١٢) تثنى الآية على مريم عليها السلام بإحصان فرجها، وعفتها عن الحرام، وأن الله تعالى نفخ فيه من روحه .. الخ قصتها .

قال الزمخشرى: ومن بدع التفاسير: أن الفرج جيب الدرع، ومعنى أحصنته: منعته جبريل

وأنه جمع فى التمثيل بين التى لها زوج ـ وهى امرأة فرعون ـ والتى لا زوج لها، وهى مريم . تسلية للأرامل، وتطيبا لأنفسهن .

قلت: جبريل نفخ فى جيب درعها أو قميصها بنص القرآن، ولم تمنعه من ذلك وإحصان الفرج لا يراد به إلا الكناية عن العفة . والطهارة من الزنا . فاطلاقه على جيب الدرع فى غاية البعد . ويظهر أن صاحب هذا التاويل كان نصرانيا رسخت فيه عقيدة النصارى: أن الله نفخ فى مريم ـ مباشرة من غير واسطة جبريل، فلذلك يقولون فى عيسى: ابن الله، تعالى عن ذلك علوا كبيرا .

وحكمة تسلية الأرامل، وتطبيب انفسهن . ليس لها قيمة فى هذا الموضع، وماذا يضير الأرامل لو لم تذكر مريم[2] ؟ .

* * * * * * * *

٣٨ ـ ومن سورة الملك

قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ (الملك: ١٠)

(١) لا لعصمتها كما فهم بعض الجهلة وأنكر هذا الأمر، بل لدناءة الزنا ودناءة فاعلة ٠ وقد تكون زوجة النبى كافرة أو قاتلة لكنها حرة

(٢) على أن مريم لم تتزوج، والأرملة هى التى مات عنها زوجها ٠

معنى الآيـة: أن الكفار حين يدخلون النار، يقولون ـ متحسرين ـ لو كنا نسمع إنذار الرسل سماع قبول، ونعقل معناه: عقل متأمل منصف، لآمنا وما دخلنا النار .

قال الزمخشرى: ومن بدع التفاسير: أن المراد: لو كنا على مذهب أصحاب الحديث أو علـى مذهـب أصحاب الرأى . كأن هذه الآية نزلت بعد ظهور هذين المذهبين، وكأن سائر أصـحاب المذاهـب والمجـتهدين، قـد انـزل الله وعـيدهم: وكأن من كان من هؤلاء، فهو من الـناجين لا محالـة . وعدة المبشرين من الصحابة عشرة، لم يضم اليهم حادى عشر[1] . وكان من يجوز على الصراط أكثرهم لم يسمعوا باسم هذين الفريقين

قلت: وجه البدعة فى هذا التفسير: أن صاحبة حمل الآية على معنى لم يكن معروفا وقـت التـنزيل، وإنمـا حـدث بعـد ظهـور المجتهدين، وافتراقهم فى فهم الكتاب والسنة إلى هذين الفريقين . وقد نبهنا إلى هذا فى سورتى البقرة والرحمن .

* * * * * * * *

٣٩ـ ومن سورة القلم

قولَه تعالى ﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُون ﴾ (القلم:٣) قال الزمخشرى: غير مقطوع كقولَه ﴿ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ (هود:١٠٨) . أو غـيرٍ ممـنون بـه عليك، لأنه ثواب تستوجبه على عملك، وليس بتفضل أبتداء، وإنما تمن الفواضل، لا الأجور على الأعمال .

قلت: الرأى الثانى من بدع التفاسير، مع ما فيه من إساءة الأدب فى حق الله ﷻ . وقـد تكرر هذا منه فى غير موضع من كشافه . والله تعالى لا يجب عليه شيئ، إذ هو الخالق لـلخلق، ومتـبدئهم بنعمه، فكيف يجب لَهم عليه شيئ إلا ما أوجبه على نفسه تفضلاً ؟ وما يعطـيه مـن أجـور لعـباده الصـالحين، فلَه فيه المنة والفضل سواء أكان ابتداء ؟ أم فى مقابلة عمـل ؟! وفـى الحديـث الصحيح عن النبى ﷺ " لن يدخل أحد منكم الجنة بعملَه " قالوا: ولا أنت يا رسول الله ؟ قال " ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل "

وفـى معجـم الطـبرانى عـن واثلـة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال " يبعث الله يوم القيامة عـبدا لا ذنب لَه فيقول الله: أى الأمرين أحب إليك ؟ أن أجزيك بعملك ؟ أو بنعمتى عندك

(١) يعنى فـى حديـث واحـد . وهـذا لا ينافى أفرادا بشروا فى أحاديث متفرقة، مثل الحسن والحسين وفاطمة وخديجة وبلال وعبد الله بن سلام، وقد استوعبت أسماءهم فى " خواطر دينية " .

؟ قال . يا رب إنك تعلم أني لم أعصك . قال: خذوا عبدى بنعمة من نعمى . فما تبقى له حسنة **إلا** أستفرقتها تلك النعمة فيقول: رب بنعمتك ورحمتك فيقول بنعمتى ورحمتى " .

وأما مثل قوله تعالى ﴿ **وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾(الأعراف: ٤٢) **فالباء** فيه للسببية الجعلية، بمعنى أن الله تعالى جعل العمل الصالح سببا شرعيا لدخول الجنة، **وهذا** الجعل تفضل منه، ولهذا يقول أهل الجنة حين يدخلونها الحمد لله ﴿ **الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ** ﴾ (فاطر: ٣٥) .

ويعجبني في هذا المعنى قول صاحب الحكم: إذا أراد إظهار فضله عليك، خلق ونسب **إليك** . والسر فى ذلك أن الله تعالى ابتدأ خلقه بنعمه تفضلا :

أولاها: نعمة الإيجاد، ثم نعمة الإمداد بالحواس وبالصحة والتوفيق إلى الطاعة وغيرها مما لا يحصى، كما قال تعالى ﴿ **وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوهَا** ﴾ (النحل: ١٨) فلو أن الإنسان عبد الله طول حياته ما أدى شكر نعمة من تلك النعم .

كما جاء في مسند البزار عن أنس ﷺ عن النبي ﷺ قال " يخرج لابن آدم يوم القيامة **ثلاثة** دواوين: ديوان فيه العمل الصالح وديوان فيه ذنوبه ، وديوان فيه النعم من الله عليه، **فيقول** الله ﷻ لأصغر نعمة - أحسبه قال: في ديوان النعم -: خذى ثمنك من عمله الصالح . فتستوعب عمله الصالح، ثم تتنحى، وتقول: وعزتك ما استوفيت . وتبقى الذنوب والنعم، وقد ذهب العمل الصالح .

فإذا أراد الله أن يرحم عبدا قال: يا عبدى قد ضاعفت لك حسناتك وتجاوزت عن سيئاتك، ووهبت لك نعمى " فكيف إستوجب العبد على الله - وهو مقصد فى شكر نعمة - أن يدخله الجنة بعمله ؟! .

ومما يعاب به الزمخشرى، محاولته تطبيق آيات القرآن على مذهبه الاعتزالى . ويركب فى تحقيق محاولته كل صعب وذلول، ولولا ذلك، لم يكن لتفسيره نظير، لأنه أظهر وجوه **أعجاز** القرآن، وبينها غاية البيان . حتى قيل - فيه وفى السكاكى صاحب مفتاح العلوم -: لولا الأعرجان، لذهبت بلاغة القرآن .

قوله تعالى ﴿ **سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ** ﴾(القلم: ١٦) هذه العبارة كناية عن غاية الإذلال **لأن الوسم** على الوجه شين، فكيف به على أكرم موضع منه ؟ والضمير يعود على الوليد بن المغيرة وقد خطم بالسيف يوم بدر، فبقيت سمة على خرطومه، وهى من الإهانة والإذلال

وقيل: سنعملَه يوم القيامة بعلامة مشوهة، يبين بها عن سائر الكفار، كما عادى رسول الله ﷺ عداوة بان بها عنهم .

ومن بدع التفاسير: أن الخرطوم الخمر، وأن المعنى: سنحده على الخمر، أى على شربها وهذا المعنى - وان نقل عن النضر بن شميل الإمام اللغوى الثقة وما أظنه يصح عنه - بعيد عن سياق الآية، لا يتلاقى معها بأى وجه .

* * * * * * * *

٤٠ - ومن سورة المزمل

قولَه تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴾ (المزمل:١) نادى الله تعالى نبيه بهذا الوصف، تسجيلا لحالته حين رجع إلى خديجة ﵂، وفؤاده يرجف، بعد إذ نزل عليه قولَه ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ (العلق:١) - وهو أول وحى يتلقاه - وقال " زملونى " والحكمة فى هذا النداء إيناسبه، وإزالة ما علق بقلبه من هيبة الوحى، حتى قال لخديجة " لقد خشيت على نفسى " كما ثبت فى الصحيحين . وأعقبه بالأمر بقيام الليل، استعدادا لما يتتابع عليه من نزول الوحى ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴾ (المزمل:٥) .

ومن بدع التفاسير: قول الزمخشرى: كان رسول الله ﷺ نائما بالليل، متزملا فى قطيفة، فنبه ونودى بما يهجن إليه الحالة التى كان عليها من التزمل فى قطيفة، واستعداده للاستثقال فى النوم . كما يفعل من لا يهمه أمر، ولا يعنيه شأن، وفى أمثالَهم:

أوردها سعد وسعد مشتمل   ما هكذا تورد يا سعد الإبل

فذمه بالاشتمال بكسائه، وجعل ذلك خلاف الجلد والكيس . وأمر بأن يختار على الهجود والتهجد، وعلى التزمل التشمر والتخفف للعبادة والمجاهدة فى سبيل الله .

قلت: قلده البيضاوى من غير تبصر . وهو مخالف لسبب النزول، وفيه سوء أدب فى حق الجناب النبوى الكريم . وإذا كان الله لم يناده باسمه المجرد - كما نادى غيره من الأنبياء - تكريما لَه . فكيف يعقل أن يناديه بوصف يذمه به ؟! سامح الله الزمخشرى على هذه الجرأة التى لم يقصدها فيما أحسب .

* * * * * * * *

٤١ ـ ومن سورة المدثر

قولـه تعـالى ﴿ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ‌ۦ نَذِيراً لِلْبَشَرِ ﴾(المدثر: ٣٥-٣٦) نذيـرا حال من إحـدى، والضمير يعود على سقر . والمعنى: أن الله تعالى أقسم بالقمر والليل إذا أدبر والصبح إذا أسـفر، عـلى أن سـقر إحـدى الدواهي الكبر، حال كونها نذيرا للبشر . وذكر نذيرا: أما لأنه بمعنى أنذار، وأما لأن سقر بمعنى العذاب، واما لأن نذيرا يستوى فيه المذكر والمؤنث .

وقـيل فـي نذيرا: إنه تمييز لإحدى الكبر، وقيل: مما دلت عليه الجملة، أى كبرت سقر منذرة .

ومـن بـدع التفاسـير ـ كمـا قال الزمخشرى ـ: أن نذيرا حال من قوله فى أول السورة ﴿ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾ (المدثر: ٢) وهـو اعـراب فـى غايـة الـبعد، ولا يلـيق إلا بالمختصرات الشديدة الاختصار، مثل مختصر خليل فى فقه المالكية، والروض لابن المقرى فى فقه الشافعية، ولب الأصـول، أختصـار جمـع الجوامـع، لزكـريا الأنصـارى . ففى هذه الكتب وأمثالها تجد بين المبـتدأ وخـبره صـفحتين كاملـتين، وبـين الحـال وصـاحبها ثلاث صحائف، ونحو ذلك من التعقيدات التى صعبت العلم، وصيرته أشبه بالرموز والألغاز .

* * * * * * *

٤٢ ـ ومن سورة الإنسان

قولَه تعالى ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاسِلا وَأَغْلالاً ﴾ (الانسان: ٤) قال الزمخشرى: قرئ سلاسل غير منون، وسلاسلا بالتنوين . وفيه وجهان:

أحدهما: أن تكون هذه النون بدلا من حرف الإطلاق، ويجرى الوصل مجرى الوقف .

والـثاني: أن يكـون صـاحب القـراءة بـه ممـن ضرى برواية الشعر، ومرن لسانه على صرف غير المنصرف .

قلـت: هـذا مـن بـدع التفاسير . فـإن القـراءات السـبعة، بـل العشرة ليست مبنية على اجـتهاد القـراء واختـيارهم، ولكـنها مـنقولة نقـل تواتـر عـن النـبى ﷺ . حسـبما تقرر فـى علم الأصول، وبسطه شيخ المقرئين الحافظ ابن الجزرى فى كتاب " النشر فى القراءات العشر "[(١)] .

---

(١) وبسـطه أيضـاً العلامـة المقرئ المحقـق محمـد بن عبد السلام الفاسى فى كتاب " المحاذى " وهو كتاب فى القراءات نفيس محظوظ، رأيته فى مكتبتنا والنشر فى القراءات العشر مطبوع بمكتبة القاهرة .

وتنوين سلاسل قرأ به نافع[1] امام قراء أهل المدينة، وهو أبعد الناس عن رواية الشعر . ووجهه: أنه لمناسبة قوله ﴿ وأغلالا ﴾ ورعاية المناسبة، لهجة عربية فصيحة، ومنها: قوله ﷺ يخاطب النسوة اللاتي تبعن الجنازة ـ " ارجعن مأزورات غير مأجورات " أصل مأزورات: موزورات، لأنه من الوزر لكن قيل بالهمزة لرعاية مأجورات وكثيرا ما تجد في كتب الأدب واللغة العربية توجيه صرف كلمة غير منصرفة بأنه لرعاية المناسبة .

قوله تعالى ﴿ عَيْناً فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً ﴾(الانسان: ١٨) معنى سلسبيلا: سلسلة الانحدار في الحلق، سهلة المساغ .

قال الزجاج: السلسبيل في اللغة: صفة لما كان في غاية السلاسة

قال الزمخشري: وقد عزوا إلى علي ﷺ: أن معناه: سل سبيلا إليها . وهذا غير مستقيم على ظاهره، إلا أن يراد أن جملة قول القائل: سل سبيلا، جعلت علما للعين . كما قيل: تأبط شرا، وذرى حبا . وسميت بذلك لأنه لا يشرب منها، إلا من سأل إليها سبيلا بالعمل الصالح . وهو مع صحته في العربية تكلف وابتداع، وعزوه إلى مثل علي عليه السلام أبدع .

وفي شعر بعض المحدثين سل سبيلا منها إلى راحة النفس براح كأنها سلسبيل .

قلت: في البيت جناس تام، وهو من المحسنات اللفظية في علم البديع وما نقل عن علي عليه السلام، لم يصح عنه . ولاشك أنه من بدع التفاسير .

* * * * * * *

٤٣ ـ ومن سورة النبأ

قوله تعالى ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفّاً لا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَه الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً ﴾ (النبأ: ٣٨) أختلف في الروح . فقيل: جبريل عليه السلام وقيل: ملك عظيم من الملائكة، وقيل: صنف من الملائكة يقال لهم: الروح والآية تصدر هول يوم القيامة . وما يعترى الخلق من خشوع وخضوع لهيبة الله تعالى فيه .

---

(١) هو نافع بن أبي نعيم، توفي سنة ١٦٩ وهو غير نافع مولى ابن عمر وشيخ مالك .

ومـن بدع التفاسير: ما جاء عن وهب بن منبه، قال: أشرف ذو القرنين[١] على جبل قـاف، فـرأى تحـته جبالا صغارا . فقال لَه: ما أنت قال: أنا قاف . قال: فما هذه الجبال حولـك ؟ قـال: هـى عـروقى، ومـا مـن مديـنة إلا وفـيها عرق من عروقى . فإذا أراد الله أن يزلـزل مديـنة، أمرنى، فحركت عرقى ذلك فتزلزلت تلك الأرض . فقال لَه يا قاف أخبرنى بشـئ مـن عظمـة الله قـال: إن شأن ربنا لعظيم، وإن ورائى أرضا مسيرة خمسمائة عام، من جـبال ثـلج، يحطـم بعضـها بعضا، لولا هى لاحترقت من حر جهنم . قال: زدنى قال: إن جـبريل عليه السلام واقـف بين يدى الله تعالى ترتعد فرائصه، يخلق الله من كل رعدة ألف ملك . فهـؤلاء الملائكـة واقفون بين يدى الله تعالى، منكسون رؤسهم . فإذا أذن الله لَهم فى الكلام، قالوا: لا إلَه إلا الله . وهو قولَه تعالى: ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ (النبأ:٣٨)

قلت: أنعم بهذا التفسير الذى تلقاه ذو القرنين من الإمام جبل قاف !! وقد قالَه قبل نزول القرآن !!! ثم أنعم بالعقول التى تقبل هذا التخريف، وتكتبه فى مؤلفاتها !!!

لـو قـرأت رسـالة " الصلصـلة فـى الزلـزلة " لعرفت كيف يقع بعض كبار العلماء فى الخرافات، معتقدين أنها نهاية التحقيق ؟! والكمال لله تعالى .

٤٤ - ومن سورة عبس

قولـه تعـالى ﴿ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴾ (عبس:٢٥) أى أنزلنا الغيث ﴿ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴾ (عبس:٢٦) أى شققناها باخراج النبات منها .

قـال الزمخشـرى: ويجـوز أن يكـون مـن شـقها بالكـراب عـلى الـبقر، وأسند الشق إلى نفسه، اسناد الفعل الى السبب . قلت: هذا على عقيدته الاعتزالية فى أن العبد يخلق أفعالَه .

---

(١) هـذا الكـلام مبنى على أن ذا القرنين ملك الدنيا وطاف أرجاءها من مشرقها إلى مغربها . وروى ابن أبى شيبة عـن مجـاهد قـال: ملـك الدنـيا أربعـة: مؤمنان: ذو القرنين وسليمان، وكافران: لمنروذ وبختنصر . وهذا غير صـحيح، فـلم يملـك الدنيا كلها أحد، لاهؤلاء ولا غيرهم . ولقد كان ملك العباسيين زمن الرشيد والمأمون أكبر مـن ملـك ذى القـرنين الـذى كـان ملكا على فارس، واتجه فى سيره إلى المغرب حتى وصل إلى أزمير. وهناك فـى مكـان عـند الشـاطئ مـنعزل وجـد الشـمس تغرب فى عين حمئة . والقوم الذين وجدهم هناك هم اليونان وكـانوا أصـحاب حضارة وعلوم . ثم واصل سيره إلى جهة المشرق حتى بلغ الهند ووجد بعض أصقاعها سهولا منبسـطة لـيس فـيها ما يستر أهلها من الشمس، لا جبال ولا أشجار . ثم واصل السير إلى جهة شمال فارس، حـتى بلغ ارمينيا فاشتكى إليه أهلها إفساد يأجوج ومأجوج وإغارتهم عليهم، فبنى ردما فى ممر بين جبلين، مـنعهم فـى الاغـارة عليهم طولَه نحو مائة متر، وعلوه نحو ثلاثين مترا. وهو موجود فى هذا المكان إلى الآن . ويأجوج من الروس، ومأجوج من المنغول وسمى ذو القرنين بهذا الاسم، لأنه كان فى تاجه قرنان .

وقد علق عليه ابن المنير بقوله: ما رأيت كاليوم قط عبدا ينازع ربه ! الله تعالى يقول: ﴿ ثُمَّ شَقَقْنَا ﴾ (عبس:٢٦) فيضيف فعله إلى ذاته حقيقة، كما أضاف بقية أفعاله من عند قوله ﴿ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ ﴾ (عبس:١٩) وهلم جرا .

والزمخشرى يجعل الإضافة مجازية، من باب إسناد الفعل إلى سببه .

وإذا جعل شق الأرض مضافا إلى الحراث حقيقة، وإلى الله مجازاً، فما يمنعه أن يجعل الحراث هو الذى صب الماء، وأنبت الحب والعنب والقضب حقيقة ؟ وهل هما إلا واحد ؟!

قلت: أظن أن الزمخشرى لو أدرك هذا الزمان الذى توصلوا فيه إلى إنزال المطر الصناعى لسقى الأرض وزرعها، لأسند صب الماء إلى الحراث حقيقة !

وبعد: فحمل آيات القرآن على عقيدة معينة، أو مذهب معين هو ـ ولاشك ـ من بدع التفاسير .

****

٤٥ ـ ومن سورة الغاشية

قوله تعالى: ﴿ أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ (الغاشية:١٧) المراد بالإبل: الحيوان المعروف .

ومن بدع التفاسير: أن الإبل هى السحاب .

قال الزمخشرى: لعله لم يرد أن الإبل من أسماء السحاب، كالغمام والمزن والرباب والغيم والغين، وغير ذلك . وإنما رأى السحاب مشبها بالإبل كثيراً فى أشعارهم. فجوز أن يراد به السحاب على طريق التشبيه والمجاز . قلت: هذا توجيه بعيد .

****

٤٦ ـ ومن سورة الفجر

قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴾ (الفجر:٦) عطف بيان لعاد . إعلاما بأنهم عاد الأولى، وإرم جدهم الأدنى، ثم صار علما للقبيلة ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾(الفجر:٧) صفة للقبيلة التى هى إرم . والمعنى: أنهم كانوا طوال الأجسام . تشبيها لهم بالأعمدة. وقد

شبهوا في سورة القمر بأعجاز نخل منقعر، وفى سورة الحاقة بأعجاز نخل خاوية ﴿ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ ﴾ (الفجر:٨) في البطش والقوة فقد حكى الله عنهم أنهم أستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا: من أشد منا قوة ؟

ومن بدع التفاسير: أن شداد بن عاد، كان ملكا قهر ملوك الدنيا، فدانوا له، وسمع بذكر الجنة، فقال: أبني مثلها . فبنى إرم فى بعض صحارى عدن وهى مدينة عظيمة قصورها من الذهب والفضة، وأساطينها من الزبرجد والياقوت، وفيها أصناف الأشجار والأنهار المطردة . بناها فى ثلاثمائة سنة، ولما تم بناؤها ذهب إليها بأهل مملكته . فلما كان منها على مسيرة يوم وليلة، بعث الله عليهم صيحة من السما. فهلكوا . وهى المراد . وأن عبد الله بن قلابة، خرج فى طلب إبل له، فوقع عليها، فحمل ما قدر عليه مما ثم . وبلغ خبره معاوية، فاستحضره، فقص عليه، فبعث إلى كعب، فسأله فقال: هى إرم ذات العماد . وسيدخلها رجل من المسلمين فى زمانك، أحمر أشقر، قصير. على حاجبه خال، وعلى عنقه خال، يخرج فى طلب إبل له . ثم التفت، فرأى ابن قلابة، فقال: هذا والله ذلك الرجل .

قلت: أخرج الثعلبى من طريق عثمان الدارمى، عن عبد الله بن صالح كان الليث، عن ابن لهيعة، عن خالد بن أبى عمران، عن وهب بن منبه، عن عبد الله بن قلابة، أخرج فى طلب إبل له شردت، فذكر القصة السابقة . قال الحافظ آثار الوضع عليه لائحة .

قلت: لاشك أن هذا كذب مفضوح، يجب تنزيه كتب التفسير عنه، لأنه يشوه جماله . والعجيب فى هذا الكذب أن يعرف كعب صفة ابن قلابة بتلك الدقة المدهشة !!! كأنه حضر ولادته ! ولعله قرأ صفته فى بعض الكتب التى تدل على الكنوز، وتصف من يكون فتحها على يده !!!

٤٧ ـ ومن سورة الضحى

قوله تعالى ﴿ ألم يجدك يتيماً فآوى ﴾ المعنى: أن النبى ﷺ نشأ يتيما، مات أبوه وهو جنين، فآواه الله ورباه .

قال الزمخشرى: ومن بدع التفاسير أنه من قولهم: درة يتيمة، وأن المعنى: ألم يجدك واحدا فى قريش، عديم النظير ؟ فآواك ! قلت: يجوز أن يكون من باب الإشارة . والمعنى: أن النبى ﷺ كان عديم النظير فى قريش. يبغض الأصنام، وهم يعبدونها، ويجتنب قبائح الجاهلية، وهم منغمسون فيها . وينشد معالى الأمور، وهم يحبون سفسافها .

فهـو درة يتـيمة، وسـط معـادن غـير كريمة، وأشق شيئ على الشخص وجوده بين ناس غير موافقين . فآواه الله إليه، وآنسه بوحيه .

ومـثل هـذا مـن الإشـارة يقـال ـ فـى قولـه ـ ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى ﴾ (الضحى:٧) أى وجـدك محـبا لتوحـيده، مفكـرا فـيما يعـرفك به، ويجمعك عليه . فهداك به إليه . وعرفك نفسه . مجمعك عليه .

﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى ﴾ (الضحى:٨) أى وجـدك فقيرا إلى مزيد فضلَه، متشوقا إلى وصلَه . فأغناك بما أولاك، ووصلك إلى حقدته وأدناك .

* * * * * * * *

٤٨ ـ ومن سورة ألم نشرح

قولـه تعـالى ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ ﴾ (الشرح:٧) أى إذا فرغت من صلاتك فاجتهد فى الدعـاء . أو: فـإذا فرغـت مـن الغـزو، فاجـتهد فـى العـبادة . أو: فإذا فرغت من دنياك، فانصب فى صلاتك .

قـال الزمخشـرى: ومـن الـبدع: مـا روى عن بعض الرافضة . أنه قرأ فانصب، بكسر الصـاد، أى فانصـب علـيا للإمامـة . ولـو صـح هـذا للـرافض لصح للناصبى أن يقرأ هكذا، ويجعلَه أمرا بالنصب الذى هو بغض على وعداوته .

* * * * * * * *

٤٩ ـ ومن سورة قريش

قولـه تعـالى ﴿ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ (قريش:٤) معنى الآية أن الله تعالى أمن قريشا من خوف أصحاب الفيل، ومن خوف التخطف فى بلدهم .

قال الزمخشرى: ومن بدع التفاسير . وآمنهم من خوف: من أن تكون الخلافة فى غيرهم .

قلت: لاشك أن هذا تفسير مبتدع . لأن اللفظ لا يدل عليه، والسياق لا يقتضيه .

ومـن غرائب القراءات: ما حكاه أيضا بقولَه: وقرئ ﴿ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ (قريش:٤)

باخفاء النون[1]

٭٭٭٭٭٭٭٭

٥٠ - ومن سورة الفلق

قولـه تعـالى ﴿ مِـنْ شَـرٍّ مَـا خَلَقَ ﴾ (الفلق: ٢) قرأه بعض الغالين فى الاعتزال، من شره بتنوين شر، وجعل ما نافية .

والمعـنى: قـل أعـوذ بـرب الفلـق من شر ما خلقه، بل خلقه فاعلَه ،بناء على قولَهم . أن العبد يخلق أفعالَه . وهذا تحريف آثم، يهوى بصاحبه فى النار، نسأل الله السلامة والعافية .

---

(١) وجه الغرابة أن الخاء من حروف الحلق الستة. وحكم النون معها هو الإظهار

خاتمة تشتمل على مسائل ثلاثة

١ - المسئلة الأولى

علمت مما عرضناه من نماذج " بدع التفاسير " أنها لا تخلو من أن تكون مخالفة للفظ الآية، أو منافية لإعرابها، أو منافرة لسياق الكلام، أو غير متلاقية مع سبب النزول، أو مصادمة للدليل . ومن ثم كانت بدعيتها، ووجب إبعادها عن كتب التفسير، وتنقيته منها، وهى نوع من التفسير، فتحنا أبوابه، وبينا أسبابه، وكشفنا عما غمض منه حجابه . فمن أراد أن يكتب فيه، فلينهج ما نهجناه، وليقف ما مهدناه، وليبن على ما أسسناه، وليفرع على ما أصلناه، وإننا نحمد الله على أن هدانا لهذا وماكنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

والمرجو ممن أطلع عليه من أولى العلم، أن يغضى عما عسى أن يكون فيه من خطأ أو سهو . فإن الخطأ والسهو، طبيعة فى الإنسان . لاسيما وقد كتبناه فى ظروف توالت علينا بالهموم والأكدار، وقضت بتشريد العقل وتشتيت الفكر، مع عدم الصديق الموافق والزمان المواتى، مما يتعذر مع وجود بعضه إنشاء خطاب عادى، فضلا عن تأليف كتاب مستقل، فى موضوع مبتكر، لم يوجد منه إلا أمثلة . ذكرت فى تفسير الكشاف، على سبيل الاستطراف . والله المسئول أن يبدل همومنا سرورا، وأكدارنا صفوا وحبورا . وأن يديمه علينا نعمة العقل، وأن يجمع فكرنا على التأمل فى آياته، إنه قريب مجيب .

* * * * * * * *

٢ - المسئلة الثانية

من أنواع التفسير . التفسير الإشارى الذى يسلكه الصوفية فى تفاسير، وذلك أنهم حين يتكلمون على آية من القرآن، يقرءون تفسيرها اللفظى كما ذكره المفسرون، ويأخذون منها بعد ذلك معنى إشاريا يتصل بما يفيضون فيه من مقامات وأحوال، ومعارف وأسرار

وقد ذكرنا مثالا لذلك فى سورة الضحى . وهو بالنسبة للتفسير اللفظى كنسبة المفهوم إلى المنطوق، فكما أن المنطوق هو مادل عليه اللفظ فى محل النطق . مثل وجوب الصلاة المدلول عليه بلفظ ﴿ أَقِيمُوا الصَّلاةَ ﴾ (الأنعام:٧٢) كذلك التفسير اللفظى للآية، وهو ما أفاده نظمها، واقتضاه سياقها، وكما أن المفهوم هو مادل عليه اللفظ لا فى محل النطق، مثل تحريم الضرب للوالدين المدلول عليه بقوله ﴿ فَلا تَقُلْ لَهمَا أُفٍّ ﴾ (الاسراء:٢٣) لكن لا فى محل النطق، لأنه

غير منطوق به . كذلك التفسير الإشارى هو ما أستفيد من الآية لا بطريق لفظها وعبارتها .

ودلالة الإشارة معتبرة عند علماء الأصول. فانهم لما تكلموا على ألفاظ الكتاب والسنة، وقسموا دلالتها إلى نوعين: منطوق، ومفهوم . قسموا دلالة المنطوق إى دلالة اقتضاء، ودلالة إشارة . ومثلوا للأخيرة يقوله تعالى ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ ﴾ (البقرة:١٨٧) وقالوا: دلت الآية بطريق المنطوق على إحلال الجماع طول ليلة الصيام، ويؤخذ منها بطريق الإشارة صحة صوم من أصبح جنبا[1] وأخذ العلماء من قوله تعالى ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴾ (الانبياء:٢٦) بطريق الإشارة ـ أن الإنسان لو وجد ابنه رقيقا، فاشتراه عتق عليه بمجرد الشراء، لأن الولدية والعبودية لا تجتمعان . فكما استخرج علماء الأصول والفقه من ألفاظ القرآن والسنة بطريق الإشارة . أحكاما تشريعية، كذلك استخرج الصوفية بطريقها علوما ربانية .

وممن أستعمل التفسير الإشارى، من العلماء غير الصوفية: النيسابورى فى تفسيره المطبوع بهامش تفسير الطبرى . واسماعيل حقى فى تفسيره " روح البيان " .

والآلوسى فى تفسيره " روح المعانى " وهذان التفسيران مطبوعان أيضا . لكن الصوفية فى هذا الباب أمكن، وعلى الإشارات الدقيقة أغوص ولهم تفاسير تختلف باختلاف عباراتهم بين عويصة مستغلقة، مثل " عرائس البيان " للورتجبى، و" إعجاز البيان فى تفسير فاتحة القرآن " للقونوى ربيب ابن العربى الحاتمى وتلميذه . وبين واضحة محكمة، كتفسير النخجوانى، ولم أر فيها أوضح عبارة، وأقرب فهما، وأحسن سياقا، وأسلس عذوبة من كتاب " البحر المديد فى تفسير القرآن المجيد " لجدنا من قبل الأم، الإمام العلامة الولى الكبير (أبى العباس أحمد بن محمد بن عجيبة الحسنى ﷺ) فإنه يعتبر ـ بحق ـ لسان الصوفية والمعبر عنهم فى هذا الفن يذكر الآية، ويذكر ما فيها من وجوه الإعراب، ويتبع ذلك بذكر المعنى ـ ومصادرة تفسير البيضاوى وتفسير ابن جزى وحاشية العارف أبى زيد عبد الرحمن الفاسى على تفسير الجلالين وما يفتح الله به عليه ـ ثم يذكر المعنى الإشارى. بعبارة سلسلة، وبيان عذب . حتى يشعر القارئ أن الآية لم تنزل إلا فى هذا المعنى، ولم يقصد منها سواه .

وكتب على المقدمة الآجرومية شرحا بهذه الطريقة أيضا . يذكر عبارة المؤلف،

---

(١) لأن الليلة تصدق بكل جزء من أجزائها . فمن جامع فى آخر جزء منها بحيث يكون ملاصقا لأذان الفجر . لا يستطيع أن يغتسل إلا بعد الفجر فيمضى عليه جزء من النهار وهو جنب. فمن هنا كانت الآية تشير إلى صحة صومه .

ويشرحها بمقتضى علم النحو، ويتبعها بالمعنى الإشارى، فيندهش القارئ لحسن تنزيله عبارة المتن على المعانى الصوفية، ويخيل اليه أن ابن آجروم، ألف مقدمته فى علم التصوف .

وللعارف أبى الحسن على بن ميمون الغمارى - شيخ ابن عراق - شرح على الآجرومية بالتصوف أيضا، اطلعت عليه . لكنه عويص مستغلق، يتعب القارئ فى فهمه

وقد كتب بعض المعاصرين من المتصوفة شرحا على منظومة عبد الواحد بن عاشر فى فقه المالكية، بطريق التصوف، مقلدا خطة ابن عجيبة، اطلعت عليه، وهو مطبوع . لكن بينهما بون شاسع، فليست النائمة المأجورة كالثكلى، ولا الحاكى مثل الذائق .

والمقصود: أن الصوفية، لَهم فى فهم القرآن والسنة تلميحات وإشارات، تدل على إلَهامات إلَهية، وتنزلات قدسية .

وقد كنت فى بداية طلبى للعلم، أقرأ شرح العارف أبى محمد بن أبى جمرة على مختصره للبخارى، على سيدنا الأستاذ الإمام الوالد ﷺ . فكان يلفت نظرى إلى ما فيه من دقائق الاستنباطات التى لم يتفطن لَها شراح البخارى قبلَه، وهى مما ألَهم الله إياها، وفتح بها عليه . ويقول لى: ان الحافظ ابن حجر، ينقل عنه كثيراً منها فى " فتح البارى " ويحليه بلقب " العارف " مع أنه ليس من أنصار الصوفية .

وماذاك إلا لأنه يقدر علمه وفهمه، ويعترف بما فتح الله به عليه ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ (الحديد: ٢١) .

****

٣ - المسئلة الثالثة

أردت أن أتكلم عن التفاسير المشهورة المتداولة التى أطلعت عليها وأبين خصائص كل تفسير منها، حسبما يظهر لى، غير متقيد برأى، ولا متأثر بعقيدة معينة . متحريا للصواب فيما أقرره وأبديه، والله الموفق .

١ - تفسير الطبرى: تفسير جليل القدر، يعتبر من التفاسير التى تعنى بالتفسير المأثور . مثل تفسير عبد بن حميد وابن أبى حاتم وابن المنذر وأبى الشيخ وابن حيان[١] وابن مردويه،

---

(١) بفتح الحاء المهملة وتشديد المثناه التحتية، وأسمه عبد الله ابن جعفر بن حيان الأصبهانى، شيخ أبى نعيم . من مؤلفاته كتاب العظمة فى مكتبتنا مختصرة فى مجلد، وكتاب النوادر والنتف، وكتاب التوبيخ علقت

ونحوهم ممن يروون بأسانيدهم ما ورد فى تفسير الآية عن النبى ﷺ - وهو قليل، وعن الصحابة الذين تكلموا فى التفسير، مثل على وابن عباس وابن مسعود وأبى بن كعب وعبد الله بن عمرو .

وعن التابعين كذلك، مثل سعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد وطاوس والحسن وسعيد بن المسيب وقتادة، وأبى مالك الطائى والباقر وعطاء وعلقمة وعبيد بن عمير والشعبى، وزيد بن أسلم، والسدى الكبير . وغير أن تفسير الطبرى يمتاز بثلاثة أشياء:

١ - ذكر اللغات، ووجوه الاعراب، والاستشهاد بأشعار العرب .

٢ - الترجيح بين الأقوال المختلفة .

٣ - إبداء رأيه فى تفسير الآية بصراحة وأستقلال، لا يتقيد إلا بالدليل من الكتاب أو السنة أو لغة العرب .

وإن كان لى عليه أنتقاد، فهو على ترجيحه بين القراءات، وتضعيف بعضها . وهذا منه يقتضى أنه يرى القراءات موكولة إلى رأى القراء، واجتهادهم فيما يختارونه من لغات العرب ولَهجاتهم .

والصواب: أن القراءات موقوفة على النقل، وحيث تواترت قراءة عن النبى ﷺ كقراءة نافع وحمزة وابن كثير وغيرهم من القراء المشهورين، لم يجز تضعيفها، لأن القراءة سنة متبعة . نعم يجوز أن يكون فيها فصيح وأفصح، وبليغ وابلغ

أما أعتماده على ما ينقلَه عن كعب الأحبار ووهب بن منبه وغيرهما من مسلمة أهل الكتاب، فذاك أنتقاد يتوجه على أغلب كتب التفسير . وإنى لشديد العجب من علمائنا المتقدمين الذين اعتمدوا على الإسرائيليات فى التفسير وغيره ناسين أن الله تعالى أخبر عن أهل الكتاب أنهم حرفوا كتبهم وبدلوا فيها !! وأن رسولنا ﷺ حذرنا من تصديقهم !!

وأعجب من هذا أن تلك الإسرائيليات تغلغلت فى كتب العلماء، وتسلطت على

منهما فوائد، وهما فى مكتبتنا وكتاب أخلاق النبى ﷺ، طبع بتعليقاتى عليه وهو غير أبى حاتم محمد بن حاتم بن حبان بكسر الحاء المهملة وتشديد التحتية الموحدة، البستى . له كتاب الضعفاء، اطلعت عليه وهو فى مجلد متوسط، وكتاب الثقات، اطلعت على نصف ترتيبه فى مجلد ضخم للحافظ الهيثمى . رتبه على حروف المعجم . وكتاب الصحيح اطلعت على ترتيبه لابن بليان . وأنتخبت منه أحاديث فى نزول عيسى وغيره . طبعت منه قطعة، وكتاب روضة العقلاء، وهو مطبوع . وغير ذلك . وفى كتب الحديث المطبوعة تصحيف توطأ عليه المصحون، وهو كتابه أبى الشيخ ابن حيان بالباء الموحدة، حتى كتاب الترغيب والترهيب الذى قام الشيخ مصطفى عمارة بضبطه وتصحيحه، فيه هذا التصحيف من أول الكتاب إلى آخره وفيه تصحيفات أخرى كثيرة، بل فيه لحن فى تشكيل الأحاديث .

عقولهم حتى صارت عندهم عقيدة !! على أساسها يفهمون القرآن ! وبتفاصيلها يفسرون ما غمض من آياته ! فابتلاء أيوب عليه السلام لم يفسر إلا بما جاء عن أهل الكتاب . وكذلك فتنة داود وسليمان، وهم يوسف عليهم السلام . وفى القرآن دلالة قاطعة على أن الذبيح إسماعيل عليه السلام وكذلك مناسك الحج وشعائره، تدل على ذلك أيضا .

ومع هذا فإن كثيراً من العلماء منهم الطبرى، ذهبوا إلى أن الذبيح إسحاق عليه السلام . لا لدليل من الكتاب أو السنة، ولكن أعتماداً على كذب أهل الكتاب وتحريفهم . والحافظ السيوطى كتب رسالة فى تعيين الذبيح، حكى فيها القولين، وذكر أحاديث تؤيد الفريقين - وهى أحاديث واهية لا تساوى سماعها - ثم أختار التوقف عن تعيين الذبيح، لتعارض الأدلة !![1]

فانظر إلى حد سيطرت الإسرائيليات على عقول علمائنا وتفكيرهم ؟! ومثل هذا ما حكوه عن هاروت وماروت، وشداد بن عاد، وبنائه إرم ذات العماد، وطول عوج بن عنق، وغير ذلك مما شوه كتب علمائنا، وكان ثغرة منها الطاعنون الحاقدون .

٢ - **تفسير البغوى:** يعتبر من تفاسير السلف، لأن مؤلفه من أهل الحديث، كتب تفسيره على طريقتهم . يذكر معنى الآية، ويؤيده بحديث مرفوع بسنده، أو بقول صحابى أو تابعى من علماء التفسير . وقد يحكى الأقوال، ويرجح بعضها لدليل يبديه، ويميل فى الصفات المتشابهة إلى تفويض علمها لله تعالى، مع أثباتها كما جاءت فى القرآن .

٣ - **تفسير النيسابورى:** تفسير جليل، يشتمل على فوائد وتحقيقات، يحكى القراءات المشهورة، ويوجه ما يحتاج منها إلى توجيه . ويميل إلى تأويل المتشابه، على طريقة المتأخرين . ثم يذكر التفسير الإرشادى، فى ختام السورة أو الجزء . وبالجملة هو تفسير مفيد لا يستغنى عنه .

٤ - **تفسير الزمخشرى:** سماه الكشاف، وهو كشاف حقيقة كشف النقاب، عن وجوه إعجاز القرآن، وأبدع فى بيان نكتها ما شاء الله له أن يبدع . خصوصا النصف الأول منه، فقد اعتراه فى النصف الثانى ملال، وفسر ما فى القرآن من الآيات المتشابهة فى الصفات وغيرها بوجوه من المجاز أو الاستعارة التمثيلية على طريقة علماء البيان . ومكنه رسوخه من هذا العلم من تطبيق ذلك فى يسر وسهولة، من غير تقلب ولا استكراه . مع ما

---

(١) يعجبنى فى هذا المقام ما جاء عن الأصمعى، قال: سالت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح ؟ فقال: يا أصمعى !أين عزب عنك عقلك ؟! ومتى كان اسحق بمكة ؟ وإنما كان أسمعيل بمكة، وهو الذى بنى البيت مع أبيه، والمنحر بمكة .

يـبديه أحـيانا مـن تناسـب بـين جمـل مـن الآيات حتى تبدو للقارئ واضحة الترابط، آخذا بعضـها بحجـزة بعـض . ويمكن أن نقول غير مسرفين: كل من كتب فى التفسير بعده ـ من الناحية البلاغية ـ فهو عالة عليه . لكن تنتقد عليه أشياء:

١ ـ محاولته تطبيق آيات القرآن على مذهبه الاعتزالى، كما سبق التنبيه عليه .

٢ ـ ولعـه بحكاية القراءات الشاذة، وتكلف توجيهها بغرائب اللغة ونوادر الإعراب . وقـد يمـدح بعضها بان القارئ بها من أفصح الناس، وأمضغهم للشيح والقيصوم، يكنى بذلك عن خلوص عربيته، وسلامتها من أى لكنة .

٣ ـ تهجمـه عـلى بعـض القـراءات المتواترة [1] أو توجيهه لبعضها بما يفيد أن القراءة مسألة أجتهادية .

فمـن الأول مـا تفـوَّه بـه عـن قـراءة ابن كثير عند قولَه تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ ﴾ (الأنعام: ١٣٧) .

ومن الثانى ما ذكره فى ﴿ سَلَاسِلًا وَأَغْلَالًا ﴾ (الانسان: ٤) وللعلامة الطيبى عليه حاشية كبيرة ممتعة، تقع فى نحو ستة مجلدات، كثيرة الفوائد والتحقيقات، فيها مناقشات قيمة، وتمحيصات لأراء الزمخشرى .

وكـان الطيبى مع تقدمه فى علوم البلاغة والعربية والكلام والمنطق ذا خبرة جيدة بالحديث، فعـزا معظـم أحاديـث الكشـاف، عـزوا يـدل عـلى اطلاعـه ومشـاركته . وهذه الحاشية جديرة بأن تطبع، وقد كان سيدنا الأستاذ الإمام الوالد ﷺ معجبا بها وهو الذى لفت نظرى إليها .

٥ ـ **تفسير الرازى:** تفسير قيم يعنى بتحرير المسائل الكلامية وهذا فنة الذى برز فيه . وقـد قيل عنه: فيه كل شيئ إلا التفسير . وفى هذا القول غلو ومبالغة . وإلا فهو من جهة الكـلام عـلى الآيـات، ومـا فـيها مـن اللغـات والفوائـد، لا يقـل عن أى تفسير من التفاسير المهمـة. إن لم يفـق علـيه . وإن كـان يؤخـذ عليه شيئ، فهو أنه يقصر فى بعض الآيات أو السـور تقصـيراً لا يلـيق بمـثله . كمـا يؤخـذ علـيه أيضـا أنـه قـد يقرر فى الآية معنى، صح

---

(١) ولما تكلم الفقيه ابن حجر الهيتمى فى الزواجر على قولَه تعالى ﴿ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ ﴾ (البقرة: ٢١٩) ووجه قـراءتى كبير وكثير، قال: ومما يجب على المتكلم فى توجيه القراءات أن يوجه كلا من غير تعرض لتضعيف قراءة متواترة. وما وقع من ذلك للزمخشرى وغيره فى مواضع، فهو من زللهم وخطئهم. أهـ .

الحديث فيها بخلافه، وعذره فى هذا أنه لا يعرف علم الحديث[1].

٦ - تفسير القرطبى: تفسير عظيم، عنى ببيان الأحكام المستخرجة من الآيات، مع ذكر الأحاديث الواردة فى الموضوع، وبيان اللغات والأعراب الذى يتوقف عليه فهم الآية، وتحليل نظمها، ولا عيب فيه إلا السياقة مع الإسرائيليات فى بعض الأحيان.

٧ - تفسير الخازن: مختصر من تفسير البغوى، وهو كاف فى فهم القرآن. يذكر الأحكام والأحاديث منسوبة إلى مخرجيها من أصحاب الكتب الستة، أو البغوى ان لم يجد الحديث عند غيره. وعيبه الوحيد: ذكر القصص المأخوذة عن الإسرائيليات. ولو حذفت منه تلك القصص لكان تفسيراً فى غاية الجودة.

٨ - تفسير البيضاوى: مختصر من الكشاف، غير أنه أعرض عن حكاية القراءات الشاذة إلا فى القليل. والتزم مذهب الأشعرية، وقد ينساق مع الزمخشرى أحيانا تقليداً من غير تمحيص، وفيه تحقيقات رائعة، وعليه حواشي للقونوى وزاده والشهاب الخفاجى، فيها بحوث وتحقيقات، والأخيرة أوسعها وأكثرها فوائد.

٩ - تفسير أبى السعود:[2]

١٠ - تفسير النسفى: مختصران من تفسير الكشاف، مع استبدال آراء الأشعرية بآراء المعتزلة. وفيهما مع ذلك تحقيقات نفيسة.

١١ - تفسير ابن كثير: تفسير سلفى متشدد فى سلفيته، يعنى بذكر الأحاديث الواردة فى موضوع الآية، مع بيان رتبتها غالبا. ويذكر أقوال الصحابة والتابعين. وينبه على الإسرائيليات. وقد يقصر فى بعض الآيات، فلا يستوفى الكلام عليها كما ينبغى. ومن تشدده فى سلفيته: أنه جعل قوله تعالى ﴿ وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ ﴾ (الأنعام: ٣) جملة مستقلة، وقوله تعالى ﴿ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ ﴾ (الأنعام: ٣) جملة مستأنفة. لبيان شمول علم الله لجميع المخلوقات، وحكى الإجماع على أن الله فى السماء. ورسم من قال خلاف ذلك بأنه من الحشوية، وهو متأثر بابن تيمية.

١٢ - تفسير أبى حيان الأندلسى: تفسير جميل جدا، عنى بحكاية القراءات المشهورة

---

(١) كما أنه يتهجم على بعض علماء الحديث أحيانا. فقد تهجم على ابن خزيمة، وقال - عن كتاب التوحيد له - كلمة شديدة. وذلك عند تفسير قوله تعالى ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ (الشورى: ١١).

(٢) للشيخ عليش عليه حاشية فى تسعة أجزاء اطلعت عليها وهى محظوظة.

وتوجيهها، مع بيان الإعراب بيانا شافيا، ومناقشة الزمخشرى فيما أخطأ فيه من ذلك . ويتحرى التنبيه على الاسرائيليات، مع أشتماله على تحقيقات نفيسة، وقد تعرض لابن تيمية، وذكر أنه أغتر به أول الأمر فمدحه، ثم تبين له خلاف ذلك، فذمه وحط عليه، وذكر بعض عيوبه، لكن القائمين على طبع التفسير حذفوا منه ذم ابن تيمية، غيرة منهم عليه[1] .

١٣ - ومن مصادر أبى حيان: تفسير ابن عطية وهو تفسير مهم جدا . طبعت مقدمته، وهى تدل على علو قدره .

١٤ - تفسير البرهان البقاعى: تفسير جميل جدا، فيه بحوث قيمة، وأهم ما يمتاز به التزام بيان المناسبة بين السور والآيات، وهذا شيئ لم يسبق إليه أحد، وقد وفقنى الله تعالى إلى تأليف كتاب بينت فيه المناسبة بين سور القرآن، وأرجو أن يوفقنى إلى تأليف كتاب آخر، فى بيان المناسبة بين آياته .

١٥ - تفسير الخطيب الشربينى: تفسير جيد، يشتمل على فوائد ونفائس، ومما يمتاز به أنه فسر كل بسملة فى القرآن، تفسيرا غير تفسير سابقها .

١٦ - تفسير الطبرسى الشيعى: تفسير جميل جدا، يتكلم على الإعراب وتوجيه القراءات بما يدل على اطلاع فى علوم اللغة العربية، وكلامه على معانى الآيات، يدل على تحقيقه، ودقة نظره، غير أنه يرجح آراء شيعية، كما يفعل الزمخشرى فى ترجيح آرائه الاعتزالية .

١٧- تفسير الثعالبى: مختصر من تفسير ابن عطية، وفيه فوائد وتحقيقات، بحيث يكفى من يقتصر عليه .

١٨- تفسير ابن جزى: تفسير مختصر مفيد، يحكى أصح الأقوال ويذكر أصح الأعاريب، كتب فى أوله مقدمة من علم التفسير، فى غاية الإفادة .

١٩- تفسير الجلالين: تفسير مختصر جداً، لا يغير المبتدى، ولا يحتاج اليه المنتهى. ينساق مع الإسرائيليات، ولا تكرر موضوعا، كما لا يكشف عن نكتة فى آية .

٢٠ - وللعارف أبى زيد عبد الرحمن الفاسى: عليه حاشية، فيها تحقيقات مفيدة، وهو أول من كتب عليه حاشية .

---

(١) كما حذف المرحوم أمين الخانجي - حين طبع الميزان للذهبى - كلمة على من أثر وقع فى ترجمة ابن أبى داود. وكتب بدلها كلمة فلان ، مع أن الأثر غير صحيح .

٢١ ـ ثم كتب الشيخ الجمل حاشية كبيرة: تعتبر تتميما له بما تنقله فى معظم الآيات، عن كثير من كتب التفاسير ما يوضح المعنى، ويبين المراد .

٢٢ ـ ثم كتب تلميذه العارف الصاوى حاشية: فيها تحقيقات رائعة، إلا أنه يعتمد الإسرائيليات .

٢٣ ـ أما حاشية الجماليين على الجلالين: فلا بأس بها فى الجملة، ولا تخلو من فوائد

٢٤ ـ تفسير السيوطى، اسمه " الدر المنثور فى التفسير بالمأثور ": يذكر فى كل آية ما ورد فيها من الأحاديث والآثار، مستوعبا فى ذلك غاية الاستيعاب، غير أنه لا يبين رتبة الأحاديث إلا قليلا، ومع كونه التزم أن لا يذكر فيه حديثاً واهياً أو موضوعاً، لم يف بما التزم به، والكمال لله تعالى[١] .

٢٥ ـ تفسير ابن عجيبة: سبق الكلام عليه .

٢٦ ـ تفسير روح البيان: تفسير جيد، أحسن تلخيص ما فى البيضاوى وحواشيه وأبى السعود من نكات وفوائد، مع إضافة بعض الإشارات الصوفية . وبعد تفسير الآية باللغة العربية، يذكر تفسيرها باللغة التركية وهذا عمل مفيد .

٢٧ ـ تفسير الشوكانى: تفسير وسط بين الإيجاز والإطناب، يعنى ببيان المفردات اللغوية، ويتكلم على معنى الآية جملة . مع الإشارة إلى القراءات المشهورة، وذكر الأحاديث والآثار، منقولة من تفسير الدر المنثور، فهو تفسير جيد مفيد .

٢٨ـ تفسير الفوتى: تفسير مستمد من البيضاوى . لكنه سهل مبسوط العبارة. ولا يخلو من فوائد . وهو محظوظ لم يطبع .

٢٩ـ تفسير الميرغنى: تفسير مختصر، لكنه مفيد، سهل العبارة، خال من الاصطلاحات العلمية المعقدة، يستفيد منه المبتدى ومن فى حكمه لوضوح أسلوبه .

٣٠ ـ تفسير الآلوسى: تفسير مهم بديع، لخص ما فى الكشاف وحاشية الشهاب على البيضاوى من نكات بيانية، ومباحث فنية . كما لخص ما فى تفسير الرازى من بحوث عقلية

---

(١) أرجو أن يوفقنى الله إلى تجريده بالاقتصار على الأحاديث الثابتة . كما فعلت فى الجامع الصغير. جردت منه الأحاديث الثابتة فى كتاب سميته " الكنز الثمين فى أحاديث النبى الأمين " وضممت إليها أحاديث من الترغيب والترهيب وغيره، فزادت على اربعة آلاف حديث .

وكلامية، وفرج ذلك كله بأسلوبه الأدبى البليغ . وأضاف إليه ما نقله عن تفسير السيوطى من الأحاديث والآثار، ما ذكره من بعض الإشارات الصوفية، فكان تفسيرا منقطع النظير .

٣١ ـ تفسير القنوَّجى ملك بهوبال بالَهند . تفسير ملخص من تفسير ابن كثير، وهو سلفى أيضاً على طريقته، ولا يخلو من نكات وفوائد .

٣٢ ـ تفسير القاسمى: تفسير لا بأس به، يميل إلى وضوح وتبسيط البحث الذى يتعرض لَه، مع جنوح إلى الاجتهاد والاستقلال فى الرأى، وقد ينساق مع الاسرائيليات أحيانا، وحين أريد تقديمه إلى المطبعة . أشرف على طبعه شخص فى عقلَه شيئ . زرته مرة ببيته فأطلعنى على نسخة التفسير بخط القاسمى، سلمها إليه ابنه ليشرف على طبعها، فإذا هو قد ضرب بالقلم الأحمر على بحث النسخ الذى ذكره المؤلف عند قولَه تعالى ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ﴾ (البقرة:١٤٢) فسألته عن سبب شطب هذا البحث ؟ فقال: لأنه لا يليق بمقام القاسمى الذى كان يسميه الشيخ رشيد رضا: عالم الشام . فحذفته وحذفت ما كان من قبيلَه عديم الفائدة، قليل الجدوى . قلت لَه لكن هذا لا ينافى الأمانة العلمية .

فقال: التفسير لم يطبع قبل الآن، ولا أحد يعرف ما حذف منه، ونجل المفسر ـ وهو نقيب المحامين بدمشق ـ أباح لى التصرف فيه حسبما أراه مصلحة، وهذه البحوث لا تليق بالقاسمى وبشهرته العلمية . قلت لَه: اتركها كما كتبها المؤلف، وعلق عليها برأيك . فأبى، وأصر على حذفها، وبناء على هذا فالتفسير المذكور ناقص فى عدة مواضع، وهذه خيانة علمية، ما كان ينبغى أن تحصل[١] ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

تم تبييضه صباح يوم الأحد السادس والعشرين من جمادى الآخرة سنة أربع وثمانيين وثلاثمائة وألف هجرية .

---

(١) لم أذكر تفسير الشيخ طنطاوى جوهرى المسمى " جواهر القرآن " لأنه ليس تفسيرا بالمعنى المفهوم من لفظ التفسير، وإنما حشر فيه حقائق علمية عن الفلك والنبات والحيوان، ولم يراع ربطها بألفاظ القرآن وآياته، فجاءت مبعثرة غير متناسقة . وقد اجتمعت به فوجدته بسيطا فى تفكيره، وكان نباتيا كالمعرى وأخبرته بأن تفسيره متداول عندنا بالمغرب . فأبدى لى عجبه من أن يكون فى المغرب ناس يفهمون كلامه !! ثم وجدت تلميذه الاستاذ حنفى أحمد أخذ عليه مثل هذا فى مقدمة كتابه "التفسير العلمى للآيات الكونية فى القرآن" .

ترجمة المؤلف

هـذا وأنـا الفقير إلى عفو الله ورحمته أبو الفضل عبد الله ابن الإمام الحافظ المجتهد . القطب الرباني شمس الدين أبى عبد الله محمد ابن الولى الكبير السيد الصديق العلامة الكبير والقطـب الشهير السيد أحمد ابن العارف بالله السيد محمد ابن السيد قاسم ابن السيد محمد ابـن الـولى الشهيد السيد عبد المؤمن ابن السيد محمد ابن السيد عبد المؤمن ابن القطب الكبير السيد عبد المؤمن صاحب الكرامات فى حياته وبعد وفاته ابن السيد الحسن ابن السيد محمد ابـن السـيد عـبد الله ابـن السـيد أحمد ابن السيد عبد الله ابن السيد عيسى ابن السيد سعيد ابـن السـيد مسـعود ابن السيد الفضيل ابن السيد عمر ابن السيد العربى ابن السيد علال ابن السـيد موسـى ابـن السـيد احمد ابن السيد داود ابن مولانا ادريس دفين فاس ويسمى أدريس الأزهـر ابـن مولانـا أدريـس الأكـبر، مؤسـس دولة الأدارسة بالمغرب، وناشر لواء الاسلام فى أصـقاعه، ابـن الإمـام السـيد عبد الله المحصن - أحد شيوخ الإمام مالك - ابن السيد الحسن المثنى ابن سيدنا الحسن السبط ابن سيدنا على وفاطمة الزهراء عليهم السلام .

ووالدتـي: هـي التقـية الصـالحة العفـيفة القانـتة الطاهـرة الشـريفة الكـريمة الخلـق، السـخية الـيد[1] بنـت العـارف بالله، التالى لكتاب الله المكثر ذكر الله السيد عبد الحفيظ ابن العلامة الولى الكبير السيد أحمد - سلك طريق التصوف على جدى سيدى الحاج احمد، وفتح لَـه على يديه، كما أن جدى أخذ عنه علم المنطق - ابن الإمام العلامة الولى الشهيد أحمد بن عجيـبة الحسـنى، صـاحب التفسـير المشـار إلـيه . وقـد ذكر نسبه فى فهرسته . فأنا أتصل بالحسن بن على عليهما السلام، من جهة الأب والأم، والحمد لله .

ولـدت بمديـنة طـنجة، وهى أحسن مدن المغرب موقعا، ،الله تعالى وأعد لَها مناخا، وأبهجـهـا منظرا . وأصل إقامة عائلتنا بقبيلة بنى منصور من قبائل غمارة - بضم الغين - ففى قـرية تجكـان مـنها بضـم التاء وسكون الجيم - بيتنا وزاويتنا وضوارع أجدادنا . ولنا الزعامة

---

(١) كانـت لَهـا فراسة حادة، ونظر صائب ، فهى تنظر بنور الله كما جاء فى الحديث ، توفيت شهيدة بجمع، ليلة الاثنين السابع والعشرين من رمضان سنة ١٣٤٠ ودفنت بالزاوية الصديقية . ولما توفى سيدنا الإمام الوالد رضـى الله عـنه يـوم الأربعاء سادس شوال سنة ١٣٥٤ أردنا أن ننقلها لتدفن بجانبه وفتحنا قبرها ونزلت فيه أنـا وخـالى السيد أحمد بن عبد الحفيظ، فوجدنا جسمها سليما، وكفنها سليم كأنها دفنت فى تلك الساعة . وقـد صـح فى الحديث عن النبى ﷺ-قال " الشهادة سبع سوى القتل فى سبيل الله: المبطون شهيد، والغريق شـهيد، وصـاحب ذات الجنب شهيد، والمطعون شهيد، وصاحب الحريق شهيد . والذى يموت تحت الهدم شـهيد، والمـرأة تمـوت بجمع شهيد " يقال: ماتت المرأة بجمع - مثلثة الجيم - إذا ماتت بالنفاس وولدها فى بطنها .

الدينية فى قبائل غمارة كلّها . لا يقطعون فى أمر من الأمور التى تهمهم فى مصالحهم إلا بعد الرجوع إلينا .

ولما خطب مولانا الإمام الوالد ﷺ بنت خالَه السيد عبد الحفيظ - وكان مقيما بطنجة - شرط عليه الإقامة بها . فوافقه وأقام بطنجة، وبنى بها زاوية كبيرة، درس فيها التفسير، كما درس فى الجامع الكبير بطنجة صحيح البخارى، ومختصر خليل فى فقه المالكية، وألفية ابن مالك فى علوم العربية، وهمزية . البوصيرى فى السيرة النبوية، وغير ذلك . وأقام للعلم والتصوف سوقا رائجة، وتخرج به علماء، كان منهم مدرسون وقضاة وغيرهم، وانتشر بسببه فى أرجاء البلدة ذكر الله[1] .

فى هذا البيت - بيت العلم والصلاح والولاية - نشأت، وبلبان الفضل غديت، حفظت القرآن بقراءة ورش، وأتقنت رسمه، حتى كان يرجع إلىّ فيه كبار القراء . ثم شرعت فى حفظ بعض المتون كألفية ابن مالك فى العربية، ومختصر خليل فى الفقه، والأربعين النووية، وبلوغ المرام فى الحديث

ثم حضرت المقدمة الآجرومية بشرح الأزهرى على ابن عمتنا الفقيه الأجل السيد محمد بن عبد الصمد، وعلى شقيقنا الحافظ أبى الفيض رحمه الله .

ثم رحلت إلى فاس لقراءة العلم بجامع القرويين . أكبر جامع بالشمال الأفريقى، وهو أكبر من الأزهر وأقدم . وفيه تخريج علماء المغرب، ودرس فيه أبو بكر ابن العربى المعافرى، ومحي الدين ابن العربى الحاتمى. وابن خلدون، وأبو الحسن الشاذلى، وابن غازى وزروق وغيرهم .

فحضرت الألفية بشرح المكودى على العلامة الحسيب النسيب السيد الحبيب المهاجى . كما حضرت عليه فى مختصر خليل بشرح الخرشى، والسلم بشرح القويسنى فى المنطق .

وحضرت الألفية بشرح ابن عقيل على العلامة الشيخ محمد - بفتح الميم الأولى - ابن الحاج، مع مراجعة حاشيتى السجاعى والخضرى .

وحضرت الألفية أيضا بشرح التوضيح لابن هشام، مع مراجعة التصريح للأزهرى،

---

(١) وأقام بها قبلة عمنا العلامة الولى الصالح السيد القاضى ونشر العلم والطريق لكن على نطاق ضيق، وكان كثير الأسقام، توفى شريعاً ودفن بالزاوية الحراقية بشارع دار البارود، وعليه ضريح يزار . كان صالحا تقيا، له كرامات . وكان أسن من سيدنا الوالد رحمهما الله ورضى عنهما .

وحاشية الطيب بن كيران على التوضيح أيضا، وبشرح المكودى مع مراجعة حاشية ابن الحاج، على ابن المحشى العلامة الشيخ محمد بن الحاج، كما حضرت عليه فى مختصر خليل بشرح الخرشى، وحضرت عليه جملة كبيرة من صحيح البخارى بالجامع الإدريسى، وكان قوى الحافظة، يبدى إعجابه بالحافظ ابن حجر، ويتورك على العينى فى أعتراضاته عليه، ويقول عنه بعد حكاية أعتراضه: كأنى به لم يفهم كلام الحافظ، ثم يجيب عنه.

ولما وصل فى قراءة البخارى إلى كتاب الجهاد والمغازى، بعث إليه حاكم فاس الفرنسى وطلب منه أن يتخطى هذا الباب إلى غيره، ويقرأ ما بعده، فامتنع عن الدرس أياما، وبعد مراجعة وكلام حصل الاتفاق على أن يقرأ كتاب الجهاد، على ألا يتوسع فى الشرح، وهذا نوع من الضغط الذى كان يمارسه الاستعمار الفرنسى فى المغرب.

وحضرت باب الجنايات والقصاص من مختصر خليل بشرح الخرشى على العلامة المحقق السيد أحمد القادرى.

وحضرت فى المختصر أيضا على إمام جامع القرويين العلامة السيد إدريس المراكشى وكان على علمه وفضله فيه غفلة.

كما حضرت فى المختصر أيضا على العلامة الشيخ محمد الصنهاجى، وحضرت من باب الإجارة إلى الآخر من شرح الدردير لخليل، على العلامة الشيخ عبد الرحمن بن القرشى، القاضى. وحضرت مواضع من مختصر خليل بشرح عبد الباقى الزرقانى على شيخ الجماعة العلامة السيد عبد الله الفضيلى. كما حضرت عليه رسالة الوضع، وكان محققا بارعا.

وحضرت فرائض مختصر خليل بشرح الخرشى وحاشية شيخ الجماعة السيد أحمد بن الخياط، على العلامة الشيخ أبى الشتاء الصنهاجى، وكان صالحا خشن المعيشة والملبس، وهو شقيق الشيخ محمد الصنهاجى السابق.

وحضرت المقدمة الآجرومية على شيخ الجماعة بفاس العلامة السيد أحمد بن الجيلانى الأمغارى، وحضر عليه معظم العلماء تبركا. كما حضرت عليه مواضع من مختصر خليل بشرح الخرشى.

وحضرت على العلامة القاضى السيد الحسين العراقى جمع الجوامع بشرح المحلى، وتفسير الجلالين بحاشية الصاوى.

وحضرت مبحث الأداء والقضاء من مقدمة جمع الجوامع، على العلامة المحقق السيد الراضى الحنش، وكان منقطع النظير فى التحقيق .

وحضرت مقدمة جمع الجوامع بشرح المحلى على العلامة المحقق القاضى العباس ابن أبى بكر البنانى، كما حضرت عليه قسم التوحيد من منظومة ابن عاشر وذكر مرة فى درس الأصول حديثا لم يعرف رتبته، فبينتها لَه، فسألنى من أنت ؟ فانتسبت لَه، فقال: تبارك الله، الدر من معدنة لا يستغرب . وطلبت منه مرة فتوى فقيهة فى خصومة كانت بين بعض الإخوان . فسألنى هل يطلع عليها والدك ؟ قلت: نعم . قال: إذاً يجب التدقيق فيها، لأن والدك فى العلم مخيف .

وأخذت عنه أيضا شرح البنانى على السلم فى المنطق . كما أخذت عنه المقولات . وأجاز لى أجازة عامة كتبها لى بخطه، كما أجاز لى الشيخ محمد ابن الحاج السابق، والسيد المهدى العزوزى الذى يروى عن السيد مرتضى الزبيدى شارح القاموس، بواسطتين .

ثم رجع من الشام إلى فاس العلامة المحدث الولى الصالح السيد محمد ابن جعفر الكتانى، فلازمته وأستفدته منه .

ثم رجعت إلى طنجة، فدرست بالزاوية الصديقية لبعض نجباء الطلبة والإخوان المقدمة الآجرومية ورسالة ابن أبى زيد بشرح أبى الحسن . وكتبت إذ ذاك شرحا على الآجرومية، يعتبر أكبر شرح وأكثره فوائد، بعد أن راجعت من شروحها وحواشيها ما ينيف على العشرين . منها شرح الراعى وهو محظوظ، وشرح الشيخ أحمد بابا السودانى، وهو مطبوع بفاس مع حاشية السيد المهدى الوزانى عليه . وشرح الشيخ على بركة التطوانى، وعليه ضريح يزار بمدينة تطوان، وشرحه هذا محظوظ . وشرح سيدى أحمد ابن عجيبة، وحاشية الفيشى على الأزهرى وهما مخطوطان أيضا . وعرضته على سيدنا الأستاذ الإمام الوالد ﷺ فأصلح فيه مواضع بخطه وأقره وسماه شقيقنا الحافظ أبو الفيض رحمه الله تعالى " تشييد المبانى لتوضيح ما حوته المقدمة الآجرومية من الحقائق والمعانى " .

وكنت إلى جانب هذا أقوم باختصار كتاب " إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول " للشوكانى بأسلوب غير أسلوب " حصول المأمول " للقنوجى . مع حضورى على سيدنا الإمام الوالد ﷺ فى رسالة ابن أبى زيد بشرح أبى الحسن، وفى شرح العارف أبى محمد ابن أبى حمزة لمختصره للبخارى قبل أن يطبع . وكنت أرجع إليه فى مواضع من كتاب " مغنى

اللبيب " كانت تشكل عليَّ، فيشرحها لى . وقد قرأت هذا الكتاب مع مراجعة شرح الدمامينى وحواشى الأمير والدسوقى وعبد الهادى نجا الأبيارى، وانتفعت به كثيراً كما انتفعت بكتاب " الاشباه والنظائر النحوية " للسيوطى وكان من مراجعى فى شرح الآجرومية[١] .

وكتبت بحوثا أخرى فى مسائل نحوية عويصة، بإشارة سيدنا الإمام الوالد ﷺ الذى كان يشجعنى على البحث والكتابة، ويدربنى على معرفة المظان . واتخذنى كاتبه، أكتب لَه الفتاوى التى يحررها إلى الجهات المختلفة من أنحاء المغرب[٢] وتارة يأمرنى فأمضيها باسمى . وكان أصدقائه يثنى على معرفتى وفهمى .

وجاء مرة الأستاذ الأديب الشيخ العياشى سكيرج - وهو من تلاميذه، ولَه مؤلفات - برسالة شرح فيها أبيات ابن مالك التى مطلعها:

إنــى أقــول لــن تــرجى وقايــته ... ق المســتجير قــياه قــوه قــى قيــنا[٣]

وعرضها عليه ليبدى رأيه فيها، فقال لَه: اعرضها على فلان - يعنينى - فلَه بهذا العلم معرفة جيدة، فجاءنى بالرسالة، وقال لى: إن السيد أمرنى بعرض الرسالة عليك . وأثنى على علمك وفهمك، فقرأتها وأبديت لَه رأيى فيها . وكان يتحدث إلى ساعات طويلة عن الكتب العلمية فى مختلف العلوم، فيعطينى فكرة عن كل كتاب وما يمتاز به عن غيره، المطبوع منها والمخطوط . وكانت حافظته قوية جدا، إذا أفاض فى موضوع أتى فيه بما يدهش السامع . وكنت أتكلم معه مرة فى مسائل نحوية، وجاء ذكر لفظ (البتة) وهل هو بهمزة وصل ؟ أو قطع ؟ فقال لى: تكلم عليه الحافظ ابن حجر فى الفتح وحكى فيه الوجهين واختار الوصل .

كما حكاهما الأزهرى فى التصريح وأختار القطع، وعين لى الموضع فى الكتابين،

---

(١) قرأت فى كتب النحو كثيرا، مثل شرح المرادى وبدر الدين ابن مالك والسيوطى ودحلان على الألفية . والأول مخطوط، والثلاثة بعده مطبوعة، وحاشيتى الطربباطى ويس العليمى عليها أيضا وشرح التسهيل لابن عقيل مخطوط، وهمع الهوامع شرح جمع الجوامع للسيوطى، والاقتراح فى أصول النحو له أيضا وشرح ابن زكرى على الفريدة وهى ألفية السيوطى فى النحو . وتيسر لى الاطلاع على الفريدة وهى ألفية السيوطى فى النحو كما قال السيوطى، وكنت شديد الشوق للاطلاع على كتاب شرح المفصل لابن يعيش حتى طبع وحقق الله أمنيتى بالاطلاع عليه، وقرأت شرح الجمل للمجرادى، وغير ذلك .

(٢) وكانت فتاواه فى نهاية الدقة والتحرير وكان لا يتقيد بمذهب مالك الذى بلغ فيه رتبة الاجتهاد بل كان يفتى ببقية المذاهب الأربعة، وكان مع هذا واسع الاطلاع فى فقه الزيدية والامامية والإباضية .

(٣) وهى الأفعال التى يجئ فعل الأمر منها على حرف واحد. لأنها معتلة الفاء واللام. نحو وقى ورعى ورسى ورشى ووفى. وقرأت رسالة فى شرحها أيضا للشيخ مصطفى البدرى الدمياطى .

فوجدتهما كما قال .

وقال لى مرة فى بعض خطاباته إلى: أنت فقيه محدث صوفى . وتلقنت منه طريق الشاذلية، كما تلقنه من شيخه القطب الكبير سيدى محمد بن إبراهيم عن شيخه العارف المحب الربانى سيدى عبد الواحد بنانى، عن شيخه العارف المحبوب سيدى محمد أيوب، عن جدنا القطب الغوث الجامع سيدى الحاج أحمد بن عبد المؤمن الغمارى، عن قطب الواصلين مولاى العربى الدرقاوى، وبقية السلسة مذكورة فى أول " إيقاظ الهمم بشرح الحكم " لجدنا سيدى أحمد ابن عجيبة .

ثم أذن مؤذن الرحيل إلى مصر، فركبنا باخرة يابانية من جبل طارق أنا وشقيقى الأكبر الحافظ أبو الفيض رحمه الله، وشقيقى الأصغر منى العلامة السيد محمد الزمزى، ومعنا أحد الأخوان الصديقين أسمه أحمد عبد السلام الشرقى، وشهرته الحاج شكاره رحمه الله[1] .

وقفت الباخرة بنا فى مالطة، فنزلنا إليها، وشهدنا شوارعها ومعالمها، ولغة أهلها، ثلثها عربى، وثلثاها انجليزى . لأنهم كانوا مسلمين[2] يتكلمون العربية لغة القرآن، لكن الاستعمار الانجليزى تمكن منهم، فسلبهم دينهم ولغتهم . وهكذا فعل الاستعمار الأسبانى فى الأندلس، والأستعمار الإيطالى فى صقلية، وهكذا حاول أن يفعل الاستعمار الفرنسى فى البربر بالمغرب، وهذه هى خطة الأستعمار فى كل مكان وزمان .

ثم واصلت الباخرة سيرها، فوصلت إلى الإسكندرية أواخر شعبان سنة ١٣٤٩ هجرية. نزلنا فيها عند قريب لنا أسمه الحاج محمد أجْزْناى، وفى الأسبوع الأول من رمضان وصلنا إلى القاهرة المعزية، واستأجرنا بيتاً فى شارع الكحكيين، بجوار الشيخ الدردير وبعد أنتهاء رمضان وإجازة العيد، التحقت بالأزهر .

فحضرت بالقسم العالى منهاج البيضاوى بشرح الأسنوى فى الأصول، على الشيخ حامد جاد .

وحضرت جمع الجوامع بشرح المحلى من كتاب القياس إلى الآخر، على العلامة

(١) كان ملازما لخدمة شقيقى الحافظ أبى الفيض منذ صغره، وحفظ معه القرآن فى الكتاب الذى كان بزاويتنا. وهو من تلاميذ سيدنا الإمام الوالد ﷺ فى الطريقة الصديقية، توفى بمحطة كفر الزيات ودفن بمشلة قرية قريبة منها، يقام له موسم ثانى خميس من شهر رجب كل سنة، وأهل تلك البلدة يحكون عنه كرامات .

(٢) فتحت جزيرة مالطه سنة ٢٥٥ هجرية، فتحها أبو الغرانيق محمد بن أحمد بن الأغلب، وأسر ملكها . وفتحت صقلية سنة ٢١٢هـ فتحها زيادة الله بن ابراهيم ابن الأغلب. وأرسل لفتحها جيشا بقيادة أسد بن الفرات صاحب كتاب الأسدية فى مذهب مالك .

المحقق (الشيخ محمد حسانين مخلوف العدوى)، كما حضرت عليه رسالة آداب البحث والمناظرة، واستجزته فوجدته لا يعرف معنى الاجازة .

وحضرت السلم بشرح الملوى وحاشية الصبان على الشيخ عبد القادر الزنتانى، برواق المغاربة.

وحضرت التهذيب بشرح الخبيصى فى المنطق، على العلامة المحقق البارع الشيخ محمود الإمام عبد الرحمن المنصورى . أعجبت بشدة تحقيقه، وسعة أطلاعه فى علوم المعقول، والفقه الحنفى فتعرفت به وزرته فى بيته بشبرا، وأطلعنى على مكتبته القيمة .

ولما علم أن عندنا تخريج أحاديث الكشاف للزيلعى، طلب منى إعارته إياه لينسخه كما طلب منى أن أبحث له عن حاشية أبن سعيد التونسى على الأشمونى ولو باستحضارها من تونس، لأنه كان معجبا بها غاية الإعجاب[1] . سمعت منه حديث الرحمة المسلسل بالأولية، كما سمعه من الشيخ أحمد الحلوانى، وكتب لى سنده فيه بخطه، ولم تكن عنده اجازة، رحمه الله وأكرم مثواه .

وحضرت الربع الأول من شرح الدردير لمختصر خليل، على شيخ اسمه الشيخ عمران[2] . وكان سيدنا الأستاذ الإمام الوالد ﷺ قد أوصانى بقراءة فقه الإمام الشافعى ﷺ، فقرأت شرح الخطيب لمتن أبى شجاع، على الشيخ عبد المجيد الشرقاوى، وكان يتقن فقه الشافعية إتقاناً ما عليه مزيد، وهو من ذرية الشيخ عبد الله الشرقاوى شارح مختصر الزبيدى .

وقرأت الربع الأول من المنهج بشرح زكريا الأنصارى وحاشية البجيرمى، على الشيخ محمد عزت، وهو متين فى الفقه الشافعى جداً .

وحضرت دروساً فى جمع الجوامع، على الشيخ دسوقى العربى المالكى، وكان يعنى

---

(١) وهى من حيث علم النحو أفيد وأحسن من حاشية الصبان، والحقيقة أن الصبان أفسد حاشيته بكثرة مناقشته للحفنى تعنتا واعتسافا، وفعل مثله ابن الحاج فى حاشية المكودى، فقد أكثر من الاعتراض عليه بحق وبغير حق ولذلك كانت حاشية المهدى الوزانى على المكودى أفيد، وهى مطبوعة بفاس فى جزءين وذكر لى سيدنا الإمام الوالد ﷺ أنه رأى المكودى فى رؤيا يشكو إليه من اعتراضات ابن الحاج وطلب منه أن ينتصر له، ولما حكاها لى كلفنى أن أقوم بهذه المهمة عنه .

(٢) مما لاحظته أن علماء المغاربة أعلم بالفقه المالكى وأعرف بقواعده وأوسع اطلاعاً على كتبه من علماء مصر بل مما لاحظته بوجه عام أن العالم المغربى يعطى الدرس حقه من البحث والاطلاع على الكتب المتصلة به. ما لا يوجد مثله عند العالم الأزهرى الذى لا يتجاوز فى درسه حل عبارة المتن والشرح . فطريقة المغاربة فى التدريس تعطى الطالب ملكة الفهم، وتعلمه كيفية البحث فى كتب العلم وقواعده، وطريقة الأزهريين تعطى الطالب ملكة الفهم فقط . نعم كان الشيخ محمود الإمام على طريقة المغاربة، حضرنا عليه تهذيب السعد بشرح الخبيصى. فكان لا يدع شيئا يتصل بالكتاب وشروحه وحواشيه، وبالعلم وقواعده إلا أتى به وناقشه وقرره . وبهذه الطريقة حضرت ثلاث سنوات بفاس. حصلت فيها ما يمكن تحصيله فى عشر سنين .

بمناقشة عبارات الشارح، وما كتب عليه الناصر اللقانى، وما أجاب به ابن قاسم العبادى . الخ

وحضرت دروساً من شرح الهداية فى الفقه الحنفى، على مفتى الديار المصرية وشيخ علمائها (الشيخ محمد بخيت المطيعى الحنفى)، كما حضرت عليه دروساً فى التفسير، وزرته للبته فى الزيتون غير مرة، واستجزته فأجاز لى أجازة عامة، وكان يزورنا بالبيت ويسأل شقيقنا الحافظ أبا الفيض عن أحاديث تعرض له، وكان واسع العلم، غزير الإطلاع، حاضر البديهة . سريع النكتة، كريم الخلق، سخى اليد . رحمه الله، وأثابه رضاه .

وسمعت حديث الأولية من مسند الديار المصرية السيد أحمد رافع الطهطاوى، وأجاز لى بما حواه ثبته " المسعى الحميد إلى بيان وتحرير الأسانيد "[1] وأجاز لى الشيخ محمد إمام السقا خطيب الجامع الأزهر . السمالوطى، بعد أن حضرت عليه دروساً فى سنن الترمذى .

وأجاز لى الشيخ عويد نصر الخزاعى المكى عن الشيخ عبد الهادى نجا الأبيارى بمؤلفاته ومروياته . والشيخ طه الشعبينى شيخ الطريقة الشاذلية، وكان عالماً صالحاً فاضلاً، ومن شيوخه الشيخ أحمد الرفاعى شيخ المالكية، والشيخ عبد القادر الشفشاونى صاب كتاب " سعد الشموس والأقمار " .

وممن أجاز لى من شيوخ مصر: الشيخ عبد الغنى طموم إمام المسجد الحسينى، والسيد محمد الببلاوى خطيب المسجد الحسينى ونقيب الأشراف .

والشيخ عبد المجيد اللبان، زرته بمعهد الإسكندرية، وكان شيخاً له، وذلك بعد ما نزلنا من الباخرة بيومين فهو أول شيخ بمصر أجاز لى . ثم لما عين عميداً لكلية أصول الدين، حصل حادث علمى [2]، خدمته فيه خدمة قيمة فتوطدت أواصر المودة بيننا، وجهد أن

---

(١) وهو كتاب نفيس، نبة فيه على أوهام وقعت فى كثير من الأثبات، خصوصاً فهرس الفهارس للشيخ عبد الحى الكتانى .

(٢) لما طبع الدارمى على بشر المريسى، وكانت فيه عبارات صريحة فى التجسيم . كتب الشيخ اللبان مذكرة لشيخ الأزهر يطلب فيها منع تداول الكتاب باعتباره خطرا على عقائد العامة، ونقل منه حديث الأوعال نموذجا لما فيه وفاته أن يذكر ما هو أصرح منه . فحولت المشيخة مذكرته إلى لجنة، من أعضائها محمود أبو دقيقة وعيسى منون، فكتبت اللجنة تقريرا فى ثمان صفحات، قالت فيه عن حديث الأوعال: رواه أبو داود وصححه بعض الحفاظ، ونقلت كلام ابن القيم فى شرح تهذيب السنن، كما نقلت عبارات من تهذيب التهذيب فى توثيق بعض رجال السند . وانتهت إلى أن الكتاب لا خطر فيه على العامة، فلا يمنع . ووز التقرير - بعد طبعه - على جماعة كبار العلماء، فأحرج اللبان وسقط فى يده، وزاره صديق له، فأخبر بالقصة، وقال له: لو طلبت من الشيخ الشنقيطى أن يرد على التقرير، فأنه يفضحنى بكلامه فى المجالس قلت: ما كان الشيخ حبيب الله يستطيع الرد على التقرير، لأنه لا خبرة له إطلاقا بالرجال والأسانيد، وإن كان يستطيع الرد بحق، الشيخ الكوثرى الذى كان مريضا فقال له ذلك الصديق: أعرف عالما شابا يرد التقر ويبطله فقال: أدركنى به . وجاءنى وأخبرنى بالقصة، وطلب منى زيارة الشيخ اللبان، فزرناه فى بيته :

يعيننى مدرساً للحديث عنده فى الكلية، فلم يستطع، لشدة معارضة الشيخ المراغى شيخ الأزهر إذ ذاك .

والشيخ محمد الخضر الحسين، شيخ الجامع الأزهر، ورئيس جمعية الهداية الإسلامية، وكان يزورنى بالبيت، ويسألنى عن أحاديث يحتاج إليها فى مواضع يكتب فيها .

والشيخ محمد دويدار الكفراوى، زرته ببيته فى تلا، وكان قد جاوز المائة بسنتين، فناولنى ثبت الشبراوى، وأجاز لى بما فيه، وكتب الاجازه بخطه . وهو يروى عن الشيخ اسماعيل الحامدى محشى الكفرواى، وصاحب الرسالة فى الحمالة، والشيخ عيسى القلماوى، والشيخ الانبابى والشيخ الشربينى وغيرهم، ويروى بالعامة عن الشيخ إبراهيم الباجورى، وأجاز لى الشيخ أبو النصر القاوقجى عن والده أبى المحاسن وغيره، وأخوه كمال الدين، باستدعاء شقيقى الحافظ أبى الفيض، لأنه توفى قبل حضورى إلى مصر [1]

وفى سنة ١٣٥٠ تقدمت لامتحان شهادة العالمية الخاصة بالغرباء، والامتحان فيها يكون فى اثنى عشر علماً، هى: النحو والصرف، والمعانى، والبيان، والبديع، والأصول، والمنطق، والتوحيد، والفقه، والتفسير، والحديث، ومصطلح الحديث . فنجحت فى

= بالعباسية، وسلمنى التقرير وهو متجهم الوجه مهموم، فقرأته، وقلت لَه: إبطالَه سهل . فسر وانبسطت أسارير وجهه . وبعد أربعة أيام سلمته ردا فى خمس وعشرين صفحة، بينت فيه ضعف الحديث وسقوطه من جهة انقطاع فى سنده، وضعف بعض رجاله، واضطرب فى متنه، ونكارة معناه من عدة وجوه . وبينت خطأ أعضاء اللجنة فى فهم نصوص الحفاظ، وجهلهم باصطلاح أهل الجرح والتعديل . فطبعه وقدمه إلى المشيخة التى قدمته إلى اللجنة، فاجتمع أعضاؤها ثانيا وكتبوا تقريرا آخر عدلوا فيه عن رأيهم الأول. ووافقوا على منع الكتاب . وأطلعنى الشيخ على هذا التقرير وهو مسرور بانتصاره، وشكرنى كثيرا رحمه الله . وحاصل حديث الأوعال: أن أربعة من الملائكة على صورة الأوعال - والوعل التيس الجبلى - يحملون العرش على أكتافهم، والله فوق العرش .

(١) وممن أجاز لى السيد أبو القاسم الدباغ وكان مجتهداً لا يقلد . والشيخ محسن ناصر شيخ رواق اليمن عن صاحب " عقد اليواقيت الجوهرية " ومن طريقه يتصل سندنا بالسادة آل با علوى وغيرهم من أشراف حضرموت وعلمائها والشيخ الرحالة عمر حمدان التونسى، بعث لى بالاجازة من مكة وبها توفى. وهو يروى عن أكثر من مائة شيخ من مختلف البلاد الاسلامية . والشيخ محمد عبد الباقى الأنصارى بعث لى من المدينة المنورة بكتابه فى المسلسلات، وأجاز لى به وبسائر مروياته، ومن شيوخه خاله علامة الهند أبو الحسنات محمد عبد الحى اللكنوى . وشيخ علماء دمياط الشيخ محمد محمود خفاجة، كتب لى بالإجازة على ظهر كتاب أوائل بعض الكتب الحديثية لشيخه أبى المحاسن القاوقجى . والشيخ بدر الدين الدمشقى والشيخ توفيق الأيوبى . والشيخ سعيد الفرا وغيرهم من علماء الشام . والشيخ عبد الواسع اليمنى، بعث لى بالإجازة من صنعاء، ثم قابلته بمصر، وله مؤلفات مطبوعة . وشيخ المالكية بتونس الشيخ الطاهر بن عاشور، بعث لى بالإجازة وبعض مؤلفاته من تونس . والسيد هبة الله الحسينى، بعث لى بالإجازة من النجف، وعن طريقه يتصل سندنا بعلماء الشيعة الإمامية . وأجاز لى أيضا شقيقنا الحافظ أبو الفيض بعد أن أخذت عنه نخبة الفكر ومقدمة ابن الصلاح وسنن أبى داود سماعا . ومواضع من جامع الترمذى وبعض المسلسلات ودروسا فى السيرة وفى نيل الأوطار وإرشاد الفحول .

الامتحان، وحصلت على الشهادة، ممضاة باسم شيخ الأزهر، وهو (الشيخ محمد الأحمدى الظواهرى) فى ذلك الوقت، وكان عالما ذكيا صوفيا، إلا أنه ضعيف .

وفى هذه السنة طلب منى كثير من الطلبة أن أدرس لَهم بعض العلوم فشرعت فى تدريس المكودى على الألفية، وأنا أول من درسه بالأزهر، ودرست لَهم الجوهر المكنون فى البلاغة، والسلم فى المنطق، بشرح البنانى وسلم الوصول إلى علم الأصول لابن أبى حجاب، ثم درست جمع الجوامع بالرواق العباسى بين العشاءين، فختمته فى أربع سنوات .

وحضر على الطلبة من أندونيسيا والَهند وتركيا ويوغوسلافيا ورومانيا وألبانيا والشام والحجاز واليمن والحبشة والصومال والسودان وشمال إفريقيا وغيرها، وكان الطالب من أندونيسيا والحبشة والصومال إذا تخرج وسافر إلى بلده، يوصى إخوانه القادمين إلى مصر، بالحضور على، وكنت أذاكر دروس أمتحان العالمية لطلبة القسم العالى المصريين، وجميع من ذاكرت لَهم نجحوا، وهم يتولون الآن وظائف فى الأزهر وغيره، بل الطلبة الغرباء الذين حضروا على، أو ذاكرت لَهم نجحوا، وتولوا فى بلادهم وظائف كبيرة .

وفى سنة ١٣٥١ زارنا بالبيت الأستاذ حسن قاسم - من ذرية الشيخ عبد القادر الكوهن - وطلب منى أن أكتب مقالات (لمجلة الإسلام) التى كان محررا فيها - وهى أكبر المجلات الإسلامية إذ ذاك - فكتبت فيها بحوثا حديثية، أعجب بها القراء أيما إعجاب . وأنهالت على إدارة المجلة، خطابات الاستحسان والاستزادة من الشام والسودان والمغرب والجزائر والبحرين وغيرها . وكتب إلىّ الشيخ محمود شويل أمام المسجد النبوى بالمدينة المنورة . كتابا مطولا يثنى فيه على علمى وأطلاعى، ويقول: كنا نعد علم الحديث. ينتهى فى مصر بعد الشيخ رشيد رضا والشيخ أحمد شاكر[1] لكن حين قرأنا بحوثك ضممناك إليهما، فأنت عندنا فى الرتبة بعد الشيخ شاكر . وقابلت مرة طالبا سودانياً عند أحد الكتيبة بالأزهر، فلما عرفنى أبدى إعجابه بما قرأ لى، وقال: عندنا فى السودان. إذا جاء

(١) مع أنه لم يكن من علماء الحديث، وترتيبه لمسند أحمد ليس فيه شئ من الصناعة الحديثية. بل فيه أغلاط كثيرة فى الكلام على تصحيح الأحاديث وتضعيفها .. وأحياناً يتكلم فى الرجال بلسان العصبية الوطنية. مثلا عبد الله بن لَهيعة المصرى، يقول عنه: ثقة حجة، فيرفعه إلى درجة رجال الصحيح. مع أن آخر ما وصل إليه نقد الحافظ الهيثمى فيه: أن حديثه حسن، لكن ينبغى تقييده بما صرح فيه بالسماع. لأنه مدلس، ذكره الحافظ فى طبقات المدلسين، صرح بضعفه فى التلخيص الحبير، والكافى الشاف: ولذا الحافظ المنذرى أدق من الهيثمى .. حيث صرح فى الترغيب بأن حديث ابن لهيعة حسن فى المتابعات . وقد كان للشيخ أحمد شاكر فى الليث بن سعد وعبد الله بن وهب وعبد الرحمن بن القاسم المصريين الثقات الأئمة غناء عن توثيق ابن لهيعة . نعم كان الشيخ رشيد رضا ذا خبرة بالصناعة الحديثية .

مقال أو افتاء مصر باسم أحد شيوخ ثلاثة، سلموه بدون مناقشة .

قلت: من هم ؟ قال: (الشيخ بخيت والدجوى والغمارى) . ومما مر بمصر فى طريقه إلى الحجاز العلامة المحدث السيد عبد الحى الكتانى، وذهبت لزيارته، هنانى بالحصول على شهادة العالمية، وأبدى إعجابه ببحوثى، وقال: نحن نفخر بما تكتبه، وكنت قبل ذلك سمعت منه حديث الأولية، وحضرت عليه دروسا فى حاشية الشنوانى على مختصر ابن أبى جمرة، بجامع القرويين، وأجاز لى أجازة عامة .

واستمرت كتابتى بمجلة الإسلام، عشر سنوات، حصلت فيها مناقشات بينى وبين بعض العلماء، فى مسائل متعددة . وكتبت أيضا فى مجلة (نشر الفضائل والآداب الإسلامية)، ومجلة (هدى الإسلام)، ومجلة (الرابطة الإسلامية)، ومجلة (الشرق العربى)، ومجلة (الإرشاد) التى يصدرها خطباء وأئمة المساجد بمصر، ومجلة (المسلم) التى تصدرها العشيرة المحمدية، وهى جمعية صوفية فاضلة مباركة . ونشرت مجلة (الإسلامى) التى تصدر فى دمشق مقالا لى فى شرح حديث، نقلا عن مجلة الشرق العربى .

وتعرفت بالأستاذ العلامة المطلع البارع (الشيخ محمد زاهد الكوثرى) رحمه الله، فتوطدت بيننا أواصر المودة والصداقة، وكان يسألنى عن بعض الأحاديث التى يسأل عنها، وكنا مرة عند فضيلة (المرحوم الشيخ يوسف الدجوى)، بعزبة النخل، وكان المجلس غاصا بالعلماء وغيرهم وهو يتكلم فى مسائل علمية متنوعة، فوجه إليه أحد الحاضرين سؤالا عن حديث، فوجه السؤال إلى، وقال: لا يفتى ومالك فى المدينة، ولما استجزته ببيته بالعباسية أجاز لى، وأستجازنى وألح على أن أجيز لَه بل بلغ من وثوقه بعلمى أنه نشر مقالا[1] بمجلة

---

(١) جمع بعض محبيه وتلاميذه مقالاته ونشروها فى كتاب خاص ومع أنهم نشروا جميع مقالاته المطبوعة فى مجلة الإسلام لم ينشروا المقال المشار إليه . لأن فيهم حاقدا أشار بعدم نشره . ولم يكن منا إساءة لذلك الحاقد إلا أننا فتحنا له بيتنا يأوى إليه متى شاء، ونفعناه بعلمنا ومكتبتنا ومائدتنا قبل أن يعرف الكوثرى ببضع سنوات . ولما عرفه أخيرا، سعى كالشيطان ليفسد الصداقة التى بيننا . لكن المرحوم الكوثرى كان عاقلا لا يصدق كلام الحقدة الكذبة، وظلت صداقتنا على حالها، نتزاور، ونتقابل يوم الجمعة بمسجد محمد بك أبى الدهب، ويوم الاثنين بمكتبة الخانخى . وإذا زرته فى بيته وحضرت صلاة المغرب أو العشاء قدمنى للصلاة بالحاضرين، ولم يتقدم قط رغم إلحاحى عليه . وأذن لجماعة من علماء الهند فى ترجمة كتابى " إقامة البرهان على نزول عيسى فى آخر الزمان " إلى اللغة الأردية قبل أن يستأذنى، ثم أخبرنى بذلك . وكان إذا تقابلنا فى مكتبة الخانخى . يخرج من جيبه خطابا لذلك الحاقد، ويسألنى عن أحاديث سأله عنها. فأجيبه بما أعلم فيها . كل هذا وأكثر منه حصل بعد سعى ذلك الحاقد ـ أسخن الله عينه فى إفساد المودة بيننا. وكنا نعجب بالكوثرى لعلمه وسعة اطلاعه وتواضعه، كما كنا نكره منه تعصبه الشديد للحنفية. تعصبا يفوق تعصب الزمخشرى لمذهب الاعتزال . حتى كان يقول عنه شقيقنا الحافظ أبو الفيض: هو مجنون أبى حنيفة. ولما أهدانى رسالته " احقاق الحق " فى الرد على رسالته إمام الحرمين فى ترجيح مذهب الشافعى. وقرأتها، وجدته غمز نسب الإمام الشافعى. ونقل عبارة عن زكريا الساجى فى ذلك . فلمته على ==

الإسلام يقرظ فيه كتابى " إقامة البرهان على نزول عيسى آخر الزمان " الذى رددت به على الشيخ محمود شلتوت، قبل ان يراه . مع أنه كان ضنينا جدا بالتقريظ[1] ثم تقدمت لامتحان شهادة العالمية الأزهرية، ويكون الامتحان فيها فى العلوم السابقة، مضافا إليها علم الوضع، وعلم العروض والقوافى، وعلم الأخلاق . فنجحت وكنت الثالث من ستة نجحوا، وكان المتقدمون للامتحان ستة وثمانين ومائتين . وحصلت على الشهادة، وهى ممضاه باسم الملك فاروق . ورأى المرحوم الكوثرى أسمى فى جريدة الأهرام، فأسرع إلى بيتى بسوق السلاح، وكان أول من هنأنى بالنجاح .

وبعد هذا بأيام زرت الشيخ محمود شلتوت فى بيته بدعوة منه ـ وكان إذ ذاك وكيلا لكلية الشريعة ـ فهنأنى بعض الأصدقاء عنده، فقال لَه الشيخ شلتوت: نحن نهنى الأزهر والشهادة الأزهرية بحصول الشيخ عبد الله، وكنت قبل ذلك زرته فى كلية الشريعة باستدعائه أيضا، ليعرف بى، بعد أن قرأ ردودى عليه بمجلة الإسلام، فى نزول عيسى عليه السلام، وأحدثت دويا كبيراً فى الأوساط العلمية . وقال لى حين رآنى: كنت أظنك شيخا كبيرا، لكنك شاب . قلت: أنا كما يقول المثل العربى: تسمع بالمعيدى خير من أن تره:

= هذا الغمز، وقلت لَه ان الطعن فى الأنساب ليس برد علمي، فقال لى: متعصب رد على متعصب، هذه عبارته فاعترف بتعصبه . وزرته مرة ببيته أنا والشريف الجليل السيد محمد الباقر الكتانى. وجرى الحديث بيننا فى مسائل علمية، وجاء ذكر الحافظ ابن حجر، فأبدى السيد الباقر أعجابه بحفظه وبشرحه للبخارى . وأيدته فى ذلك، فقلل من قيمة شرحه المذكور، وقال: كان يعتمد على الأطراف فى جمعه لطرق الحديث ـ وهذا غير صحيح ـ وذكر أنه أى الحافظ ابن حجر كان يتبع النساء فى الطريق ويتغزل فيهن، وأنه تبع امرأة ظنها جميلة حتى وصلت إلى بيتها وهو يمشى خلفها وكشفت لَه البرقع فإذا هى سوداء دميمة فرجع خائبا !!١ وسر هذه الجملة أن الحافظ كان يحمل على بعض الخفية فى كتب التراجم، مثل الدرر الكامنة ورفع الأصر . وقال عن العينى الحنفى: كان يأخذ كراريس من فتح البارى من بعض طلبته، فيستفيد بها فى شرحه، فلما علم الحافظ ذلك منع أعطاء الكراريس للطلبة . وأكبر من هذا أن الكوثرى رمى أنس بن مالك رضي الله عنه بالخرف، لأنه روى حديثا يخالف مذهب أبى حنيفة، وأقبح من هذا أنه حاول تصحيح حديث موضوع لأنه قد يفيد البشارة بأبى حنيفة. وهو حديث " لو كان العلم بالثريا لتناولَه رجال من فارس " فان الحديث فى الصحيحين بلفظ " الإيمان " والنبى ﷺ لما قالَه وضع يده على كتف سلمان رضي الله عنه فغير بعض الوضاعين لفظ الإيمان بالعلم، كما بينه شقيقنا الحافظ أبو الفيض فى "المثنونى والبتار" وقال: لو فرض صحته لم يكن فيه إشارة إلى أبى حنيفة ولكن إلى حفاظ الحديث الذين خرجوا من فارس. مثل أبى الشيخ وأبى نعيم لأن العلم فى عرف الشرع يراد به الكتاب والسنة، لا الرأى والقياس . فتعرض لَه الكوثرى فى " تأنيب الخطيب " ورد عليه بعبارة فيها جفاء. فكتب شقيقنا ردا عليه، جمع فيه سقطاته العلمية، وتناقضاته التى منشأها تعصبه البغيض، وقسا عليه بعض القسوة، وهو مع هذا معترف بعلمه واطلاعه . ولم يقدم الرد للطبع، احتراما لصداقته . والعالمان المختلفان فى الرأى لا تنفصم صداقتهما كالمحاميين يختلفان فى ساحة المحكمة، ويجتمعان خارجها صديقين . لكن بعض الجهلة مثل ذلك الحاقد ـ أسخن الله عينه ـ أتخذوا هذا الخلاف العلمى سببا لإشعال نار العداوة بيننا. فخيب الله مسعاهم، وردهم خاسئين . رحم الله شقيقنا والكوثرى عالمى عصرهما بدون مزاحم. وجمعنا وإياهما فى دار رحمته .

(١) وقد ألح عليه الشيخ عبد القادر بن بدران فى تقريظ بعض كتبه كتهذيب تاريخ ابن عساكر. فامتنع .

قال لا أقصد هذا، وإنما أقصد أن سنك دون مقالاتك التى تدل على علم كبيرا واطلاع واسع لا يتأتيان إلا من رجل تقدمت به السن، مع طول الدراسة . قلت: هذا من فضل الله على، وكان سنى حينئذ ٣٣ سنة، ثم نادى على الشيخ محمد المدنى، وعرفه بى، وحصلت بيننا مناقشة فى مسائل علمية متعددة . وصارت بعدها معرفة، على خلاف فى الرأى بيننا . ولما تم طبع " إقامة البرهان " قدمت له نسخة فى بيته، فكتب ردا عليه بضع مقالات فى مجلة الرسالة، فكتبت كتابا آخر سميته " عقيدة أهل الإسلام فى نزول عيسى عليه السلام [1]" وطبع، وقدمته إليه أيضا فى بيته، فلم يكتب شيئاً بعده .

* * * * * * * *

وقد وفقنى الله إلى كتابة عدة مؤلفات وقامت بطبعها مكتبة القاهرة . وهى:

اتحاف الأذكياء بجواز التوسل بسيد الأنبياء	طبع
الأربعون حديثا الغمارية فى شكر النعم	طبع
الأحاديث المنتقاه فى فضائل سيدنا رسول الله	طبع
الأربعون حديثا الصديقية فى مسائل أجتماعية	طبع
الاستقصاء لأدلة تحريم الاستمناء	طبع
إقامة البرهان على نزول عيسى آخر الزمان وترجم إلى اللغة الأردية .	طبع
الرد المحكم المتين على كتاب القول المبين	طبع
عقيدة اهل الإسلام فى نزول عيسى عليه السلام	طبع
سمير الصالحين ج١	طبع
سمير الصالحين ج٢	طبع
حسن البيان فى ليلة النصف من شعبان	طبع
فضائل القرآن	طبع
شرح الآجرومية	مخطوط
فضائل رمضان	طبع
تخريج أحاديث منهاج البيضاوى فى الأصول	مخطوط
مصباح الزجاجة فى طلاة الحاجة	طبع
تخريج أحاديث اللمع	مخطوط

(١) مطبوع بمكتبة القاهرة وكل كتبنا .

قصة آدم عليه السلام	طبع
قرة العين بأدلة إرسال النبى إلى الثقلين	مخطوط
قصة ادريس وهاروت وماروت عليهم السلام	طبع
خواطر دينية ٢ج	مخطوط
جواهر البيان فى تناسب سور القرآن	مخطوط
نهاية الآمال فى صحة حديث عرض الأعمال	طبع
بدع التفاسير	طبع
الحجج البينات فى إثبات الكرامات	طبع
واضح البرهان على تحريم الخمر والحشيش فى القرآن	طبع
دلالة القرآن المبين على أن النبى أفضل العالمين	طبع
النفحة الإلَهية فى الصلاة على خير البرية	طبع
إرشاد السالك فى فقه المالكية وهو شرح وجيز على الإرشاد[1]	طبع
إعلام النبيل بجواز التقبيل	طبع
الكنز الثمين فى حديث النبى الأمين	طبع

هذا سوى ما كتبته من مقالات إذا جمعت جاءت فى مجلد .

ومن تعليقات على كتاب " أخلاق النبى عليه السلام " لأبى الشيخ ابن حيان، وكتاب " إعجاز القرآن " للخطابى، والمقاصد الحسنة للسخاوى وكتاب " تنزيه الشريعة المرفوعة " لابن عراق، وتأييد الحقيقة العلية للسيوطى، ورسائل أخرى لَه أيضا، وشرح الأمير على مختصر خليل فى فقه المالكية، وغير ذلك . ونسأل الله المزيد من فضلَه .

ولما ذهبت إلى فارس أول مرة، صعب على العلم وأستغلقت أبوابه فكتبت إلى مولانا الأستاذ الإمام الوالد ﷺ أشكو إليه حالتى، وأستشيره فى اتخاذ مدرس خاص يفهمنى الدروس، فأجابنى بألا أستعين بمدرس إطلاقا، وأمرنى باستذكار الدروس والحضور على المشايخ، سواء أفهمت أم لم أفهم ؟ وقال لى: العلم لنا مضمون، وعما قريب يفتح الله عليك وكذلك كان، فلم تمر سنة حتى فتح الله علىَّ ولَه الحمد . ثم تاقت نفسى للسفر إلى مصر .

(١) طبعته مكتبة القاهرة وكل كتبنا وحاز إقبالا ورواجا كبيرا فى البلاد الإفريقية التى ينتشر فيها المذهب المالكى. فاتفقت إحدى المطابع مع أزهرى على أن يدخل عليه تغييرات طفيفة، وينسبه إلى نفسه، وقامت بطبعه لحسابها !!!

وطلبت منه ذلك . قال لى: ستذهب إليها إن شاء الله، ولكن أحب أن تذهب إليها عالما يحتاج إليك علماء مصر .

وقد حقق الله كلامه، فاحتاج إلى منهم كثيرون فى مقدمتهم المرحومون المشايخ بخيت والدجوى واللبان والخضر حسين .

وكذلك حقق الله بشارته لى فى كتاب بعث به إلى وأنا بمصر، قال فيه: ولابد أن تكون عالماً كبيراً، ومحققا شهيرا . وقد رزقنى الله والمنة لَه التحقيق فى علوم النحو والأصول والمنطق والحديث بفنونه الثلاثة، مع المشاركة التامة فى علوم الفقه والبلاغة وغيرها[1] .

وحافظتى قوية والحمد لله .. واطلاعى كبير بفضل الله .. ولَهذا أعجبت بالمرحوم الكوثرى الذى كان يرضينى إطلاعه الواسع، وخبرته التامة بالرجال . ويمكن أن أقول - تقريراً للواقع: بعد وفاة سيدنا الأستاذ الإمام الوالد ﷺ وشقيقنا الحافظ أبى الفيض، والشيخ بخيت والشيخ الكوثرى، والشيخ محمد الخضر حسين، لا يوجد عالم يجوز تقديرى ويرضى معرفتى وإطلاعى . وكنت أعد نفسى ثالثا للكوثرى والخضر حسين لا أقول هذا فخرا، وأى فخر لمن ينتظرك الموت بين لحظة وأخرى ؟ وإنما أقولَه تعريفا بنفسى وأمتثالاً لقولَه تعالى ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ (الضحى: ١١) واقتداء بيوسف الصديق الذى قال لملك مصر:

﴿ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ (يوسف: ٥٥) وتأسيا بعلماء هذه الأمة وصلحاتها، ولا يفوتنى أن أذكر حصولى على أجازات من علماء الحجاز واليمن وتونس وغيرها . وحُج بى وأنا صغير، حين حجت العائلة، ثم أديت فريضة الحج سنة ١٣٧٨

---

(١) مع أنى لم أتلق علوم البلاغة عن أحد الا مواضع من شروح التلخيص أوضحها لى سيدنا الأستاذ للإمام الوالد ﷺ، بل عكفت على مطالعة عقود الجمان وشرحه، والمقامات الحريرية وشرحها للشريشى، هى ملأى بأنواع البديع، ومما ساعدنى على فهم علوم البلاغة تمكنى فى علم العربية الذى يعتبر أساسا لها ومهادا . ودرست الجواهر المكنون للطلبة بالأزهر، كما ذاكرت لطلبة العالمية بالقسم العالى للأزهر مختصر السعد بحاشية البنانى وتقرير-الانبانى، ومما يذكر أن بعض أولئك الطلبة رغب إلى شقيقنا الحافظ أبى الفيض أن يذاكر لَه العلوم المقررة عليهم فى الامتحان وهى تفسير النسفى، والأحكام للآمدى فى الأصول، ومختصر السعد على التلخيص فى البلاغة، والمسايرة فى التوحيد والخبيصى على تهذيب السعد فى المنطق. فاعتذر لَه، وأحاله علي. فاستقلنى فى نظره - وكنا حديثى عهد بالحضور إلى مصر، لم يمر علينا فيها أكثر من سنة - لكنه أضطر أن يأتى إلى، فذكرت لَه ولإخوانه هذه العلوم فى مدى أربع سنوات هى مدة القسم العالى، وصار من إعجابه بى، ووثوقه بعلمي، لا يثق بفهمه فى أى مسألة حتى يعرضه على وأوافقه عليه . درست لبعض الطلبة الألبانيين الفاتحة وأوائل سورة البقرة من تفسير البيضاوى، واول شرح التحرير لابن أمير الحجاج فى الأصول، وأطلعت من كتب الحديث والأصول والتفسير وغيرها على شئ كثير جدا . وكذلك كتب التراجم والرجال والطبقات على أختلاف أنواعها واستدركت على الحفاظ صحابيا لم يذكروه، وهو الحارث بن سعيد عم عمير بن سعيد، وحديثه فى مستدرك الحاكم بإسناد صحيح . ولى أستدراكات أخرى غيره، وبالله التوفيق .

وكنت مالكيا ثم صرت شافعيا، ثم تركت التقليد، لا إزراء على الأئمة ﷺ، ولكن لأن التقليد إنما هو للعوام الذين لا يعرفون قواعد الاستنباط والاستدلال، ومن عرفها وتمكن فى معرفتها، لا حاجة به إلى التقليد على أنى لا أفتى إلا على مذهب مالك، أو الشافعى، لأنى لا أحب أن أحمل أحدا على أجتهادى ورأيى، إلا فى مسألة وضح دليلها، وعرف طريقها .

ورأيت مبشرات متعددة فرأيت النبى ﷺ ومعه الشيخان وغيرهما، ورأيت جبريل عليه السلام وأخبرنى أنه جاء من الأبواء .

ورأيت عليا عليه السلام، ورأيت الحافظ ابن حزم مرات وابن العربى المعافرى، وعز الدين ابن عبد السلام وحصلت بيننا مذاكرة فى قاعدة علمية والسيد أحمد البدوى رأيته مرتين، ورأيت أبا الحسن الشاذلى شارح الرسالة والجمل محشى الجلالين، وجدنا أبا العباس ابن عجيبة ورؤيت لى مبشرات كثيرة، منها إنى زرت مرة قرية أريش الحجر من جملة زياراتى لَها، وألقيت درسا حديثنا كعادتى مع أهل البلدة، وانجر الكلام إلى موضوعات متنوعة حتى أنتهى على أشراف المغاربة وهل هم ينتمون إلى الحسنين ؟ فأخبرتهم أن معظم الأشراف عندنا ينتمون إلى الحسن بن على عليهما السلام، وقليل منهم ينتمى إلى أخيه الحسين عليه السلام، وسألونى أن أملى عليهم نسبى فأمليته عليهم، لأنى حفظته وأنا فى الكُتّاب، فقال لى الشيخ الحسينى - وكان أمام مسجد وسط البلد ومعلم القرآن يتبرك به أهل البلد لصلاحه وعزوفه عن الدنيا رحمه الله -:

أشهد أنك شريف منسب حقا، قلت: وما ذاك ؟ قال: رأيت الليلة الماضية النبى ﷺ وقبلت يده ؛ ووجدت شخصا يقعد بجانبه فسألت عنه، فقال: هذا ولدى وسيتلو عليك نسبه، فأصبحت بيننا على غير ميعاد، وتلوت علينا نسبك . والله يقول الحق، وهو يهدى السبيل، وحسبنا الله ونعم الوكيل ؟

تم بحمد الله وتوفيقه
كتاب بدع التفاسير
للشيخ عبد الله محمد الصديق الغمارى

أشراف
محمد بن على بن يوسف

فهرس الكتاب